الله

هو الله
لا إله إلا هو
الرحمن
الرحيم
الملك
القدوس
السلام
المؤمن
المهيمن
العزيز
الجبار
المتكبر
الخالق
البارئ
المصور
الغفار
القهار
الوهاب
الرزاق
الفتاح
العليم

القابض
الباسط
الخافض
الرافع
المعز
المذل
السميع
البصير
الحكم
العدل
اللطيف
الخبير
الحليم
العظيم
الغفور
الشكور
العلي
الكبير
الحفيظ
المقيت
الحسيب

الجليل
الكريم
الرقيب
المجيب
الواسع
الحكيم
الودود
المجيد
الباعث
الشهيد
الحق
الوكيل
القوي
المتين
الولي
الحميد
المحصي
المبدئ
المعيد
المحيي
المميت

الحي القيوم
الواجد الماجد
الواحد الصمد
القادر
المقدم
الأول
الظاهر
الوالي
البر
المنتقم
الرؤوف
مالك الملك
الجامع
المغني
الضار
النور
البديع
الوارث
الرشيد
الصبور

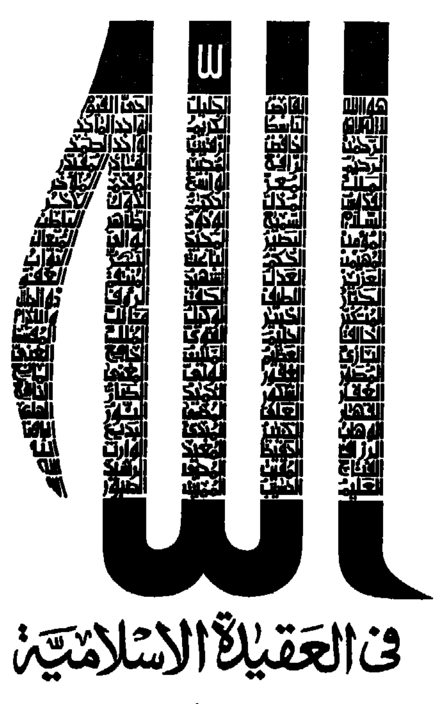
المقتدر
المؤخر
الآخر
الباطن
المتعالي
التواب
العفو
ذو الجلال والإكرام
المقسط
الغني
المانع
النافع
الهادي
الباقي

العقيدة الإسلامية

رسالة جديدة في التوحيد

أحمد بهجت





في العقيدة الإسلامية

رسالة جديدة في التوحيد

أحمد بهجت

تصميم الغلاف:
عبد السلام الشريف

الطبعة الثالثة
١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء القاهرة
تليفون : ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠١ يوان

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

الى محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم
اهـدى هـذا الكتـاب

لو استطاع المسلمون أن يفرشوا جلودهم على الأرض كى يسير فوقها النبى ، ما أعطوه حقه من الوفاء ، فلولا احتماله العناء فى الله ما عرفنا الله .

احمد بهجت

موقف اعتــذار

قال لى : لا تأخذ خبرى عن الحرف .
وقال لى : الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عنى ؟

« من كتاب المواقف للنفرى »

إذا كان الحرف لا يرى نفسه ولا يحيط بها ، فكيف يستطيع التعبير عن الله تعالى أو وصفه ؟ هذه أول صعوبة تواجه من يكتب عن الله .

بأى حروف يكتب ؟

إن الحروف جزء من اللغة ، واللغة اشارة إنسانية إلى شىء ، والله ليس كمثله شىء .

إذا اجتاز الكاتب مشكلة اللغة معتمدا على اضطراره ، وخاض بحار الحروف معتمدا على عفوه سبحانه ، فمن أى موقف يكتب ؟

هل يكتب من موقف رؤية الله عز وجل ؟

أو يكتب من موقف القرب من الله تعالى ؟

أو يكتب من موقف التوبة التى تمنحها الدموع شهادة على الصدق ؟

الموقف الأول فى الدنيا مستحيل ، يستحيل على الإنسان أن يقف أمام رؤية الله عز وجل ويوجد . ان دخوله هذا الموقف يعنى خروجه من نفسه وصعق ذاته . . يعنى فناءه عن الكتابة وتحوله إلى الكلمة ذاتها ، والكلمة هى الصمت العميق .

يروى القرآن الكريم تجربة نبى سأل ربه الرؤية . .

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما

تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)[1] .

تروى التجربة انهيار الجبل وهو يعاين هيبة الله ، وصعق نبى من أولى العزم الكبار ، وتوبته واعتذاره إلى الله حين افاق . . وإذن لا يرى الله تبارك وتعالى على الأرض أحد . . يستوى فى ذلك الأنبياء وغيرهم من البشر .

إذا وقف الإنسان فى موقف القرب من الله تعالى ابتعد عن كل ما سواه . . ومن ابتعد عن كل ما سواه لم تلزمه الكتابة ، يتلقى فيض الله تعالى فلا يحتاج إلى القراءة والكتابة ، يصير أميا كالنبى صلى الله عليه وسلم . . والكتابة اشارة إلى شىء ، والاشارة تعنى البعد لا القرب ، والمرء لا يشير إلى الشىء وهو قريب منه ، وكلما اقترب الإنسان اتسعت الرؤية ، وإذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة . وإذن فان موقف القرب من الله تعالى وقف على الأنبياء والأولياء والشهداء . وهو مستحيل على الخاطئين من أمثالنا .

لم يبق لنا غير الموقف الأخير اذن . .

موقف التوبة التى تمنح الدموع ملحها الصادق . . يحكى جلال الدين الرومى هذه القصة :

كان رجل يدخل المسجد ، على حين كان الناس يخرجون منه . . تساءل الرجل :

ـــ ماذا حدث . . ولماذا يخرج الناس من المسجد قبل أن أصلى .

قال له أحد المصلين : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام الصلاة مع الجماعة ، وفرغ من أسرارها وانصرف ، لقد جئت متأخرا . .

عندئذ انطلقت من الرجل آهة تصاعد منها الدخان ، وحملت هذه الآهة رائحة من دم قلبه .

قال له رجل من الجمع : هب لى تلك الآهة وصلاتى لك .

قال : وهبتها لك وقبلت الصلاة .

وأخذ الرجل تلك الآهة المقترنة بمائة ضراعة ، فلما جاء الليل قال له صوت فى الرؤيا : لقد اشتريت جوهر الحياة وشفاء الروح ، فبحرقة هذه الآهة ، وبصدق هذا الندم ، وبسبب الضراعة قبلت صلاة الخلق كافة .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .

توحى القصة أن طريق الإنسان إلى الله هو قلب الإنسان . حتى لو كان هذا القلب قد جاء بعد اقامة الصلاة وانتهائها وخروج المصلين ، يكفى أن يطلق القلب آهات الألم والضراعة ، يكفى أن يتجه إلى الله ، لتصير الآهة صلاة .

قال الكاتب لنفسه إن هذا الموقف الأخير يحتويه ، لقد صنع من تراب وماء ، وأحب وهو معتم ، وفرح كثيرا وحزن أوقاتا قليلة ، ثم هزه الشوق إلى الله ، وعرف أن الانسان لا يشتاق إلى الله إلا إذا غاب عن الله . عندئذ أطلق آهة ندم تمزقت بها روحه ، أخيرا صارت له روح عاشق ، لكنه عاشق مذنب . . عاشق يحمل نفسا كالزجاج الأسود . .

هنالك يكشف الزجاج الأسود عن حكمته . .

من خلال الزجاج الأسود نستطيع أن ننظر إلى النور ، دون خوف أن يذهب البهاء بقدرة العينين على الرؤية ..

تصور كاتب هذه الصفحات أنه جاء إلى الدنيا ووقع له ما وقع ليصير ما صاره ويكتب ما سيكتب ، قبل أن يبدأ عاد إلى الله بذنوبه ونظر إلى عفوه . . وبرئت نفسه من العلم والفضل والحب ، وتساءل ما الذى بقى له مبررا ليكتب . ثم صرفه إلى الكتابة ما قاله العارف بالله لتلميذه يوما وهو يؤنبه :

ــــ ليس لك من المحبة شىء .

قال التلميذ : ولكن لى حسرات المحبين .

تصور كاتب هذه السطور أن مبرره فى الكتابة جزء من حسرات المحبين . . لقد ضيعوا أوقاتا طويلة فى البعد عن الله ، وليس بعد حسرة البعد عنه ـ سبحانه ـ حسرة . .

ولقد دارت الأرض حول الشمس مرات عديدة .

ودار العبد الترابى حول ذنوبه مرات عديدة .

ثم أصابت روحه قطرة من العشق فتغير . . ثم صار قلما ـ لا فضل له ـ فى يد المشيئة . .

وهكذا تجاسر التراب وتطلع إلى الكتابة عن الله .

نسى التراب بالحب أنه تراب .

اللهم اغفر جرأة المحبين .

أحمد بهجت

« بسم الله الرحمن الرحيم »

توحيد الله

يلعب التوحيد دورا أساسيا فى حياة النوع الإنسانى ، ويتوقف عليه صلاح الإنسان فى الدنيا وخلاصه فى الآخرة ، وبقدر ما يكون حظ الإنسان من التوحيد . . يكون حظه من النجاة فى الآخرة . . ويكون حظه من رضاء الله عز وجل عليه فى الدنيا والآخرة . . والدنيا دار ابتلاء . . بينما الآخرة هى دار الجزاء . .

ومن هنا فإن التوحيد فى الدنيا لا يظهر بوجهه الحقيقى كمعيار نهائى وحاسم لقبول الأعمال الإنسانية أو رفضها . وما أكثر المشركين الذين يأخذون بأسباب النجاح المادى فى الدنيا وينجحون فيها .

وما أكثر الجاحدين الذين اكتشفوا أسرار المادة وسخروها لتقدمهم وتقدموا . .

هؤلاء فى الآخرة لا وزن لهم ، ولا قيمة لعملهم فى الدنيا . . إن انتفاء التوحيد يجعل أعظم أعمال الخير فى الدنيا لا قيمة لها ولا وزن . . بل أن أعمال الخير تقذف فى وجوه أصحابها فى الآخرة إن كان هؤلاء ليسوا موحدين بالله .

هذا القانون الذى يسرى على الآخرة لا يسرى على الدنيا ، لبداهة أن الدنيا دار ابتلاء واختبار . . ولو قهر الله الخلق على التوحيد والإيمان لبطل اختبارهم وذهبت حريتهم ، ولإنتفت الحكمة من خلق الدنيا ذاتها . . وهى حكمة الابتلاء .

(الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) .

توحيد الله تعالى إذن هو أخطر حقيقة فى الوجود ، سواء فى الدنيا أثناء الحياة الإنسانية ، أو فى الآخرة يوم الحساب ، أو فى العالم الآخر الذى يبدأ بعد الآخرة ويستمر فى الجنة أو النار . .

ولو ألقينا نظرة على الآيات القرآنية فسوف نكتشف أن القرآن الكريم بذل تجاه مسألة التوحيد عناية خاصة ، تتجاوز ما بذله تجاه أى مسألة أخرى . . إن آيات الأحكام المبينة لفروع الدين مثلا يبلغ عددها ٥٠٠ آية ، أما الآيات التى تتحدث عن المعاد مثلا فإنها تتجاوز الألف آية . .

وهذا يكشف عن اهتمام القرآن الكريم بالمسائل « الفكرية » والقضايا « الاعتقادية » . .

. . . . . .

. . . . . .

اذا كان التوحيد يحمل هذه الأهمية الهائلة . . فما هو معناه ؟

وما هى مراتبه ودرجاته . . ؟ وما هى أنواعه . .

يقول العلماء ان التوحيد خمس درجات .

□ **أولا : توحيد الله تعالى فى الذات . .**

والمقصود به أن الله واحد أحد لا شريك له ولا نظير ولا كفوء ، ولا يتصور له شبيه أو مثيل . . وذاته المقدسة ليست مركبة من أجزاء كما هو شأن الأجسام ، وليست بسيطة . . إنما هى ذات تباركت وتعالت ولا تشبهها ذات أخرى . .

□ **ثانيا : توحيد الله تعالى فى الصفات . .**

والمراد بهذا أن الله تبارك وتعالى ، وإن كان متصفا بصفات عديدة كالعلم والقدرة والحياة ، إلا أن هذا التعدد يجىء باعتبار المفهوم الذهنى وليس باعتبار الوجود والواقع الخارجى ، بمعنى أن كل واحدة من هذه الصفات هى « عين » الأخرى وليست « غير » الأخرى . . وهى جميعها (عين) الذات وليست (غير) الذات .

فعلم الله مثلاً ـ هو (عين) ذاته ، فذاته كلها علم ، وكرم الله تعالى مثلاً هو (عين) ذاته ، فذاته كلها كرم . . . وهكذا . . .

وكل صفة من صفات الله تبارك وتعالى هى عين الذات ، وليست غير الذات .

□ ثالثا : توحيد الله تعالى فى الأفعال . .

خلق الله تبارك وتعالى الكائنات والأشياء ، وخلق خواصها . . فالشمس شيء كونى . . هى نجم قريب من الأرض . . وكل ما على الأرض من طاقات وحياة يستمد وجوده أساسا من طاقة الشمس .. وبغير طاقة الشمس لا يمكن أن تكون هناك زراعة . . وإذن يهلك الناس جوعا . . وبغير طاقة الشمس لا تكون هناك أمطار . . وإذن يموت الناس عطشا . . وهكذا . . .

. . .   . . .

. . .   . . .

والتوحيد فى الأفعال يعنى أن تؤمن أن الشمس مخلوق لله تعالى ، وأن خواصها فى الإشراق والطاقة مخلوقة لله تعالى . . وقائمة به سبحانه . . وليست نابعة من إرادة الشمس أو فعلها وحده . .

أى أن التوحيد فى الأفعال يعنى أن يؤمن المسلم أن الله خلق الأشياء ، وخلق قوانينها وخواصها ، فلم يستقل شيء بآثاره ، ولا خرج شيء عن حكمه .

حتى المخلوقات التى تمارس قدرا وفيرا من حرية الإرادة والاختيار كالإنسان والجن ، حتى هذه المخلوقات لا تخرج عن حكم الله ولا تستقل بإرادتها دونه ، وتنخلع من اطار المشيئة الالهى العام . . صحيح أنها تمارس حريتها ، ولكنها تمارسها فى حيز محدد يدخل فى اطار نفاذ المشيئة الالهية العليا . .

أى أن التوحيد الافعالى أو توحيد الله فى الأفعال يعنى الإيمان بالعبارة الآتية :

(لا حول ولا قوة إلا بالله) . .

هذا قانون ينطبق على جميع الخلائق ، سواء كانت هائلة الاجرام أو دقيقة الأحجام .

إن الشمس لا تخرج عن حكم الله ، كما لا تخرج النملة عن حكمه ، والنجوم لا تخرج عن حكم الله ، كما لا يخرج الإنسان عن حكم الله . .

صحيح أن الفرق بين الإنسان والشمس أن الإنسان يستطيع أن يعصى الله ، بينما الشمس طائعة . .

هذا العصيان الإنسانى لله . . لا يعنى أن الإنسان قد خرج من حكم الله ، واستقل بحكم نفسه . .

إنما هو يعنى أن الإنسان لم يزل داخلا فى حكم الله . . فى اطار المشيئة الالهية العليا ، التى سمحت ـ بسبب الابتلاء ـ أن يكون للإنسان حظ من الحرية يمارسه ويصير مسئولا عنه أمام الله . .

الإنسان مسؤول أمام الله فى النهاية وهو لا يخرج من حكم الله . .

□ رابعا : توحيد الله تعالى فى العبادة . .

بمعنى أن العبادة لا تكون إلا لله وحده ، وأنه لا يوجد مستحق للعبادة سواه سبحانه . .

ولقد قال العلماء أن الخضوع العبودى أمام أحد لا يجوز إلا لأحد سببين . . وهما سببان لا يتوافران فى حق أحد سوى الله عز وجل .

السبب الأول : أن يبلغ المعبود حدا من الكمال يخلو معه من أى قصور ، أى أن يبلغ حدا للكمال المطلق .

السبب الثانى : أن يكون هذا المعبود بيده مبدأ الإنسان ومنشأ حياته ، فيكون خالقه وواهب الروح والجسم له ومانح النعم ومسبغ البركات عليه ، ومتوليه فى كل لحظة ، بحيث لو قطع عنه فيضه لحظة لاستحال إلى العدم وصار خبرا بعد أثر . .

هل يتوفر هذان الوضعان فى أحد غير الله . .

□ خامسا : توحيد الله فى الولاية التشريعية . .

والولاية بمعنى التشريع لها مظاهر ثلاثة . . .

(١) التوحيد فى الحاكمية . .

بمعنى أن الحكم والولاية فى القرآن هما لله تعالى وحده ، « آلا له الأمر والحكم » وليس يعنى هذا أن الله تبارك وتعالى يمارس هذه الحاكمية بنفسه . . ويدير شؤون عباده التشريعية مباشرة . . إن هذا يشبه مقاله الخوارج حين قالوا لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه « ان الحكم إلا لله . . لا لك يا على ، ولا لأصحابك » وإنما يعنى أن على البشر أن يحكموا بما أنزل الله . . وأى حكم لا يستمد وجوده من قيامه بتنفيذ أحكام الله هو حكم خرج على الإسلام . .

(٢) التوحيد فى الطاعة :

وتعنى أن الطاعة حق منحصر فى الله تعالى سبحانه . . وإذا كان الله

يأمرنا بطاعة رسله ، فإنما يأمر بطاعتهم ـ لا لأنها واجبة فى حد ذاتها ـ وإنما لأنها طاعة لله . . « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ومن توحيد الطاعة خرجت مقولة « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » . .

إنما تكون الطاعة فى طاعة الخالق . .

(٣) التوحيد فى التقنين :

حق التشريع للعباد ، حق يختص بالله عز وجل . . فليس لأحد أن يحكم بعكس ما أنزل الله . . أو بغير ما أنزل الله . . إذا كان الله قد أنزل حكما صريحا . . وهناك تشريعات واضحة . . وليس أمام البشر سوى النزول على أحكامها . . كالمواريث مثلا . . وهناك قواعد عامة . . كأمره تعالى بالشورى « وأمرهم شورى بينهم » . .

وهنا من حق المسلمين أن يضعوا النظام الذى يوافق زمانهم بشرط أن يتفق مع القاعدة التى أمر بها الله عز وجل . . وهى الشورى . . فليس من حق أحد أن يحكم المجتمع حكما فرديا أو دكتاتوريا أو بعيدا عن الشورى . .

وسن أى قانون يخالف قوانين الله عز وجل إثم ، ولكن سن القوانين التفصيلية فيما أجمله الشارع من حق البشر . . وهذا أمر طبيعى لأن الأحكام تتناهى بينما الظروف والأحوال لا تتناهى . . من هنا جاء القرآن بأحكام تفصيلية ، وبأحكام ومبادىء عامة . .

هذا هو التوحيد كما يراه العالم المسلم الشيخ جعفر السبحانى وهى محاضرات نقلها عنه جعفر الهادى .

فطـــرة الله

يقول بلوتارك المؤرخ الاغريقى الشهير منذ ٢٠٠٠ سنة : « من الممكن أن تجد مدنا بلا أسوار ولا ملوك ولا ثروة وأداب ولا مسارح ، ولكن أحدا لم ير قط مدينة بلا معبد . . أو مدينة لا يمارس أهلها عبادة » .

هذه العبارة القديمة صحيحة . . وهى تسجل أن الشعور الدينى أمر ينبع من الفطرة أو يعود إليها . .

إن قراءة التاريخ البشرى ، رغم اختلاف الأرض والبقاع واللغات والتصورات ، تؤكد أن الإيمان كان يحتل نفس الإنسان منذ أقدم الحضارات والعصور إلى اليوم . .

إن الإنسان - بحكم ابداعه وتركيبه - هو المخلوق الذى لا بد له أن يؤمن . . هذه تركيبته التى خلقه الله عليها . . وأمام الإنسان دائما حق الاختيار . . إما أن يؤمن بالله . . أو يؤمن بشىء غير الله . إذا كانت الأولى نجا الإنسان وارتفع . . وإذا كانت الثانية هلك الإنسان وهوى . .

وفى فطرة الإنسان . . فى الجزء الداخلى من روحه . . يوجد هذا الميل إلى العبادة . . ولقد سأل فرعون موسى سؤالا عن الله . . قال فمن ربكما يا موسى . . قال :

(ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) « سورة طه الآية ٤٩ ، ٥٠ » .

إن جميع الموجودات وكل الأشياء - بما فيها الإنسان - طبقا للنص القرآنى تعيش فى ظل هداية تكوينية فطرية . . هدايا تقودها إلى الله . . ولقد منح الله تبارك وتعالى لجميع الكائنات هذه الموهبة دون تفرقة . . أى أنه منحهم هذه النعمة بشكل عام . . فلم يخلق جماعة على فطرة الإيمان ، وجماعة أخرى على غريزة الإلحاد أو الكفر . . كلا . . إنما هى فطرة واحدة

فطر الناس عليها (**فطرة الله التى فطر الناس عليها . . لا تبديل لخلق الله**) . ورد فى صحيح البخارى فى تفسير هذهِ الآيةِ قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، ثم أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (نسبة إلى المجوس) » . .

قال صلى الله عليه وسلم . . فطرة الله التى فطر الناس عليها . .

هذا يعنى أن فطرة الله هى التوحيد الخالص . .

ولقد سئل العلماء والعارفون فيما بعد عن معنى الآية فقالوا : فطرهم على التوحيد عند أخذ الميثاق أو العهد عليهم . . وعلى معرفته بأنه ربهم . .

بل أن الآية واضحة الدلالة فى الإشارة إلى معناها . . . يقول تعالى فى سورة الروم (**فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) .

إن الآية تفسر نفسها بنفسها كما نرى . . إن الفطرة هى الدين الحنيف . . هى الإسلام . . هى التوحيد . . وهذه هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

كيف يكفر الناس بالخالق الرحيم رغم أنه فطرهم على ما فيه سعادتهم وخيرهم . . وهو التوحيد ؟ .

هنا تبرز طبيعة الإنسان . . وهى أنه مخلوق تمنحه تركيبته الإنسانية قدرا من الحرية الهائل ، وهو قدر يستطيع به أن يختار . .

والإنسان حر تماما فى اختياره . .

هناك من يختار حمل نعمة الله ومجده ممثلا فى الإسلام . . وهؤلاء هم الناجون . .

وهناك من يرفض حمل هذه النعمة ويختار الكفر أو الشرك أو الإلحاد . . وهؤلاء هم الهلكى . .

ونحن نرى من التاريخ البشرى أن البشر أحرار فى اختيارهم . . وسنعرف حين يجىء يوم القيامة أن هذه الحرية لها مسئوليتها التى تتفق مع جسامتها . .

(**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**) .

: : : : : :

سيُسأل الناس عن حريتهم يوم القيامة . . كيف اختاروا بها . . وماذا فعلوا فيها . . وأين وضعوها . . سيُسأل الناس عن نعمة الفطرة التى فطرهم الله عليها . . فطرة التوحيد . . سيسألون عنها . . هل حملوها حق حلمها . . هل أدوا أمانتها . . هل زادوا عليها أم أنقصوا منها أم أهدروها ونسيوها خلال صراعهم فى الدنيا على الزينة والحطام واللعب واللهو والتفاخر .

. . .   . . .

. . .   . . .

لقد منح الله تبارك وتعالى للإنسان عددا لا يحصى من النعم والمنن . . ولقد حدثنا القرآن أن هذه النعم تستعصى على الإحصاء والعد . (**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**) .

على رأس هذه النعم والمنن تقف نعمة التوحيد ، أو نعمة الإسلام ، أو نعمة الفطرة . . وهى نعمة وزعت بالتساوى على الناس ، ثم تفاوتت حظوظ الناس فيها بعد ذلك ، عن طريق ممارستهم لحقهم فى الاختيار ، وجهدهم فيه .

هناك من رعى هذه النعمة . . وجاهد فيها وشكرها وأقام الخشوع فى نفسه توقيرا لها واحتراما . . وهناك من أسقط هذه النعمة ، وكفرها ، ولم يعرف حقها من الشكر أو الحمد . .

ولكل واحد سعيه . . ولكل سعى جزاء . . يقول الحق فى سورة النجم (**وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى**) « الآيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ » .

إذا كان هذا أثر التوحيد على جزاء الآخرة فما هو أثره فى الدنيا ؟ .

. . .   . . .

. . .   . . .

اقتضت مشيئة الحق عز وعلا أن يكون الإنسان الموحد لله - أى العبد له - إنسانا حرا فى الحقيقة وأن يكون الإنسان الحر مع الله . . عبدا لكل شيء . .

وهنا نأتى لهذا القانون المدهش . .

من العبودية لله وحده ، تولد حرية الإنسان . . ومن الاستعلاء على الله ، تولد عبودية الإنسان لكل ما سوى الله . .

أى أن التوحيد هو المنشىء لكرامة الإنسان وحريته وبغير التوحيد يصير الإنسان عبدا لشىء صنعه بيديه ، يستوى أن يكون هذا الشىء تمثالا أم آلة من الآلات أم اختراعا من الاختراعات أم هوى النفس أم رغبات الحواس . .

ولنتصور إنسانا من الموحدين أو إنسانا على التوحيد . . نحن أمام إنسان يعرف أن الموت بيد الله وأن الحياة بيد الله وأن الصحة بيد الله وأن الرزق بيد الله وأن النجاح بيد الله وأن الحفظ بيد الله . . ويعرف أنه لو اجتمع الخلق كلهم ضده لما استطاعوا أن ينالوا منه لو حفظه الله ، إذا كانت الحياة والرزق والصحة والأجل بيد الله . .

ألا يكون الإنسان المؤمن بهذا حرا . .

وإذا لم يكن حرا . . فمن يكون حرا . .

. . .   . . .

. . .   . . .

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك .

ولئن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك .

رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

عهـــد الله

قبل النسبية ، كان المعروف أن لكل شيء أو جسم أبعادا ثلاثة ، هى الطول والعرض والعمق ، ثم جاءت النسبية فأضافت بعدا رابعا هو الزمن . . لأن الجسم لا يخلو من هذه الأبعاد الثلاثة ، كما لا يخلو من الزمن .

ومثلما لا يخلو أى جسم من تأثير الزمان فيه وتأثيره على الزمان فكذلك لا تخلو الروح من الشعور الدينى أو حسن التدين

والسؤال الآن . . ما هو مصدر هذا الشعور ؟ .

فى القرآن الكريم ثلاث آيات تجيب على هذا السؤال . . هذه هى الآيات التى وردت فى سورة الأعراف ابتداء من الآية ١٧٢ حتى الآية ١٧٤ ، وهى التى يعرفها العلماء باسم آيات الميثاق ، أو آيات العهد .

يقول تعالى فى سورة الأعراف :

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) .

. . .   . . .

. . .   . . .

ولننظر فى معنى الفاظ الآية ومدلولها بعد ذلك . ما هو المقصود بالذرية فى الآية ؟ وردت لفظة الذرية فى ١٨ موضعا فى القرآن الكريم ما عدا هذا الوضع أيضا ، والمقصود بها فى جميع تلك المواضع هو « النسل البشرى » . . وليس فى ذلك خلاف . . إنما وقع الخلاف فى أصل اللفظة ، واشتقاقها فقال بعض العلماء أن هذه الذرية مشتقة من الذر بمعنى الخلق . .

وقال البعض انها مشتقة من الذر بمعنى الكائنات الصغيرة الدقيقة ، وقال البعض أنها مأخوذة من الذرو أو الذرى بمعنى التفرق والانتشار . . وتطلق الذرية على نسل آدم لتفرقهم على وجه الأرض وأكناف البسيطة . .

وعلى أى حال . . إن معنى اللفظة هو النسل البشرى كله . وتفيد الآية أن الله أخذ من ظهور أبناء آدم أنسالهم وذرياتهم ، وأشهدهم على ربوبيته فشهدوا . . واعترف الجميع أنه إلاههم . .

تفيد الآية أن هذه الشهادة التى شهدناها هى شهادة ملزمة ، سوف تسد باب العذر فى يوم القيامة فى وجه المبطلين والمشركين ، فلا يحق لهم أن يدعوا عدم العلم بهذا العهد أو الميثاق . .

نحن لا نذكر شيئا عن هذا الميثاق أو العهد ، ورغم ذلك لا يحق لنا أن ندعى الغفلة عن هذا الاقرار . . ويطرح السؤال هنا نفسه :

كيف يمكن أن يسد « اقرار » لا نعلم به ، « باب العذر » علينا ؟

كيف يمكن أن نلزم بميثاق لا نتذكره ، وعهد لا نعرف عنه شيئا ؟

هكذا يتساءل الشيخ جعفر السبحانى فى كتابه « معالم التوحيد فى القرآن الكريم » . .

وهو يجيب على تساؤله بأن الخطاب فى الآية إما أن يكون موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكون موجها إلى عامة البشر . .

وهو يخلص إلى أن صدر الآية موجه إلى الرسول ، بينما نهايتها موجهه إلى عامة البشر . .

إن القرآن يريد بهذا الخطاب أن يلفت أنظارنا إلى حادث حدث قبل الخطاب لا حينه ولا بعده بدليل مجىء « إذ » فى مطلع الآية . .

ان « إذ » تستعمل إذا كان ظرف الحادثة هو الماضى ، ومعناها « واذكر إذ وقعت هذه الحادثة فى الماضى .

ولنستعرض الآن آراء العلماء حول الميثاق فى عالم الذر . إن هناك أكثر من نظرية فى الموضوع :

أولا : النظرية الأولى تستند إلى أحاديث صحيحة ، وتقول أن الله تعالى أحضر أبناء آدم عند خلقه ، من صلبه على هيئة كائنات ذرية صغيرة الحجم ، وأخذ منهم الميثاق قائلا لهم : ألست ربكم .

قالوا بلى . .

ثم أعادهم إلى صلب آدم ، وقد كانت هذه الكائنات الدقيقة ذات شعور وعقل كافيين عندئذ . . وقد سمعت ما قاله الله ، وأجابت على سؤاله . . وقد أخذ هذا الاقرار من بنى آدم ليغلق عليهم باب الاعتذار والتعلل يوم القيامة . .

ثانيا : النظرية الثانية تحمل الآيات على التوحيد الفطرى وتفسرها هذا التفسير . . وأصحابها يقولون أن الإنسان يضع قدميه فى هذه الدنيا ، وهو ينطوى على سلسلة من الغرائز والاستعدادات ، وسلسلة من الحاجات الطبيعية والفطرية إلى جانب سلسلة من المدركات العقلية . .

بعبارة أخرى . . أن الإنسان يولد وقد أودعت فى كيانه غريزة معرفة الله . .

بعبار ثالثة أخرج الله أبناء الإنسان من ظهور آبائهم إلى بطون أمهاتهم وقد جعل تكوينهم بنحو خاص بحيث يعرفون ربهم دائما ، ويحسون باحتياجهم إليه تعالى . .

وعندما يحس الإنسان باحتياجه إلى الله ، ويجد نفسه غارقا فى التوجه إليه سبحانه فساعتئذ يكون وكأنه يقال له :

ــ ألست بربكم . .

فيقول البشر : بلى . . أنت ربى . .

وعلى هذا يكون الميثاق المذكور فى الآية ليس ميثاقا تشريعيا على نحو السؤال والجواب اللفظيين . . بل هو ميثاق تكوينى فطرى . . وجوابه كذلك تكوينى فطرى . .

ومثل هذا النوع من الحوار شائع فى القرآن الكريم . . أن القرآن الكريم يقول حول السماوات والأرض :

(فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)
سورة فصلت .

ويقول العرب فى كلام بلغائهم :

□ سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وأينع ثمارك فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا . .

والله تبارك وتعالى يقول : **(فطرة الله التى فطر الناس عليها)** . .

وغاية التفاوت أو الفرق بين آية الفطرة وآيات الميثاق أن آية الفطرة تقول أن الشعور الدينى عجن بفطرة الإنسان وخلقته (وجبلته) دون أن تعين الآية زمانا ، فى حين أن آيات الميثاق أو عهد الله تتحدث عن تحقق السر الإلهى فى كيان الإنسان منذ بدأ تكوينه وظهوره ، أى منذ أن كان ذرة فى رحم الأم . .

ثالثا : تقوم النظرية الثالثة وهى نظرية عالم شيعى هو الطباطبائى على أن حوادث العالم تنقسم بالنسبة إلينا إلى حوادث الماضى وحوادث الحاضر وحوادث المستقبل ولكل حادث زمان ومكان . . ولا يمكنُ للإنسان الذى يعيش ضمن نطاق الزمان أن يشهد الحوادث كلها دفعة واحدة وفى نظرة واحدة والله عز وجل يتعالى على الزمان والمكان ، ومن ثم فإن كل الأحداث حاضرة عنده سبحانه .

ومن ثم فإن العالم ينقسم إلى باطن وظاهر . .

والآيات عند صاحب هذه النظرية تشير إلى نشأة إنسانية سابقة ، فرق الله فيها بين أفراد هذا النوع وميز بينهم وأشهدهم على أنفسهم : الست بربكم . . قالوا بلى شهدنا . .

رابعا : صاحب هذه النظرية هو الشريف المرتضى . . وهو يرى أن الله تعالى قصد بأية الميثاق جماعة من ذرية بنى آدم . . وليس كل بنى آدم . . جماعة خاصة من البشر هم العقلاء الكاملون . . لا من جميع البشر . .

وقد أخذ هذا الاعتراف والميثاق حين أخذ بواسطة الرسل والأنبياء الذين ابتعثهم الله إلى البشرية فى هذه الدنيا . .

وهذه النظرية مبنية على كون « من » فى قوله سبحانه (من بنى آدم) تبعيضية لا بيانية . . ومن ثم فانها تنصرف للأنبياء . .

. . .   . . .

. . .   . . .

هذه هى النظريات الأربعة التى تتعرض لشرح آية الميثاق أو العهد . . ولعل أهم نقد يوجه إلى النظريات التى حاولت تأويل الآيات ، أو استبعاد وقوعها بشكل الحوار الذى وقعت به . . أنها تتعارض مع صريح النص . . لأن الآية تنص على وقوع هذا الحوار . .

إن الله تبارك وتعالى يقول « إذ » وهى كلمة تفيد وقوع الحديث فى الماضى .

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ . . قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) .

تصرح الآيات بأن الله تبارك وتعالى قد واجه النوع الإنسانى قبل ميلاده من ظهر آدم . . وسأل الله تعالى هذا النوع الإنسانى عن خالقه . . وكان السؤال بهذه الصيغة المسيطرة المستفهمة المؤكدة . .

ـــ ألست بربكم . . ؟

قالوا : بلى . .

بهذا تم أخذ العهد على البشر . .

اعترف الخلق بالله وهم فى عالم الذر . . فى عالم الأرواح . . فى عالم الغيب . . اعترفوا واقروا وسجدوا وأقيمت عليهم الحجة البالغة . . كان الموقف سابقا على الوجود البشرى ، ولم تكن الأرواح قد ارتدت ثيابها المؤقتة من الأجساد الإنسانية ذات الصور المختلفة والمصالح المتباينة والظروف الخاصة والابتلاءات المتعددة .

كان البشر بغير مصالح أيام أخذ العهد عليهم ولهذا اعترفوا جميعا بربوبية الله وهم أرواح فى ظهر أبيهم آدم .

وبقى أن يعترفوا بعبوديتهم لله وهم أجساد على الأرض . .

إن الاعتراف الثانى تابع للاعتراف القديم .

إن الاعتراف بالربوبية يقود مباشرة للاعتراف بالعبودية . .

غير أن الناس تختلف حين تهبط إلى الأرض . . فيهم من يذكر هذا اليوم الأول ، وفيهم من ينسى أو يتناسى ، أو يذكر ويحارب هذه الذكرى . . ولهذا تختلف حقائق الناس على الأرض . .

وينقسمون إلى مؤمنين وغير مؤمنين . . ومثلما تختلف صور الوجوه وبصمات الأصابع تختلف حظوظ الأرواح من الأخذ بالتوحيد .

قد يقال لنا : أن البشر لا يذكرون هذا العهد . .

لنفترض أننا لا نذكر . .

أى شىء فيها . .

أن الله تبارك وتعالى علم أننا لن نذكر ولهذا يذكرنا بقوله تعالى فى الآية القرآنية . . ويذكرنا بآلاف الآيات فى كتاب الكون المفتوح . .

. . .   . . .

عهد الله إذن ملزم للبشر . .

تذكروه أم ادعوا نسيانه . . هو ملزم للبشر . .

معرفة الله

على امتداد اليوم كله . .

يعلن الإسلام عن نفسه كدين من أديان التوحيد خمس مرات فى اليوم . . وذلك فى آذان الصلاة . .

ليست مصادفة أن تبدأ إقامة الصلاة بقول المسلم . .

« الله أكبر » . .

هذا الاقرار هو نقطة البدء فى عقيدة التوحيد . . وهو الصورة الأولى التى ينبغى أن تملأ عقل الموحدين بالله ، ولا يحدد الآذان كيف أن الله أكبر . . لا يقول أكبر من أى شىء . . الكلمة مطلقة وشاملة . . لا يعارضها شىء ولا يكبر عليها شىء ولا يقف أمامها شىء .

الله أكبر من الخلق .

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)[1]

الله أكبر من الكون الظاهر والكون الخفى .

(وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون)[2] .

الله أكبر من ظلم الظالمين ورحمة الراحمين . . أكبر من أحزانك وخطاياك إذا أسرفت على نفسك وعدت إليه بالتوبة .

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)[3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٧ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦٧ .

(٣) سورة الزمر الآية ٥٣ ا

الله أكبر من معجزات الأنبياء ، واشارات الملائكة ومعانى الكتب السماوية .

فالملائكة والأنبياء عباد من عباد الله . . وحقيقة الله أكبر من دلالات الحروف واشارات العباد .

الله أكبر من كل شىء . . وهو فوق كل شىء ، ومع كل شىء ، وخالق كل شىء ، ووارث كل شىء ، ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء . .

(ليس كمثله شىء وهو السميع البصير)[1] .

تقرر عقيدة الإسلام أن الله تبارك وتعالى « ليس كمثله شىء » .

كيف يمكن لعقل الإنسان وهو شىء ، أن يعرف من ليس كمثله شىء .

للوهلة الأولى تبدو هذه المعرفة مستحيلة ، وتتضح استحالتها فى حق الكائنات جميعا . .

قال الإمام الجنيد : لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى .

يقصد الجنيد هذه المعرفة التامة الحقيقية التى تليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه .

هذه المعرفة وقف على الله وحده . .

قال الإمام الغزالى « كل ما دار فى وهمك ، وتصوره ذهنك ، وتخيله عقلك ، فالله غير ذلك » . .

« فان قلت : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى . . فنقول : نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة . . يستحيل أن يعرف الله تعالى ، هذه المعرفة المحيطة بكنه صفات الربوبية ، إلا الله تعالى » .

وقديما أشار الرسول لهذا المعنى اشارة معجزة بقوله : « ربنا لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . .

لا يريد الرسول أن يقول أن قلبه عرف ما لا يطاوعه لسانه فى التعبير عنه كما قد يفهم البعض ، إنما يريد أن يقول ـ وهو أشرف خلق الله وأعرفهم به ـ أنه لا يحيط بعظمته سبحانه ، ولا يحيط بجلال إلوهيته ، وأن الله هو المحيط بها وحده . .

---

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

لا يعلم الله إلا الله فاتئدوا والدين دينان : إيمان ، وإشراك
وللعقول حدود لا تجاوزها والعجز عن درك الإدراك إدراك

إذا اتفقنا على أن المعرفة الحقيقية لله تعالى مستحيلة فى حق الكائنات ، ثابتة لله وحده ، فما الذى بقى للبشر من هذه المعرفة . وكيف تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء فيها ؟

بقيت المعرفة النسبية . . معرفة أسمائه سبحانه ، ومعرفة عجائب صنعه فى الكون وأسراره فى المادة . . وللمعرفة سبيلان : أحدهما السبيل الحقيقى الذى يتاح لخالق الشىء ، وذلك السبيل مسدود فى حق الخلق ، ملك لله وحده ، وثانيهما السبيل النسبى ، وذلك مفتوح للخلق وفيه تتفاوت مراتبهم . . فليس من يعرف أن الله تعالى قادر عالم ، كمن رأى بعينيه عجائب آياته فى السماء والأرض ، وليس من يعرف أن الله بارىء مصور ، كمن عاين بدائع صنعه وأطلع على تفصيلات إعجازه . .

ولله المثل الأعلى . .

ولكن الإمام الشافعى له أساتذة وله تلاميذ وعنده بواب لداره . . . وهؤلاء جميعا يعرفونه ، يعرفه أستاذه ويعرفه تلميذه ويعرفه بواب داره . . وتختلف معرفة كل واحد حسب اختلاف حظه من العلم به . . مدى معرفة البواب به أنه عالم فى الشرع ، ويدرس التلاميذ اجتهاداته فى الفقه وأحكامه ، ويعرف أساتذته كيف تكون عقله وتحت أى المؤثرات اتجه تفكيره .

وهكذا تختلف معرفتهم له .

ومثلما تتفاوت بصمات أصابع الخلق وعقولهم وحظوظهم من المشاعر ، تتفاوت معرفتهم بالله تعالى ، وعلى قدر المسافة التى تقطعها سفن القلوب فى بحار المعرفة الإلهية تكون المعرفة . . وليست معرفة النبى صلى الله عليه وسلم مثل معرفة إنسان معاصر . . ولا معرفة موسى كمعرفة فرعون . .

صدق من قال : لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى .

وصدق من قال : أن معرفة الله تجربة شخصية ، ومعرفته سبحانه تختلف من إنسان إلى آخر .

هذا كله صحيح ، وأصح منه أن الله تبارك وتعالى يظل مستعليا بكبريائه ، محتجبا بأنوار رحمته . . . . غاية لا تدرك . . وذاتا لا تستشرف .

رغم ذلك تسفر الرحلة إليه عن هدف الوجود البشرى وغاية المطاف .

(يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه)[1] .

---

(١) سورة الانشقاق الآية ٦ .

عطـــاء الله

يقول حديث قدسى يرويه الرسول عن ربه « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

إذا أراد الكنز أن يدل على نفسه ، فذلك يعنى انصراف مشيئته إلى العطاء .

بماذا تحس لو أرشدك أحد إلى كنز خفى صرت بعده أغنى من فى الأرض ؟ كيف يكون شعورك بالإمتنان والحب نحو من يدلك عليه .

ماذا لو كان هذا الكنز هو الله ؟

ماذا لو كان دليلك إلى الله هو الله ؟

لو عرفت أن كل ما فاتك من الله سوى الله يسير . . وكل حظ لك سوى الله قليل .

لو عرفت ذلك لتكشف لك عمق من أعماق الرحمة الإلهية فى الخلق . .

لماذا يريد الله سبحانه من خلقه أن يعرفوه . . ومن هو المستفيد من هذه المعرفة ؟ .

سئل أحد العارفين بالله : لماذا خلق الله سبحانه وتعالى هذه المخلوقات ؟ هل كان فى حاجة إليهم . . أجاب العارف : كلا ، ولكنه خلقهم من أجل حاجتهم هم إليه ومن أجل ثلاثة أشياء . .

الأول . . لما كانت قدرته أعظم من أن تدرك . . كان لا بد لها من مشاهدين .

الثانى . . لما كانت نعمته أكثر من أن تحد . . كان لا بد لها من مستقبلين .

الثالث . . لما كانت رحمته أوسع من أن تضيق . . كان لا بد لها من آثمين .

سبحانه وتعالى . .

يخبرنا تقدست ذاته ، عن استعلاء ذاته وحاجة عباده . .

(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد)[1] .

إذا كان الغنى الحميد يدعو الفقراء إلى مائدته ، فأى غرض لهذه الدعوة غير العطاء . أتسأل عن حدود العطاء وقد جاء من بحار الكرم .

هو عطاء لا يتوقف قبل خلق الإنسان ، ولا يتوقف أثناء حياته ، ولا بعد موته ، ولا حين بعثه أو ساعة حسابه . . هو عطاء أكرم الأكرمين سبحانه . .

. . .   . . .

. . .   . . .

فى البدء كان الله .

ولا شىء مع الله .

ولا شىء غير الله .

قائم بنوره وكبريائه وحده .

استغنى بذاته عمن سواه ، وافتقر إليه ما عداه ، وما كان هناك سواه ، ولا كان هناك ما عداه . ولأن الله تعالى هو الله وهو الخالق ، ولأنه يعلم سبحانه افتقار من لم يخلق بعد مِن خلقه إليه ، ولأن مشيئته تنفذ بمجرد توجهها إلى الشىء ، تشاء إرادته سبحانه الخلق ، فيأمر الكون بالمثول بين يديه . حضورا من العدم . طائعا أو كارها . . فيمثل الكون ساجدا بين يدى الطاعة .

(ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[2] . .

ثم تشاء إرادته سبحانه أن يفيض من رحمته وعطائه فيخلق الخلق ، ويمضى فيض الرحمة والعطاء فيخلق آدم ، ويستمر فيض الرحمة والعطاء فيخلق من آدم وزوجه النوع الإنسانى ، وتصل الرحمة قمتها ويبلغ العطاء ذروة الذرى فإذا نحن نستمع إلى مزامير داود وتوراة موسى وانجيل عيسى وقرآن محمد . .

---

(١) سورة فاطر الآية ١٥ .

(٢) سورة فصلت الآية ١١ .

كانت البداية كنزا مخفيا . .

ثم شاء رب العالمين أن يخلق معجزاته . . من العدم إلى الدخان إلى الماء إلى بلايين النجوم إلى قطعة الصلصال إلى الخلية الحية إلى مخلوق يكتشف الكون ويبحث فى السماء ويعرف الحب ويسعى لعطاء خالقه . .

أى قدرة من الله . . وأى حب للإنسان . .

يقول العارفون بالله « ذكرنا الله قبل أن نذكره ، وعرفنا قبل أن نعرفه ، وأعطانا قبل أن نسأله ، ورحمنا قبل أن نتضرع إليه . . كيف نسمح لقلوبنا أن يكون فيها سواه » .

. .   . .

قال تعالى :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[1] .

والعبادة قمة المحبة ، والمحبة قمة المعرفة . . وليس بعد هذا الفضل شىء .

أن الله سبحانه وتعالى ، والكبرياء إزاره والعظمة رداؤه ، قد شاء لعباده أن يعرفوه وأذن لهم أن يعبدوه ، ولولا رحمته بالناس ما منحهم مجد عبادته . . ولأن المجد لا يناله إلا أصحاب المواهب الرفيعة قل عدد العارفين وزادت كمية التعاسة .

هكذا ينظر العارفون بالله إلى العالم ، يجدون الحب قانونا حاكما فى الوجود ، ويرون عطاء الله سببا فى ميلاد الكون والإنسان ، ويحسون أن رحمة الله نسيج يشف به ثوب الكون على رحابته وجلاله ، وهم يرون أن الله قد خلقنا ليتفضل علينا بحبه . . وخلقنا ليتفضل علينا مرة ثانية بأن يسمح لنا بحبه .

قرئت هذه الآية أمام جلال الدين الرومى شاعر الصوفية الأكبر فبكى :

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه)[2] .

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

إن الله يتوعد اثم الارتداد عن الدين وهو أفدح الذنوب القاسية ، بأرقى ما فى الوجود من مشاعر الحب وقيمه . . أنه لا يهدد المرتدين عن دينهم بالنار أو النحاس المصهور أو القتل ، إنما يهددهم بأن يستبدلهم بقوم يحبهم ويحبونه . . إن القيمة الوحيدة التى تقف على نقيض الردة والشرك . . هى حب الله . .

سئل جلال الدين الرومي ما هو العشق فقال : حين تصير مثلنا فسوف تعلم . . أن العشق هو المحبة بغير حساب ، ولقد قيل انه صفة حقيقية لله ، وأما اتصاف العبد به فمن قبيل المجاز . . أن كلمة « يحبهم » يقين كامل . . أما كلمة « يحبونه » فمن ذا الذى يصدق عليه هذا الوصف . .

نريد أن نتأمل قليلا فى عبارة جلال الدين .

لماذا يعتبر أن أتصاف العبد بمحبة الله مجاز ، بينما اتصاف الله تعالى بمحبة العبد يقين كامل . .

نعرف أن قانون الحب الأعلى هو العطاء .

إذا كان الحب عطاء ، فان الله هو المعطى وحده فى الحقيقة . . يعطى الله تبارك وتعالى للعبد كل شيء ، ابتداء من نعمة الخلق من عدم ، وإنتهاء بنعمة القبول والادخال فى الرحمة . ماذا يعطى العبد لله تعالى مقابل ذلك . . ماذا تستطيع أنت كإنسان أن تعطى لله . . لا شيء على الاطلاق . .

لو انفق الإنسان كل ماله فى سبيل الله ، فإنه لا يعطى الله شيئا . لأن المال مال الله الذى استأمنك عليه وأودعه عندك ، ولو مزق المرء جسده آلاف الشظايا فى سبيل الله ، فإنه لا يعطى الله شيئا ، لأن الجسد ملك الله الذى سخره لك ، ولو ناءت روحك تحت أثقال العذاب فى سبيل الله فإنك لا تعطى الله شيئا . . أنت وما تملك ملك لله أصلا . . ولا يقال لمن يرد الوديعة للمالك الأصلى أنه يعطيه . .

وإذن لا يسرى قانون العطاء حقيقة إلا على الله . . وليس غير الله تعالى محبا فى الحقيقة . .

وهم إذن أن يتصور الإنسان أنه يحب الله . . الحقيقة أن الله تعالى هو الذى يحب الإنسان .

برغم ذلك . . نرى الكريم العظيم يقبل من الناس الشكر بدلا من العطاء ، ويجعله ـ رحمة منه ـ سببا فى زيادة العطاء .

قال تعالى :

(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم)[١] .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٧ .

ذات الله

لو أن الحكمة الإلهية تكشفت للعبد بأبعادها الكاملة . . لذهب اختيار الناس وبطلت حركتهم وتوقف صراعهم . . ذلك أن انكشاف الحكمة الإلهية لأى إنسان ، يعنى أنه لا يعود إنسانا كما كان . إن الفترة التى يستغرقها التأمل فى الحكمة الإلهية حين تنكشف ، يمكن أن تمتد ملايين السنين . . والدهشة التى تولد فى نفس الإنسان حين يعرف حكمة الله ، تستطيع أن تقضى على إدراك الإنسان الإنسانى ، ويمكن أن تدمر كيانه المحصور فى الرغبات والاحلام والآمال . .

وإذن لا يتحرك الإنسان حركة واحدة .

يكف عن محاولة استكمال نقصه وتسجنه الدهشة فى مكانه . .

لا يصبر الإنسان حين يعاين طرفا من حكمة الله ، مثلما لم يصبر موسى وهو يرقب تصرفات الخضر وهو يخرق السفينة ويقتل الغلام البرىء ويصلح جدارا فى قرية أبت أن تضيفهما . . إن غضب موسى ودهشته واحتجاجه على تصرفات العبد الذى آتاه الله من لدنه علما . . كان أمرا طبيعيا للغاية . لقد وقف موسى وهو نبى من أولى العزم العارفين بالشريعة ، وقف أمام عبد يعلم طرفا من حكمة الله فلم يصبر عليه . . **(وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا)**[1] . كذلك حدثه العبد العالم بالحقيقة . .

رحمة بالناس . . اخفى رب الناس حكمته عن البشر . .

أعطى الناس من حكمته قدرا يمكنهم من الخلافة فى الأرض ، أو تحقيق مشيئته فى عمارة الكون .

وأعطى الأنبياء من حكمته قدرا أعلى يمكنهم من الدعوة إليه ورسم آفاق الكمال الإنسانى .

وأعطى عبدا من عباده آتاه من لدنه علما ما لم يعطه لنبى من أولى العزم .

وأعطى الملائكة من حكمته قدرا يمكنهم من أداء مهامهم الجليلة .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٨ .

أما عمق حكمته . أما سر حكمته . . فقد أبقاه سرا لذاته سبحانه . . كيف يتصور الإنسان أن يكشف الله ذاته سبحانه . . وهو قد أخفى حكمته . . أفضل من الأسئلة حول الذات الإلهية أن نسجد ونقترب .

ذلك أرقى للإنسان وأكرم لعقله .

رغم هذه الحقيقة ، نرى الإنسان لا يكف عن الأسئلة . . سواء كانت هذه الأسئلة عن حكمة الله أو ذات الله .

الإنسان هو الكائن الوحيد الذى أثار غبار الأسئلة حول ذاته قبل مجيئة . . و هو المخلوق الذى لا يكف عن طرح الاسئلة على نفسه بعد مجيئه . . قبل خلق الإنسان ، أثار وجوده قبل أن يوجد رغبة الملائكة فى السؤال . . رغم أن طبيعتهم تتجاوز الأسئلة إلى الطاعة المطلقة .

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . . قال إنى أعلم ما لا تعلمون)[١] .

صحيح أن سؤال الملائكة كان سؤال استفهام واستشراف ، ولم يكن سؤال انكار واعتراض ، ورغم أى شىء ، فقد حرك فيهم آدم الرغبة فى السؤال . . وبعد خلق آدم . . قال خالقه عنه **(وكان الإنسان أكثر شىء جدلا)**[٢] هو المخلوق الوحيد الذى لا يسجد طواعية واختيارا بغير أن يفكر ، وهو المخلوق الوحيد الذى لا يتوقف عن الأسئلة .

لماذا خلقنا الله ؟ لماذا خلق الله العالم ؟ متى تبدأ الحرية الإنسانية ومتى تنتهى ؟ متى يبدأ الجبر الإلهى ومتى يتوقف ؟ لماذا يبدو الألم نسيجا من أنسجة الحياة ؟ لماذا نخطىء ، ولماذا خلق الله أبليس رغم علمه أنه سيعصيه ؟ كيف يبعثنا الله بعد الموت ؟

ستعثر على ألف « لماذا » وألف « كيف » .

هذا تكوين الإنسان ، وهذه طبيعته ومعجزته فى ذات الوقت .

والأصل فى العقيدة الإسلامية هو المعرفة والسؤال . .

من حق الإنسان أن يسأل عن كل شىء . . وأى شىء . .

من حق الإنسان أن ينشر أشرعة الفكر ويبحر بعقله فى بحار المعرفة .

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٥٤ .

ليس هناك غير منطقة واحدة محرمة . .
منطقة الأسئلة عن ذات الله تبارك وتعالى .
لسبب بسيط . .
إن ذات الله تبارك وتعالى تتجاوز طاقة العقل البشرى وقدرة الفكر الإنسانى ، يضيع العقل حين يحاول الدنو من تصور الذات الإلهى قبل خلق الوجود أو بعده ، مثلما يضيع الطفل لو رسم مركبا على الورق وحاول بها عبور المحيط . .
يضيع العقل ويتبدد ولا يصل لشىء .
سئل أحد العارفين عن الدليل على وجود الله .
قال : الله .
قيل له : فما العقل .
قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .
لو وضعنا كلمة (مخلوق) بدل كلمة (عاجز) لكنا أقرب إلى الدقة . .
ــ العقل مخلوق لا يدل إلا على مخلوق مثله .
من نقطة البدء هذه ينهى الإسلام عن سياحة العقل فى منطقة الذات الإلهية . . احتراما للعقل وخشية عليه ، وإجلالا للذات الالهية وتقديرها حق قدرها . .
وإذا كانت العقيدة الإسلامية هى المسئول الأول عن قيام المنهج التجريبى فى دنيا المادة ، وهى المسؤول الأول عن اطلاق العنان للفكر وحثه على النظر والتأمل ، فان ذات الله تبارك وتعالى ليست مادة تخضع لأسئلة العقل . . وإذا كانت العقيدة الإسلامية أكثر العقائد احتراما للعقل ومخاطبة له ، فإنها قد بينت للعقل حدوده التى يتوقف عندها .
وفى دنيا الغيب لا يلجأ المسلم إلى العقل .
إنما يلجأ إلى الوحى يأخذ عنه . . ويكتفى به . . ويصدق رسوله الذى أنزل عليه . . يقول الله تبارك وتعالى عن نفسه أنه (لا تدركه الأبصار)[1] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

وأنه (ليس كمثله شيء)[1] .

بعد هاتين الآيتين يصير السؤال عن ذات الله إبحارا فى مياه غريقة لم تُرجع أحدا ممن أبحر فيها .

وإذن يمنع السؤال من باب الرحمة . . مثلما تمنع السباحة فى المياه الخطيرة من باب الرحمة .

ورد فى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا :

خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟

فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله » . .

هذا أحد الأسئلة التى تخطر بالذهن البشرى ، وهو سؤال بلغ من خطورته حديث النبى صلى الله عليه وسلم عنه .

والسؤال أصلا خطأ . . وهو بتعبير عصرنا غير علمى . .

وهو غير علمى لسبب بسيط . . أنه يفترض خضوع الله تبارك وتعالى لقوانين الحياة الإنسانية . .

تعرف الحياة الإنسانية بالمشاهدة والتجربة والمنطق أنه لا بد لكل شيء من موجد ، ولا بد لكل مخلوق من خالق . . وإذن فهى تتصور أن هذا القانون يمكن أن ينطبق على الله . . ولهذا تسأل : من خلق الله . .

نحن نعرف أن الأسماك تعيش فى الماء وتتنفس فيه . . هذا قانونها الخاص .

ونعرف أن الطيور تعيش فى الهواء وتطير فيه . . هذا قانونها الخاص .

لو سألت احدى الأسماك زميلة لها : لماذا لا تسبح الطيور مثلنا تحت الماء . . فهذا هو نفسه سؤال من يسأل : خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟

إن السمكة أرادت تطبيق قانونها الخاص فى الحياة على الطيور . . الإنسان يحاول تطبيق قانونه الخاص فى الحياة على الله . . ولله المثل

---

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

الأعلى . . ولكن محاولة تطبيق قانون يختص بأحد الكائنات ، على كائن غيره يختلف عنه . . هو أمر غير علمي وغير موضوعي . .

لهذا السبب لم يرد الرسول على السؤال . . استبعده برفق ورد العقل إلى الصواب والايمان قائلا : « من وجد شيئا من ذلك فليقل آمنت بالله » .

نحن نعرف أن الإنسان يستطيع أن يتحرك وينتقل من مكانه ، بينما الأشجار لا تتحرك إلا إذا حركها أحد . من صفات الإنسان أنه يتحرك بذاته ، ومن صفات الأشجار أنها لا تتحرك بذاتها . .

من صفات الأسماك أنها تتنفس فى الماء ، ومن صفات الطيور أنها تختنق وتغرق فى الماء . .

لكل كائن فى الوجود قانونه الخاص أو ناموسه . . ومن صفات البشر أنه يجىء من طريق الولادة . . ومن صفات الله أنه « لم يلد ولم يولد » . .

من طبيعة الإنسان والمخلوقات أنها لا توجد بذاتها . . لا بد لها من موجود وخالق . .

أما جلال الإلوهية . . (ولا نقول قانونها) فيتعالى على احتياج الإله إلى موجد . .

السؤال إذن عمن خلق الله خطأ . .

أساسه خطأ . . وجوابه آمنت بالله . .

نحن ننعم بخير مئات العناصر دون أن نعرف ذواتها أو حقائقها . . ننعم بخير الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية دون أن نعرف كنهها ، صحيح أننا نعرف الانتفاع بها والاستفادة منها ، وصحيح أن هناك آلاف الكتب العلمية عنها ، ولكن كتابا واحدا من هذه الكتب لا يحاول معرفة كنه هذه العناصر . .

تدرس العلوم آثار العناصر وخصائصها وتأثيرها ونظرياتها وقوانينها . . أما حقيقتها فما زالت سرا . .

كيف يتجاوز العلم معرفة حقائق الأشياء المادية وذواتها ، ويحاول طرح الأسئلة عن الذات الإلهية . .

. . .   . . .

. . .   . . .

إن العلم يمتلىء بآلاف الأشياء التى يمكن اعتبارها غيبا . . والغيب هو كل ما غاب عنا . . ورغم ذلك لا يرفض الناس العلم رغم امتلائه بالأسرار المغيبة . . فلماذا يرفضون الدين إلا إذا منح كل أسرار غيبه لهم .

لا يستقيم المنطق هنا . .

ولقد ضل أقوام كثيرون تكلموا فى ذات الله تبارك وتعالى . . وكان كلامهم سببا فى اختلافهم وفتنتهم ، لأنهم تكلموا فيما لا يقدرون على معرفته ، وإنما اختص الله وحده بمعرفته . . ولهذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التفكير فى ذات الله . . قال : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا » ليس هذا المنع حجرا على حرية الفكر ، ولا تضييقا على العقل ، ولكنه خوف عليه أن يقع فى الهلاك أو العبث . . إذ يعالج أمرا لا يملك أدوات علاجه ، ويبحث شيئا ليس مهيأ فى الأصل للبحث فيه . . وقد كانت هذه طريقة الصالحين من عباد الله ، العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره . .

سأل سائل يحيى بن معاذ :

أخبرنى عن الله عز وجل ؟

قال : إله واحد .

قيل له : كيف هو ؟

قال : ملك قادر .

قيل له : أين هو ؟

قال : هو بالمرصاد .

قال السائل : لم أسألك عن هذا .

قال العارف بالله : ما كان غير هذا صفة المخلوق . . أما صفته فما أخبرتك عنه .

الـــوعى بالله

أصل الإنسان وفصله هما التراب والنطفة .

جد الإنسان الأول هو التراب .

وأبوه المباشر هو النطفة .

والتراب يوطأ بالأقدام ، والنطفة تغسل منها الثياب . . فتأمل من يستعلى على الله تعالى وينكره أويجحده ، متناسيا أصله وفصله (**الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين**)[1] .

من التراب والنطفة أمر الله العظيم أن تقع المعجزة . فإذا نحن أمام كائن جديد هو الإنسان . . كائن لا علاقة له بأصله ولا بفصله . . كائن تختلف مادته عن مادة الجد والأب ، كائن شرفته العناية الإلهية فسخرت له كل ما فى الكون ، وكرمته الرعاية فأسجدت له الأرض وذللتها لعقله ، كائن وقع عليه اختيار الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة فى الأرض . .

كائن يختلف عن الملائكة كما يختلف عن وحوش الغابة . .

يختلف عنهم بالعقل . .

ويختلف عنهم بالوعى الإنسانى . .

ولكنه يتساوى معهم ومع بقية الخلائق من بنى جنسه فى الافتقار إلى الله . . والحاجة إليه . . وعدم القيام بنفسه . . وعدم الاستغناء عن ربه أبدا .

يستوى فى فقره إلى الله من يعرفه ومن ينكره . . ويستوى فى الحاجة إليه من يعبده ومن يلحد فى أسمائه . . احتاج الناس جميعا إلى الله . . وإن أختلف احتياج المؤمنين عن الملحدين فى الوعى .

---

(١) سورة السجدة الآيتان ٧ ، ٨ .

يدرك المؤمن بوعيه أنه يحتاج إلى رحمة الله وعونه . .
ولا يعى الكافر أنه يعيش عالة على نعم الله رغم أنه يجحد المنعم .
اختلاف الإدراك عند العارفين والمنكرين هو الذى يضع العارفين على قمة الخليقة - بسبب الوعى - . . ويضع المنكرين فى مرتبة أدنى من حصى القاع وصخور الجبل . .
ليست العبارة الأخيرة تعبيرا أدبيا وإنما هى قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية . . تقوم العقيدة الإسلامية على قاعدة رئيسية تقول أن جميع الكائنات تعرف لها خالقا هو الله ، وتدرك بطبيعتها الخاصة أن لا قيام لها بغيره ، وتسبح له وتعبده بأسلوب غامض قد يخفى على بقية الخلق وإن كان الله وحده يعرفه .
لا يخرج عن هذه القاعدة أحد . ولا يشذ عنها مخلوق .
يستوى فى ذلك النجم والشجر (**والنجم والشجر يسجدان . . فبأى آلاء ربكما تكذبان**)[1] .
يستوى فى ذلك حيوان الصحراء الشارد وصخور الجبل الهاوية (**وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**)[2] .
يستوى فى ذلك المؤمن والمنكر . . إذا كان المؤمن يسبح الله بلسانه وعقله وقلبه ، فان المنكر لوجود الله لا يستطيع الزعم بأنه هو المسئول عن تسيير قلبه ودقاته ، ولا يستطيع الزعم بأن آلاف العمليات الكيميائية التى تقع فى معدته تقع تحت اشرافه وهيمنته وتحكمه . . هذا النظام المحكم الدقيق نوع من أنواع تسبيح الخلايا لله ، وإذن لا يستطع أعتى الكافرين أن يمنع خلايا جسده من تسبيح الله رغم أنفه ، ولا يستطيع أن يمنع جوارحه من الشهادة عليه يوم القيامة رغم أنفه . . وإذن يبقى القهر الإلهى قائما فى الحالتين . . فى الدنيا والآخرة . .
معيار التمييز هنا هو الوعى . .
وعى الكائن بحقيقة وجوده ، واكتشافه أنه سيد من صنع الله ، وعبد لرحمته وجلاله .
ماذا لو سقط عن الإنسان وعيه بالله ؟ ماذا لو أسقط الإنسان وعيه بالله ؟

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦ والآية ١٣ .
(٢) سورة الاسراء الآية ٤٤ .

يحدثنا التصور الإسلامى عن حجارة أرق وألين من قلوب البشر .

يقول الله تعالى : (**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله**)[1] .

يصرح النص القرآنى أن هناك حجارة تهبط من خشية الله .

يصرح النص القرآنى أن هناك قلوبا من اللحم والدم حاربت الله وأنكرته .

خلقها أرحم الراحمين فحاربته وأنكرت نعمته وقتلت أنبياءه واضطهدت أولياءه وسخرت من المؤمنين .

كيف ؟

أيكون لحجارة الجبل من الوعى الغامض والادراك الصامت ما ليس لإنسان ينكر الله تعالى ؟ .

إن الإجابة الصحيحة للسؤال هى : نعم .

وستبقى إجابة السؤال سرا من أسرار الخليقة .

إن الوعى صفة إنسانية أصلا . . وإنخلاعها عن الإنسان يعيده عاريا إلى التراب الذى جاءت منه نشأته الأولى . بل إن إنخلاع الإنسان عن وعيه بارادته ، وكفره بالله تعالى ، يجعله ينزل فى مرتبة الخلائق عن درجة التراب الذى جاء منه .

تأمل قوله تعالى فى القرآن الكريم مخبرا عن أحد الكافرين ، وكيف يلقى أمنيته فى وجه التعاسة التى تنتظره يوم القيامة قائلا :

(**يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا**)[2] .

وإذن فقد صار التراب أمنية ورغبة مشتهاه .

وكيف يكون التراب أمنية إلا إذا كان الإنسان بغير وعى أقل منه وأدنى .

من هنا تجىء أهمية معرفة الله تعالى .

---

(١) سورة البقرة الآية ٧٤ ا

(٢) سورة النبأ الآية ٤٠ .

بغير معرفة الله ينعدم وعى الإنسان ، وتصير حجارة الجبال أرق من قلبه وألين ، ويصير تراب الحقول أشرف من عقله وأكرم .

قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)[1] .

فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة ، وقرأ الآية هكذا وما خلقت الجن والانس إلا ليعرفون .

والمعرفة أنواع عديدة ، منها معرفة الإنسان لنفسه ، ومنها معرفة الإنسان لخصائص الحياة وطبائع الأشياء ، ومنها معرفة الإنسان لربه ، وهذه المعرفة الأخيرة أخطر من دقات قلب الإنسان للإنسان ، ونحن نعرف أن توقف القلب يكون ايذانا بوفاة الإنسان وعودته إلى التراب ، لكننا لا نعرف أن توقف معرفة الله عند الإنسان تعنى وفاة الوعى الإنسانى . .

وأخطر أنواع الموت موت الأحياء الذى لا يدركونه .

وهذا ما يكرهه الله لعباده .

أن يكونوا قلوبا لا تشعر ، وعقولا لا تعرف ، وآذنا لا تسمع ، وعيونا لا ترى . . .

يأبى الله لعباده أن يكونوا كائنات بغير وعى . .

لهذا دعا الله تعالى الخلق إلى عبادته . . وأفهمهم أنه تبارك وتعالى غنى عن انتظار الرزق منهم ، إنما هو الذى يرزقهم ويطعمهم . . وأخطر رزق يسوقه إليهم هو دعوتهم إلى عبادته ومعرفته .

تشحب كل أنواع الرزق جوار هذا الرزق . . وتنفد كل أنواع الرزق ويبقى هذا الرزق . . رزق يتمثل فى الإذن لعباده أن يعرفوه ، والسماح لهم أن يعبدوه ، ولولا لطفه بالخلق لتركهم يولدون ويهلكون أقل مما تولد الأشياء وتهلك . . ولولا هذا الحنان من لدنه لما عرفنا أن لنا خالقا نتجه اليه بذل الدعاء ، ونعرف فى الذل مجد العبودية .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن الله عز وجل هو الغنى عن عبادة العابدين ، وهو المتعالى على انكار المنكرين .

ولو أن الجن والإنس منذ خلق الأرض إلى يوم البعث كفروا بالله والحدوا

---

(١) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

فى أسمائه ما خدش ذلك شيئا من جلاله ، ولو أنهم عبدوه حق عبادته ما زاد فى ملكه شيئا ، إنما يزيد العابد فى ملكه الخاص حين يعبد ، ويجور الكافر على ملكه الخاص حين يكفر ، وليس فى الكون المرئى أو الخفى مخلوق إلا ويعيش عالة على الله عز وجل . . ليس فى الوجود من يقوم بنفسه من الخلائق . . حتى الملائكة تقوم بأمر الله وإذنه . . عالة على نوره ورحمته ، مثلما يعيش البشر والجن عالة على نعمائه ورزقه .

ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى :

(يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا) .

شـــهادة الله

تحكم الظواهر الإنسانية جميعا قوانين النسبية وقوانين اختلاف مستويات النظر . .

ينظر الطفل إلى البحر فلا يرى منه غير سطحه الأزرق الواسع . .

وينظر العاشق إلى البحر فلا يرى منه غير عرق أزرق ينبض فى جبهة الحبيبة . .

وينظر الصياد إلى البحر فلا يرى منه غير سمكة فى شباكه . .

وينظر العالم إلى البحر فيرى فيه عالما من المواد الكيميائية والمعادن الذائبة . .

ومثلما تختلف مستويات النظر إلى الشيء الواحد . . كذلك يختلف التدليل على وجود الله تبارك وتعالى . .

على أبسط المستويات يمكن أن يبدأ التدليل هذه البداية الديكارتية .

أنا أفكر إذن أنا موجود . . لم أوجد نفسى . . إذن أنا مخلوق . . كونى مخلوقا يقتضى أن يكون لى خالق . .

(أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون)[1] يطلق علماء التوحيد على هذا الدليل اسم دليل الابداع أو دليل الوجود . .

ان وجود الإنسان نفسه دليل على وجود الخالق . .

ليس هناك إنسان يزعم أنه قد خلق نفسه . .

يفاجأ الإنسان يوما بأنه موجود . . ويفاجأ بأن له ملامح لا يستطيع الفرار منها ، ويفاجأ بأنه ولد لأبوين لم يخترهما وفى بلد لم يختره ، كما يفاجأ

---

(١) سورة الطور الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

بأن له لونا معينا وطولا معينا وقد ورث مزاجا معينا وخصائص معينة لا يستطيع الإدعاء أنه مسئول عن وجودها . ويعيش الإنسان على الأرض فيشرب مياها ويتنفس هواء لا يستطيع الإدعاء بأنه خلق واحدا منهما . . وتشرق الشمس كل يوم وتغرب كل يوم وتمضى النجوم فى مساراتها طبقا لنواميس حاكمة وقوانين محكمة . . من خالق هذا كله ؟ . . من الذى يعنى بهذا كله . . ؟ . .

هناك من يرشح لدور الخالق ظنا يسمونه الصدفة . . ومعنى القول بأن الصدفة هى المسئول عن اعجاز النظام الذى يسود الكون . . معنى القول بهذا هو الإقرار بأن عدم التدبير أو الفوضى يمكن أن يقودا إلى احتمال يؤدى إلى النظام . . وذلك أمر لا يقبله المنطق ، كما يقطع العلم باستحالته . .

تصور قصرا رائع البناء ، فاخر الأثاث ، متعدد الحجرات ، يقع وسط حديقة منسقة . . تصور أن رجلا جاء إلى البيت وبدأ استكشافه له . . نظر إلى صخور البيت وحدثته نفسه أنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تناثر بعضها . . ثم سارت تجمع ما تناثر منها لتأخذ شكل هذا البيت البديع . . وحدثته نفسه أنه ربما تكون أشجار الحدائق قد تشققت بنفسها ألواحا ، وتركبت أبوابا وسررا ومقاعد ومناضد ، ثم أخذ كل منها مكانه فى القصر ، وأنه من الجائز أن تكون خيوط النبات وأصواف الحيوان وأوباره قد تحولت بنفسها أنسجة موشاه ، ثم تقطعت وسائد وطنافس ، فانبثت فى حجراته ، واستقرت على أرائكه ، وأنه عسى أن تكون المصابيح الزجاجية قد تحولت من رمال على الشاطىء إلى كريستال منقوش ، ثم جعلت تهوى إلى القصر من كل مكان ، ثم تعلقت فى سقفه بغير مساعدة من أحد . . أو بصدفة فحسب . .

لو قال لك هذا الكلام أحد ، فكيف يكون حكمك على سلامة تقديره .

ما قولك فيمن ينظر إلى الكون فيراه قد جاء صدفة ، أو وجد إتفاقا، أو صنع نفسه بنفسه . .

أيكون الكون أهون شأنا من بيت صغير صنعه الإنسان .

ان القول بنشوء الكون عن طريق الصدفة قد صار قضية مرفوضة . . . إن العلم يقطع اليوم باستحالة ذلك . .

كتب دكتور فرانك اللن عالم الطبيعة البيولوجية يقول :

« تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا ، حتى أصبحنا قادرين على التنبوء بحدوث بعض الظواهر التى نقول أنها تحدث بطريقة المصادفة كقذف الزهر فى لعبة الطاولة . . كما أصبحنا قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة ، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة . .

يمكن أن يلتقى الإنسان بصديق لم يره منذ سنين بطريق المصادفة .

ويمكن أن يسقط الإنسان فى حفرة بطريق المصادفة . .

ولكن نشأة الحياة بطريقة المصادفة أمر مستحيل تماما . .

قادنا العلم إلى أن البروتينات هى المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية وقد حسب العالم الرياضى السويسرى تشارلز يوجين احتمالات الصدفة فى تكوين جزىء من البروتين على سطح الأرض بعدد من السنوات قدرها بأنها عشر سنوات وأمامها ٢٤٣ صفرا . . وهذا رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . . وهو يزيد عن عمر الأرض بلايين من السنين . .

ولو عرفنا أن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة . . ولا تدب فيها الحياة إلا بعد اتصالها بالإنسان . . وهو يحمل سره العجيب الذى لا ندرى من كنهه شيئا . .

لو عرفنا ذلك لأدركنا أن الصدفة احتمال غير قائم فى وجود الكون أو الإنسان » . . أ هـ .

ولو تصورنا أن قردا يجلس أمام آلة كاتبة لمدة عام كامل . . ويدق عليها . . يمكن أن تقوده الصدفة إلى كتابة كلمة أو كلمتين . . أما أن يكتب لنا القرد درامة شكسبير « روميو وجولييت » . . أو يكتب لنا التراجيديا الشكسبيرية « هاملت » . . فهذا هو تصور مصغر يشبه تصور من يعتقد أن الكون قد جاء صدفة . .

بالعكس . . . . أن صورة القرد وهو يكتب هاملت أقل جنونا ممن يتصور أن الكون قد جاء صدفة .

إن كل بحث فى الكون يقود إلى إعجاز الله وعنايته .

وكل بحث فى الإنسان يقود إلى اعجاز الله وعنايته .

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد)[1] .

إن الشهادة هنا هى رعاية الله عز وجل .

هنا يبرز علماء التوحيد دليل العناية . .

إن كل شىء فى الكون محكوم بالعناية الإلهية . . يتحدث الله عن هذه العناية فيقول أنه سخر لنا البحر ، وسخر لنا ما فى السماء والأرض جميعا منه ، ويلفتنا بعد ذلك إلى التفكير والتأمل .

(الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[2] . .

ولو تأملنا حكمة تسخير الله للبحر فسوف نلتقط أول اشارة لمعنى العناية الالهية . . إن الحياة تبدأ من الماء . . وبغير الماء تهلك الكائنات على الأرض ، وكل ما فى الأرض من مياه عذبة هى أصلا مياه قادمة من البحر . . إن المياه تغطى أربعة أخماس كوكبنا الأرضى . . بحيث تظهر الأرض فى الفضاء مثل كرة مائية معلقة تدور حول نفسها وحول الشمس . . وبسبب حرارة الشمس تتبخر المياه وتصنع السحب . . وبسبب كهرباء السحب تسقط الأمطار ، ولولا سقوط المطر لاستحال وجود الأنهار والبحيرات ، ولاستحالت الزراعة على الأرض ، ولا يزال الإنسان حتى اليوم يأكل من الأرض .

وكل ما فى الكون يقطع بوجود الحق تبارك وتعالى ويشهد له . .

يروى لنا القرآن الكريم حوارا دار بين موسى وفرعون حين جاءه لإخراج بنى إسرائيل من مصر .

سأل فرعون : فمن ربكما يا موسى ؟

قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . .[3] .

نعتقد أن فرعون لم يفهم كلمة موسى مثلما نستطيع اليوم فهمها . .

أراد موسى أن يلفت نظر فرعون إلى دليل العناية الإلهية الموجودة فى الكون . .

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) سورة الجاثية الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٣) سورة طه الآية ٥٠ .

ولقد أتاح لنا تقدم العلوم اليوم أن نضع أيدينا على جزء من تفسير قوله تعالى : (**ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**) . .

إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ ملايين الصور التى لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة ، ويستقيم تفسيرها بدليل العناية الإلهية . .

إن الأرض كرة معلقة فى الفضاء ، وهى تدور حول نفسها أمام الشمس ، فيؤدى ذلك إلى تتابع الليل والنهار ، وهى تسبح حول الشمس مرة فى كل عام ، فيكون فى ذلك تتابع الفصول ، وهذا يؤدى إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة ، ويحيط بالأرض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع خمسمائة ميل ، وهذا الغلاف يشبه درعا كثيفا يحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا ، وهى شهب تنقض بسرعة ثلاثين ميلا فى الثانية ، والغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها فى الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يتكاثف مطرا يحيى الأرض بعد موتها ، والمطر مصدر الماء العذب ، والماء العذب مصدر الحياة ، وبغيره تتحول الأرض إلى صحراء قاسية تخلو من الحياة ، وتحتوى تربة الأرض على جميع العناصر التى يمتصها النبات ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يتغذى عليها الحيوان والإنسان ، ومعظم المعادن توجد قريبا من سطح الأرض ، ولولا ذلك لاستحال قيام الحضارات القديمة والحديثة ، ولتعطل نشوء الصناعات والفنون . . وهناك علاقات وثيقة بين حجم الأرض وبعدها عن الشمس وسرعتها فى مدراها . . ونشوء الحياة على الأرض . .

لو كانت الأرض صغيرة كالقمر . . لعجزت عن الاحتفاظ بالغلافين الجوى والمائى اللذين يحيطان بها ولصارت درجة الحرارة فيها قاسية إلى حد الموت . . ولو كانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها ١٥٠ ضعفا ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوى من خمسمائة ميل إلى أربعة أميال ، ولأصبح تبخر الماء مستحيلا ، ولارتفع الضغط الجوى إلى ما يزد على ١٥٠ كيلو جراما على السنتيمتر

المربع ، ولتضاءل حجم الإنسان إلى حجم الفأر الكبير ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . .

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالى عن الشمس ، لنقصت كمية الحرارة التى تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ، وإذن تتجمد المحيطات والبحار ويغلف الأرض كلها جليد تنتحر فيه الحياة ، ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هى عليه الآن لبلغت الحرارة التى تتلقاها الأرض أربعة أمثال ، ولغلت مياه المحيطات وتبخرت وسط حرارة تموت فيها الحياة . .

ذلك أن المادة الحية تحتاج إلى بيئة كبيئة الأرض لكى تعيش . والكوكب الذى يحمل كائنات حية لا بد أولا أن تتراوح درجة حرارته بين الصفر و ١٠٠ درجة مئوية ، وهو المدى الذى يمكن للماء فيه أن يوجد كسائل ، أما فى الأجواء التى تزيد برودتها عن ذلك ، فإن التفاعلات الكيميائية لا تتم إلا ببطء بالغ ، وفى درجات الحرارة التى تزيد على ذلك فإن من شأن الحرارة أن تحطم الصلات القائمة بين ذرات الأيدروجين والكربون ، وهى المقومات الأساسية للمادة الحية . .

وهكذا فان كل شيء على الأرض محسوب بدقة ، ومقدر بعناية ، وهذا ما يعرفه علماء التوحيد باسم دليل العناية . .

ومع دليل العناية . . يضيف علماء التوحيد دليل الحركة . .

إن قانون الحركة قانون أساسى من قوانين الكائنات . . كل شيء فى الكون يتحرك وإن بدا شكله الخارجى ثابتا . .

إن الإنسان النائم يبدو ثابتا فى المظهر ، بينما يتحرك قلبه ويجرى دمه فى عروقه وتتحرك خلاياه . . والجبل الثابت ليس ثابتا فى الحقيقة ، إن كل ذرة من ذراته تكشف عن عالم من الحركة حول نواة الذرة . . والنجوم التى تبدو ثابتة فى السماء تتحرك هى الأخرى وتدور حول نفسها وحول نجوم أكبر منها ، وتسبح كل المدن النجمية فى الفراغ الكونى فلا تصطدم ولا تتداخل مداراتها . . ولا شيء فى الكون كله يقف ثابتا . . ثمة دورات من الميلاد والحركة والنمو والموت . . وهى دورات لا ينجو منها أحد . .

من هو المسئول عن حركة الكائنات . ؟

من هو المسئول عن انضباط قوانين الحركة وانسجامها . . بحيث لا تصطدم الشمس بالقمر ، ولا تقترب الأرض من الشمس فتبتلعها الشمس . ؟

من هو المسئول عن هذا النظام الغريب البديع المحكم الذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا . . .

ليس هناك غير جواب واحد تقدمه العقيدة الإسلامية . . الله . .

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا)[1] .

يشير النص القرآنى إلى قدرة الخالق وعجز المخلوق . إن الإنسان لا يتدخل فى حركة قلبه ولا ينظمها . . وهو لا يتدخل فى حركة النجوم ولا ينظمها . . والله تعالى هو الثبات السرمدى وراء هذه الحركة كلها . .

يتحدث علماء التوحيد عن دليل الحدوث . . بمعنى أن حدوث الأشياء دليل على وجود البارىء سبحانه . .

يولد الإنسان ويموت . . تولد الجبال فتبدو مستعصية على الفناء والموت ، ولكن دراستها تقول أنها كانت قيعانا فى المحيط قبل أن تكون جبالا ، وبعد ملايين السنين قد تعود إلى قيعان المحيط وتولد بدلا منها جبال جديدة . .

لا شىء فى الوجود يستعصى على الميلاد والموت . .

هاتان هما الحقيقتان اللتان وقف أمامها الكون كله صاغرا . .

نعرف من خبراتنا البشرية أن الإنسان يولد ويموت . .

ونعرف من تجارب العلم أن أصغر ما فى الكون وهو الذرة . . يولد هو الآخر ويموت . . كان الظن التقليدى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . . لا تموت ولا تولد . .

ومن هذا الظن نشأت فكرة أزلية العالم أو قدمه .

غير أن تفجير الذرة هدم هذا الظن ، انكسر ما اعتبره العلماء قانونا علميا . . صارت المادة شيئا يخضع للميلاد والموت شأنها شأن بقية الكائنات . .

---

(١) سورة فاطر الآية ٤١ .

حتى الشمس هى الأخرى مخلوق يجرى عليه ما يجرى على العصافير من سنن الميلاد والموت ويجرى عليه ما يجرى على زهور المانوليا جراندافلورا . .

تعيش هذه الزهور يومين اثنين . .

وتعيش العصافير شهورا معدودة . .

ويعيش الإنسان سنوات محدودة . .

يرث الله جل شأنه الزهور والعصافير والإنسان . . كما يرث الشمس والقمر والنجوم . .

(كل شيء هالك إلا وجهه)[1] .

يقول علماء الفلك فى أحدث نظرياتهم عن الشمس . . إنها تعتبر . . فى قياس الزمن الفلكى . . مولود حديث الميلاد نسبيا فى مجرتنا أو مدينتنا النجمية . . فعمر المجرة يزيد على عشرة آلاف مليون سنة ، أما الشمس فعمرها نصف هذا العدد من السنين . . فقد ولدت الشمس من سحابة غازية منذ خمسة آلاف مليون سنة ، واكتسبت الخصائص التى تتميز بها اليوم ، ومن حسن حظ البشرية أن الشمس ليست إلا نجما متوسط الوزن ، وفى الإمكان أن نتوقع لها أن تتمتع بعمر مديد نسبيا قبل أن تتضخم إلى حالة العملقة الحمراء . .

لقد مضى على الشمس الآن خمسة آلاف مليون سنة من حياتها العادية ، ومازال أمامها خمسة آلاف مليون سنة أخرى ، وبسبب ذلك فان تفاعلات التفجير النووى داخل الشمس ستكون فى ذلك الوقت قد رسبت داخل لبها من رماد الهليوم كمية ترغم فرنها الذرى على تفاعلات أنشط وحرارة أعلى ، عند ذلك سيتمدد حجم الشمس بشكل هائل ، وسيؤدى هذا التمدد إلى تبريد سطحها فيصبح لونه برتقاليا فى البداية ثم يتحول إلى اللون الأحمر ، ولكن الحرارة الكلية التى تشعها ستكون أكبر كثيرا من المعدل بسبب حجمها المتضخم . . وسيخبز عطارد حينذاك وتشوى الزهرة . . أما درجة حرارة سطح الأرض فسترتفع إلى ما فوق درجة الغليان بكثير . . بيد أن تدفق الحرارة والطاقة بهذه الغزارة سيكون أضخم من أن يستمر طويلا . . لذلك

---

(١) سورة القصص الآية ٨٨ .

فان الشمس ستبدأ بعد حوالى ٢٠٠٠ مليون سنة فى الإنكماش من جديد . . وسيؤول حالها فى اضمحلالها النهائى الطويل إلى أن تصبح قزما أبيض . . ثم تفقد حرارتها وتبرد . . وبعد خمسة آلاف مليون سنة ، ستكون قد استحالت إلى لا شئ . . إلى فراغ أسود . . مثله فى انعدام الحرارة مثل الفضاء الخالى الذى يحيط به . .

هذا القول الذى قيل فى الستينيات من القرن العشرين . . بعد أن وصل علم الفلك إلى إنطلاقه العظيم فى المائة سنة الأخيرة . . هذا القول يتفق مع العقيدة الإسلامية التى تقول إن الكائنات جميعا سوف تهلك . وأنها ترجع جميعا إلى الله . .

(كل شئ هالك إلا وجهه . . له الحكم وإليه ترجعون)[1] .

وإذن . . فان كل شئ يولد ويحدث . . ثم يموت ويهلك . .

دليل الحدوث هذا دليل عليه سبحانه . .

وما أكثر الأدلة عليه . .

وما أضعفها جميعا عن استيعاب أنوار قدسه الأعلى . .

لا تنكر العقيدة الإسلامية أن يستدل الإنسان بنفسه وبالكون على وجود الله . . لا تنكر ذلك وإنما تدعو إليه احتراما لدور العقل الإنسانى . .

كل ما هنالك أن هناك مستويات فى العقيدة الإسلامية للاستدلال على وجود الله . . النظرة التقليدية هى البدء من الكون والإنسان . . أن نستدل بوجود الكون على وجود الله . .

النظرة الأعلى هئ تجاوز الصور إلى المصور . . وتجاوز الكون إلى الله . . بمعنى أن نستدل بوجود الله على وجود الكون . . هكذا يفعل العارفون بالله . .

يقول النفرى فى كتابه المواقف والمخاطبات . . أنه يرفض أن يستدل بوجود الكون على وجود الله .

ـــ أنا لا يستدل على . . إنما يستدل بى . .

أيضا يرفض ابن عطاء الله السكندرى الفكرة التقليدية فى الاستدلال على وجود الله . .

---

(١) سورة القصص الآية ٨٨ .

يعتقد ابن عطاء الله أن الكون كله ظلمة . . وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهد الله فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد حجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار . . وهو يقول : « كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء . .

إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك . .

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك .

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك .

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

شتان بين من يراه ويستدل به ، ومن لا يراه فيستدل عليه . . » .

يريد العارفون بالله أن يقولوا أن الموجود بحق هو الله . . وأن الكون ليس غير الصورة التى تنطبع فى عيوننا عن الكون . . وهذه الصورة ليست هى الحقيقة . . والحقيقة لا ندريها لإنحصار الحواس البشرية وعجزها . .

والكون نسبى ، وجوده مؤقت . له بداية وله نهاية ، أما الله تبارك وتعالى فهو الأزلى المطلق الدائم . .

وما يراه العارفون بالله يتفق مع ما يراه العلماء الماديون . .

يعتقد واحد من أكبر علماء العلوم الطبيعية فى عصرنا . . هو السير جيمس جنيز .

« أن هذا الكون ليس له وجود فعلى ، وأنه مجرد صورة فى أذهاننا . . واحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام » .

يريد العالم أن يقول أننا نحكم على الكون بحواسنا الممنوحة لنا ، وهذه الحواس مخادعة ولا تقود إلى الحقيقة وليست نهائية . . وإذن فإن الحقيقة التى ندركها كبشر ، أو نستمدها من الكون كبشر . . هى فى نهاية الأمر نسبية . . أما الحقيقة المطلقة فلا يعلمها غير الله . .

وإذن . .

لا نريد ـ تأدبا مع الله ـ أن نستدل على وجوده بوجود خليقته . .

لقد كان الإنسان صفرا قبل خلقه . . وكان الكون عدما قبل خلقه . .

ونحن نرفض أن نستدل بوجود الصفر على وجود الأحد الصمد . . كما

نرفض أن نستدل بوجود نبع من العدم على الحى القيوم المتأبى على الفناء . .

قمة النظر فى العقيدة الإسلامية إذا سئلت : ما الدليل على وجود الله . . أن تقول : الله .

فان قيل لك : ألا تشك فى وجوده ؟

فقل : أشك فى وجودى ولا أشك فى وجوده . . (**أفى الله شك فاطر السماوات والأرض**)[1] .

فإن قيل لك : لا بد لكل دليل من شهادة يستند إليها . . ما هى شهادتك فى التدليل على وجود الله . . قل : قول الله تعالى : (**شهد الله أنه لا إله إلا هو . . والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**)[2] .

إذا سئلت : لماذا أضاف الله شهادة الملائكة وأولى العلم إلى شهادته . .

قل : تكرما من الله على الملائكة ، وتشريفا من الله للعلماء . . وليس استدلالا بشهادتهم . . وإلا فما أغنى الحق الخالق عن شهادة المخلوقين .

أرفع استدلال فى العقيدة الإسلامية على وجود الخالق أن نقول :

(**شهد الله أنه لا إله إلا هو**) .

هذه شهادة الجلال الخالق . . وهى عين اليقين . .

وإذا شهد الخالق ، فأى شىء يبقى للمخلوق أن يقول ؟

---

(١) سورة ابراهيم الآية ١٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ ا

جنــود الله

على مستوى السطح ينقسم الخلق إلى عباد لله ، وأعداء لله . .

وفى العمق البعيد نرى كل مخلوق خلقه الله جنديا من جنود الله . .

حتى فرعون الذى حارب الله كان جنديا من جنود الله رغم أنفه ، وكان ينفذ باستخدام حريته وجحوده حكمة عليا ، وكان أداة قهر وفتنة ليرى الله من يستسلم لفرعون ومن يهتدى مع موسى .

والجندى فى الأصل هو الذى يتلقى الأوامر . .

وكل مخلوقات الله تتلقى أوامره .

وفى الجنود من يمتثل للأمر فيدخل فى رحمة الله . كالإنسان والجن .

وفيهم من يعصى الأمر فيعرض نفسه للعقاب . . كالإنسان والجن .

ومنهم من ركبت طبيعته بحيث يطيع دائما . . كالملائكة .

ومنهم من ركبت طبيعته بحيث يخرج من الرحمة ويعصى أبدا . . كالشياطين .

ومنهم من يمضى وفق قوانين محكمة (نعرفها باسم العلم) ، ثم تصدر له الأوامر أن يطيع قوانين المشيئة الإلهية ، ومثال ذلك الخلائق المختلفة كالبحر والرياح والسحب والأمطار والذرات والحيوان والنبات وكل ما خلق الله .

إن البحر الذى أنشق لموسى وأغرق فرعون كان جنديا من جنود الله . . أطاع أمرا أصدرته عصا موسى حين هوت على أمواجه . . وخرج البحر عن قوانينه إلى قوانين المشيئة الإلهية الطليقة . . وذلك ما نعرفه فى لغتنا البشرية باسم المعجزة . . وإن كنا لا نعرف اسم ذلك فى علم الله .

أيضا كانت الرياح العنيفة التى دمرت قوم عاد ، جنديا من جنود الله ، صدر لها الأمر الإلهى أن تهب وتكتسح كل شىء ففعلت . .

نعرف أن القوانين التى تحكم البحر ليس فيها أن ينشق البحر إذا ضربه

بالعصا أحد . . وليس فى قوانين الرياح أنها تدمر كل شىء . . غير أن هذه القوانين من خلق الأحد الصمد . .

والأحد الصمد إذا خلق قانونا خضع له القانون ولم يخضع هو للقانون . تبقى مشيئته الطليقة مصدرا للقانون وفوق القانون .

من الخطأ البالغ أن نقيس الوضع فى هذا المجال على الوضع فى المجال البشرى . . إذا وضع أحد من البشر قانونا ، خضع للقانون مثل غيره من البشر ضمانا للعدالة وعدم الاستثناء . . وفى حق الله تبارك وتعالى لا نسأل عن ضمانات العدالة . . فهى موجودة وموشاة بضمانات الرحمة العليا . .

وإذن يعنى توجه المشيئة الإلهية إلى أمر . . وقوع هذا الأمر بغير ابطاء .

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون)[1] .

تأمل قوله تعالى : **(فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء)** . .

تأمل المعنى تدرك كيف تستمد القوانين منه . . وكيف ينتهى إليه مصير كل شىء . . سواء أكان هذا الشىء قانونا محكما أم نظاما كونيا أم ملكا مقربا أو نبيا من أولى العزم أم بشرا خاطئا أم نملة خرجت تبحث عن طعامها فوق صخرة فى جبل . . أم ورقة صفراء هوت من الشجرة الأم .

تنتهى إليه المصائر والضمائر . .

وتعود إليه الدول والممالك . .

ويرجع إليه البنود والجنود . .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن أحدا لا يعرف جنود الله إلا الله . .

لا يعرف عددهم غير الله . . ولا يعرف مظاهر أعمالهم وسر سرائرهم إلا الله . . قال تعالى : **(وما يعلم جنود ربك إلا هو)**[2] .

وأشرف جنود الله وأكرمهم هم رسله من الملائكة ورسله من البشر . .

على السطح الترابى للأرض يعيش الخير عادة مجردا من القوة . . ويمضى فى عباءة الفكر الهشة ، ويستمد كيانه من كلام الأنبياء الهادى ، ويصطدم بجيوش الباطل المدربة . .

---

(١) سورة ياسين الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .   (٢) سورة المدثر الآية ٣٣ .

وفى السماء يجمع الخير إلى روحه جسد القوة الرهيب وأجنحة الملائكة . .

وكثيرا ما احتاج رسل الله من البشر إلى رسل الله من أولى الأجنحة . .

كثيرا ما يواجه الخير فى الأرض مواقف يتراجع فيها مرغما أمام الباطل . . وفى اللحظات التى يبدو فيها أن المعركة ستحسم لحساب الشر . . يضرب أحد الملائكة بأجنحته الأرض فيتغير الموقف . .

فى قصص الأنبياء شاهدنا الملائكة كثيرا . .

أحيانا يحملون البشرى وأحيانا يحملون العذاب وأحيانا يجيئون للتثبيت . .

حين وضع ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فى المنجنيق وهم الطاغية بالقائه فى النار . . وقف جبريل عند رأسه يسأله للتثبيت والتبشير :

ـــ يا ابراهيم ألك حاجة ؟

لم يكن خليل الله تعالى خائفا . ولا كان مشفقا من النار . . إن نار الحب الإلهى فى قلبه أطفأت النار التى سعرت لإحراقه . . وإذن يجيب جبريل عليه السلام قائلا :

ـــ أما إليك فلا . .

وألقوه فى النار . .

(**قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم**)[١] .

وفى قصة لوط . . حين يحدق الخطر بالنبى ، ويزداد أنين الباب تحت ضربات الظالمين ، ويحس النبى الكريم بالحصار والضيق . . . يهدئه الملائكة قائلين :

(**قالوا : يا لوط إنا رسل ربك . . لن يصلوا إليك**)[٢] .

وفى قصة ابراهيم نرى الملائكة يحملون إليه البشرى بالإنجاب بعد أن مسه الكبر . .

وفى قصة مريم نشاهد جبريل عليه السلام وهو يبشر ابنة عمران بأمومة نبى من أولى العزم وكلمة من الله وروح .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٩ .

(٢) سورة هود الآية ٨١ .

وفى لحظات الخطر فى معارك الإسلام كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرى جبريل وهو آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع . .

ثمة ارتباط بين رسل الله فى الملأ الأعلى . . ورسل الله من البشر . .

ارتباط بين طرفين أحدهما شديد القوى . . وأحدهما بالغ التواضع فى قوته الإنسانية . .

ارتباط بين نوعين من جنود الله تعالى . .

أحدهما يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة . . والثانى يدعو إلى الله تعالى بالقوة التى لا يصمد لها أحد . . أو يقدر على مقاومتها أحد ، أو يجرؤ على الوقوف أمامها أحد .

وفى النهاية . . يربط بين تواضع رسل الله من البشر ، وقوة رسل الله أولى الأجنحة .

إن النوعين ليسا غير صورتين من صور الرحمة الإلهية والعدل الإلهى . .

رسُـــل الله مِن الملائِـكة

سُئل الوليد بن المغيرة . . أحد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . عن رأيه فى القرآن . .

ولم يكن الوليد بن المغيرة غبيا ولا مغلق العقل . . إنما كان طامعا فى الملك والرئاسة ثم جاء الإسلام فضاع حلمه فى الاثنتين معا .

وكان حقده الداخلى عظيما على الله والنبى . .

ونظر فى القرآن وراح يفكر . . ليس هذا الكلام شعرا وليس نثرا . . إنما هو قرآن . . ليس سبك آياته من صنع بشر كما يقول الظالمون من كفار مكة . . ينبغى أن يقول فى القرآن قولا كبيرا . . يجب أن يسىء إلى النبى ويلحد فى الله بأسلوب مقنع . . واستغرق الوليد فترة ثم أرداه كبرياؤه وعناده فقال :

(إن هذا إلا سحر يؤثر)[1] . .

وكأنما أحس أن كلمته مائعة فأضاف اتهامه للنبى أنه يؤلف القرآن قائلا (إن هذا إلا قول البشر)[2] ونزلت قصته فى سورة المدثر

نزلت متكاملة الحلقات فرأيناه فى الدنيا والآخرة . .

صوره الله تبارك وتعالى فى أعظم الصور زراية ومهانة . . وهدده بعذاب الوقوف وحيدا أمام الله وهو ظالم لنفسه . .

قال تعالى : **(ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف**

---

(١) سورة المدثر الآيات ٢٤ .

(٢) سورة المدثر الآية ٢٥ .

قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر)[1] .

وهكذا دخل الوليد بن المغيرة النار بكلمته . . قال تعالى (سأصليه سقر . .)[2] .

لم تكن النار التى هدده الله بها نارا من نيران الجحيم المهولة العادية . . إنما كانت مكانا يحمل اسما راعبا هو سقر . .

وهو مكان يتحدث الله عنه إلى نبيه فيقول له فى استهوال مبهم غامض ، يلقى فى النفس رعبا غامضا مبهما **(وما أدراك ما سقر . . لا تبقى ولا تذر . . لواحة للبشر)**[3] .

ويستمر الوحى فى الحديث عن سقر . . فينبىء الله أن **(عليها تسعة عشر)**[4] .

وفهم المسلمون أن لله جندا يحرسون عمقا من أعماق الحجيم . . فهموا أن عددهم ١٩ ، وازدادوا إيمانا بربهم وأنسا برحمته وتضرعا وخشية من عذابه . .

وكان عدد هؤلاء الملائكة واردا فى صحف اليهود التى لم تحرف بعد . . واستيقن الذين أوتوا الكتاب .

أما الكفار فقد تلقوا العدد باستهزاء بالغ . . وراحوا يستهزئون من قلته ويقولون تسعة عشر فقط . . كم يكفينا لهزيمتهم . . مئة . . مائتان . .

وهكذا زاد العدد من فتنة الكافرين وكفرهم . .

وقال الله تبارك وتعالى مفهما نبيه صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الجند المكلفون بسقر هم ملائكة . .

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا . . كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر)[5] .

---

(١) سورة المدثر من الآية ١١ ـ ٢٥ .

(٢) سورة المدثر الآية ٢٦ .

(٣ ، ٤ ، ٥) سورة المدثر الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

تقوم عقيدة التوحيد على الإيمان بالملائكة . .

هم سفراء الله تعالى إلى أنبيائه . . وهم جنوده فى كونه . . وهم أنقى خلقه وأقواه . .

والملائكة غيب ينتمى للملأ الأعلى .

وفى التصور الإسلامى كثير من الحقائق عن عالم الغيب . . وهو عالم فوق إدراك العقل البشرى أثناء رحلته على الأرض ، عالم « غاب » عنا رحمة بنا وحكمة . . ولو انكشف طرف من عالم الغيب لبشر عادى ، أو ظهرت الملائكة للناس مثلا ، لبطلت إرادتهم وذهب اختيارهم ، ووجدوا أنفسهم مجبرين على الإيمان ، ولانتفت عندئذ الحكمة من خلق الإنسان وابتلائه .

لا نعرف متى خلق الله تعالى ملائكته المكرمين .

أكان ذلك قبل خلق الكون أم بعده أم أثناءه . .

هذا غيب أسدلت عليه الأستار الكثيفة . .

كل ما نعرفه أن الملائكة خلقوا قبل البشر ، فقد أخبرهم الله تعالى أنه سيخلق الإنسان ويستخلفه فى الأرض ، وأمرهم أن يسجدوا لآدم ، وفهم بعض العلماء أن هذا دليل تفضيل البشر على الملائكة . . ولسنا من هذا الرأى . . لأن التفضيل يجوز بين اثنين من جنس واحد ، ولا يجوز بين اثنين من جنسين مختلفين ، أو بين جنس وجنس . . وقديما قارن إبليس مقارنة ظالمة بين النار التى صنع منها والطين الذى خلق منه آدم ، وانتهى إلى ترجيح نفسه ، رغم أنه ليس خالق الطين والنار ليعرف أيهما أشرف . .

ولا نريد أن نقع فى خطيئة عدونا القديم . .

لم يرد فى كتاب الله ذكر للمادة التى خلق منها الملائكة ، وأوردت السنة المطهرة حديثا روته عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه « خلقت الملائكة من نور »[1] . .

وللملائكة صورتهم فى الملأ الأعلى ، وهى صورة تتشكل وتتغير إذا نزلوا إلى الأرض فى مهمة . . وإذن لا يرى الملائكة على صورتهم التى

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام أحمد .

خلقهم الله عليها إنسان . . إلا إذا كان هذا الإنسان أميرا للأنبياء وخاتما للرسل ورحمة للعالمين .

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سفير الله تعالى جبريل عليه السلام على صورته التى خلقه الله عليها مرتين ، مرة عند بدأ نزول الرسالة الإسلامية ، ومرة أخرى عند سدرة المنتهى فى رحلة الإسراء والمعراج .

(ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)[1] .

ورغم أن جبريل هو الروح الأمين ، ورسول رب العالمين إلى رسله ، وسيد الملائكة ، إلا أنه فى نهاية الأمر جندى من جنود الله عز وجل ، وعبد من عباده ، لا يتحرك إلا بأمر ، ولا يصدر إلا بأمر ، ولا ينزل إلى الأرض إلا بأمر . .

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل :

ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا . . ؟

فنزل قوله تعالى : **(وما نتنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا)**[2] .

ليس الملائكة أجسادا ظاهرة لنراها ، وبالتالى لا ينطبق عليهم ما ينطبق على الأجساد الظاهرة من ميلاد وحياة وشيخوخة وموت ، لا ينطبق عليهم ما ينطبق على البشر من طعام وحاجة ونوم وذكورة وأنوثة ، إنما هم خلق آخر من خلق الله قائم بذاته ، لا يتصف بشىء مما يتصف به غيره من الخلق . .

هم أرواح خفية . . ورسل أولو أجنحة . . وليست أجنحتهم كأجنحة الطيور أو الطائرات ، إنما هى غيب مثلهم ، ومثلما يتفاوت الجنود فى الرتب والمهام ، يرمز تفاوت الأجنحة فى الملائكة إلى تفاوت المقامات .

(وما منا إلا له مقام معلوم)[3] .

عدد الملائكة مثلهم غيب . . لا يعرف عددهم بالتحديد إلا الله ، وإن

---

(١) سورة النجم الآيات من ١٣ إلى ١٨ ا

(٢) سورة مريم الآية ٦٤ .

(٣) سورة الصافات الآية ١٦٤ .

رسم الحديث النبوى صورة مقربة لهذا العدد الهائل فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« اطت السماء وحق لها أن تئط ، ما من موضع فيها إلا وفيه ملك راكع أو ساجد » .

وللملائكة عملهم فى الملأ الأعلى ، ولهم عملهم فى الحياة الدنيا ، ولهم عملهم مع العناصر الطبيعية ، وقد شرفهم الله تعالى بالطاعة المطلقة وشرفهم بصفاء لا تخدشه عكارة ، وشرفهم بقوة لا حدود لها ، وشرفهم بالقرب منه سبحانه وامضاء أوامره . .

وفى الملأ الأعلى ، لا حدود لمهام الملائكة ، وقد حدثتنا العقيدة الإسلامية بطرف من هذه المهام .

إن السجود والخوف جزء من عمل الملائكة . . والتسبيح والتمجيد جزء من عمل الملائكة . . وتنفيذ ما يؤمرون به جزء من عمل الملائكة ، يقول تعالى : **(ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة . . والملائكة . . وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)**[1] .

لا نعرف صفة سجود الملائكة . .

نعرف أن المؤمنين يسجدون بوضع جباههم على الأرض . . أما الملائكة فسجودهم غيب مثل كل ما يتعلق بهم .

من أعمال الملائكة فى الملأ الأعلى احتفاظهم بصحف الله تعالى . .

(كلا إنها تذكرة . . فمن شاء ذكره . . فى صحف مكرمة . . مرفوعة مطهرة . . بأيدى سفرة . . كرام بررة)[2] .

من مهام الملائكة فى الملأ الأعلى أن فيهم من يحمل عرش الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن به ، ويسبح بحمد ربه ، ويستغفر للذين تابوا .

يقول تعالى : **(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا**

---

(١) سورة النحل الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة عبس الآيات من ١١ إلى ١٦ .

وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم)[1] .

أيحس القارىء بالدهشة ؟

ألا يثير الدهشة أن يهتم الملائكة الكرام الذين يحملون عرش الله بالخاطئين التائبين ؟

تعلمنا تجارب الحياة أن معظم الخلق يفقدون رؤوسهم فى الارتفاعات الشاهقة ، وربما فقدوا ذاكرتهم ونسوا ماضيهم وأصدقاءهم وأهلهم ، إن مجد القمة يفتن المخلوق عادة وينسيه كل شىء . . وأى ارتفاع يحققه الإنسان لا يقارن بارتفاع الملائكة الذين يحملون عرش الله . .

تأمل كيف ترسم الآية الكريمة صورة لنبل الملائكة وكرمهم ، إن مجدهم وقربهم من الله تعالى لا ينسيهم خطأ الخاطئين وتوبة التائبين فيدعون لهم بالرحمة ، ويدعون لهم بالنجاة من أحزان الجحيم ، ويدعون لهم بدخول جنات عدن . .

ومن المدهش أن أهوال يوم القيامة والبعث والحساب لا تنسى الملائكة رحمتهم بأبناء آدم ، ولا تنسيهم الشفاعة لهم . . وإنما يعلق الله سبحانه وتعالى قبول هذه الشفاعة عليه . . كى تنضبط الرحمة فلا تفيض إلا على من يستحقها . .

(وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)[1] .

تأمل رحمة الله بالملائكة والناس ، وتأمل كرم من تقدست ذاته ، وكيف صاغ نفوس ملائكته من النبل المحض والنقاء المطلق والرحمة اللا نهائية . . وكيف يعلق الحق كل شىء على إذنه ومشيئته ورضاه .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن يوم القيامة سيكون إيذانا بظهور الملائكة للبشر بعد طول استتارهم عنهم . .

يرى الخلائق يوم القيامة ملائكة الرحمن ، بعد أن ينكشف الغطاء عن

---

(١) سورة النجم الآية ٢٦ .

الحواس والأبصار ، يرون حملة العرش الكرام ، ويرون ما شاء الله أن يروه من دلائل عظمته ونوره .

(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)[1] .

لا تقتصر مهام الملائكة فى الملأ الأعلى على التسبيح والتمجيد والسجود وحمل عرش الله عز وجل والقيام بأمره وانفاذ مشيئته سبحانه ، وإنما تتعداها إلى القيام بمهام فى الجنة والنار . .

وإذا كان الملائكة هم سفراء الله إلى عباده فى الجنة يدخلون عليهم بالسلام فإن فى الملائكة جندا لله يقومون بحراسة الجحيم ، عبثا نبحث هنا عن الرحمة التى نعرفها فى الملائكة ، نحن أمام ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[2] .

هل تعنى الغلظة والشدة أنهم جردوا من الرحمة . أغلب الظن أنهم لا يكتسبون طبيعة ثانية ، وإنما تتحول رحمتهم ـ بعدل الله وأمره إلى شدة مروعة ، وهذه الشدة وإن بدا ظاهرها بعيدا عن الرحمة ، إلا أنها جزء نهائى من رحمة العدل . وللعدل رحمة تشفى صدر الكون المجروح بالمظالم والآثام .

ويثير عمل الملائكة مع الإنسان الدهشة من جانبين . جانب النظام الدقيق الذى نرى الإنسان محكوما به ، حتى لا تغادر كلمة منه أو خاطرة تسجيل الملائكة الكاتبين . . وجانب الرحمة الحانية الذى يكلأ الله تعالى به الإنسان ويسخر له ملائكة تدعو له وتؤمن معه فى الصلاة .

يحدثنا الله تبارك وتعالى أن فى الملائكة حفظة على أبناء آدم ، لا يكاد الإنسان يولد ويبلغ حد التكليف حتى يوكل به ملكان . يكتب أحدهما

---

(١) سورة الحاقة الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٢) سورة التحريم الآية ٦ .

حسناته ، ويكتب الثانى سيئاته . . يتلقى الاثنان عن اليمين وعن الشمال ، يسجلان كل شىء ويعرفان كل شىء ويحفظان كل شىء . . هذه الرقابة المحكمة تنتهى بموت الإنسان واغلاق سجل أعماله . . ويوم القيامة ينشر الله تعالى صورة لهذا الكتاب الذى ربما احتفظ به المخ فى سنتيمتر واحد من تلافيفه الغامضة .

يقول تعالى : (**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**)[1] .

لا يقف عمل الملائكة مع الانسان عند حد تسجيل أعماله . . فى الملائكة من يتوفى أنفس الناس عند الموت ، فى الملائكة من هو موكل بقبض الأرواح ، وفيهم من يبشر أصحاب النفوس الطيبة بالجنة ، ويتوعد النفوس الظالمة بالنار . فيهم من يضرب وجوه من أسخط الله وكره رضوانه ، وأدبارهم .

وطوال الفترة التى يحياها الإنسان ، يصاحبه الملائكة عليهم السلام . . يدعون له إن كان مؤمنا ، ويؤمنون معه فى الصلاة إن كان مصليا . . ويشهدون قرآن الفجر إن كان يقيمه . . ويحضرون مجالس الذكر الوقور الذى يعرف حق الله . . ويصلى الملائكة لطالب العلم ويضعون أجنحتهم رضا بما يصنع . . وهم يحملون البشرى لأهل الأرض ويثبتون المؤمنين . .

(**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**)[2] .

وتنبع رحمة الملائكة من رحمة الله وإذنه . . هم جند مأمورون . . وهم يصلون على المؤمنين بأمر منه سبحانه . .

يتبعونه سبحانه فى الصلاة . .

---

(١) سورة ق الآيات م ١٦ إلى ٢٢ .

(٢) سورة فصلت الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

قال تعالى : (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما)[1] .

سبحانه وتعالى . .

هو أهل الرحمة . .

وهو أهل التقوى وأهل المغفرة . .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٣ .

رسُــل الله مِن البشَــر

روى ابن عمر أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان .

قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

قال جبريل : صدقت . رواه مسلم .

هذه هى الأصول الجوهرية التى يقوم عليها التصور الإسلامى .

وأى خروج عن أصل من هذه الأصول يخرج بصاحبه من ظلال العقيدة الإسلامية .

لو قلت ـ مثلا ـ إننى اؤمن بالله ولكننى لا أؤمن بملائكته ، فهذا الإيمان مردود علىّ . . وهى عقيدة جديدة اخترعها وليست من الإسلام .

ولو قلت ـ مثلاً ـ إننى أؤمن بالله وملائكته ولكن لى تحفظات على كتبه ورسله ، ولا أصدق أنه أرسل كتاب التوراة لموسى أو القرآن لمحمد . .

فهذا القول كسابقه يخرج صاحبه من قلعة الإسلام . .

والسر فى ذلك يسير . .

إن الإيمان بالله ليس تفضلا من البشر على الله عز وجل . . وليس فيه مساومة أو أخذ وعطاء ، إنما هو منة الله على عباده . .

(قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان)[1] .

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٧ .

والله تبارك وتعالى يجعل الإيمان به قضية واحدة . . كلا واحدا لا يتجزأ . . عقيدة أصلية تعنى الإيمان به وبجنوده وكتبه ورسله وقضائه وقدره وبعثه وحسابه وجنته وناره . .

قد يقول المرء : إننى أؤمن بهذا كله ، ولكننى لا أعرف كيف تكون صفة الجنة ، ولا أعرف هل سنأكل فيها كما نأكل على الأرض . . ولا أفهم كيف ننعم فيها . .

مثل هذا القول لا يخرج صاحبه من الإسلام . . لأنه يتحدث عن غيب لا يدريه ولا يعرف صفته . . يؤمن به دون أن يدرى كنهه . .

ثمة فرق جوهرى بين الإيمان بالعقيدة ، مع عدم إدراك كنه أشياء فيها ، وبين استئصال أجزاء من العقيدة والقبول ببعضها ورفض البعض الآخر . .

فى الحالة الأولى أنت لم تزل فى ظلال العقيدة الإسلامية .

وفى الحالة الثانية أنت فى ظلال عقيدة جديدة أنت مبتكرها ، ومسئول عنها أمام قاضيك يوم القيامة .

* * * * *

أنبياء الله تعالى ورسله إلى البشر قسمان .

نبى يبعثه الله إلى قومه لهدايتهم إلى الحق . .

ورسول يبعثه الله بكتاب إلى قومه لهدايتهم إلى الحق . .

أنت ترى أن هدف الأنبياء والرسل واحد . . هو هداية الناس إلى الحق . . وإذا كان الله تعالى هو الحق ، فإن هدف رسالات الرسل ودعوات الأنبياء هو « الدعوة إلى الله » .

لا فرق بين النبى والرسول إلا فى الكتاب الذى يحمله الرسول إلى قومه .

ونحن لا نعرف عدد أنبياء الله ورسله .

لا نعرف كم نبيا أرسل الله لأقوامهم ، ولا نعرف كم رسولا بعث للناس . .

حدثنا الله فى القرآن الكريم عن رسل ، وأبان سبحانه وتعالى أنه لم يحدثنا عن رسل .

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)[1] .

من الفضول أن نحاول معرفة ما لم يقله لنا الله . .

وإن كان من المهم أن نعرف سر إرسال الانبياء والرسل . .

الأصل أن إرسال النبى رحمه .

إن الله تعالى لو لم يرسل انبياءه ورسله لألزم الناس حجته لسببين :

السبب الأول : أخذه العهد عليهم يوم خلق الخلق وهم ذرات فى ظهر أبيهم آدم .

السبب الثانى : حديث الله الرحيم المستمر إلى الناس ، وآياته فى الكون وفى أنفسهم ، ومعجزاته المدهشة فى الآفاق وتحت زوايا الرؤية . . ولو تأمل الإنسان تنفسه فحسب . . لو أدرك أنه يعيش فى كل نفس عالة على هواء خلقه الله ، ويتغذى دمه على نعم أوجدها الله ، ويمضى محفوفا بنعم الله وفضله . . لو عرف الإنسان هذا لأدرك أن الحجة تلزمه دون ما حاجة لإرسال الرسل .

وهذا ما نعرفه باسم الفطرة المودعة فى النفوس ، وهى فطرة تهدى إلى الله ما لم تتلوث . وإذن . . لا تفسير لإرسال الأنبياء غير الرحمة . .

محض كرم من الله ورحمته أنه أرسل أنبياءه ، ومحض كرم من الله ورحمته أنه قضى القضاء الرحيم التالى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)[2] .

وثمة سبب آخر لبعث الرسل . .

تصحيح صورة الخلق عن الحق . . والرجوع بالإنسان إلى منابع الإيمان الأصيلة كلما زحزحته عنها ظروف الحياة أو بواعث الهوى أو ضغوط المصالح . .

وإذا كنا فى العلوم البشرية لا نأخذ إلا عن مصادر محترمة يعول عليها ، ففى عالم الغيب لا ينبغى أن نأخذ إلا عن الرسل . .

وهم وحدهم الذين يملكون حق الحديث عن الله . .

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .

(٢) سورة الاسراء الآية ١٥ .

وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يقولوا لنا آخر ما يمكن قوله فى هذا المجال . . وأصح ما يمكن قوله . .

والسبب فى ذلك هو الوحى . .

مصدر علم الأنبياء هو الوحى . . ومصدر علم غيرهم هو العقل سواء كان هؤلاء الغير فلاسفة أو عباقرة أو حكماء أو أذكياء . .

والعقل أداة للحياة فى الأرض ، هو وسيلة اكتشاف للحياة البشرية . . وتكليف العقل بالبحث فى عالم الغيب ، يشبه سؤال الكبد عن المشهد التى تراه عين الإنسان . . يستطيع الكبد أن يحدثك عن تحولات السوائل التى تدخل فيه وتخرج منه . . ويستطيع أن يحدثك عن عمل جيرانه كالمعدة والأمعاء والقلب لكنه لا يدرى أن هناك عينين ولا يعرف ماذا ترى هذه العيون من مشاهد الطرق والجبال والبحار والسماوات والنجوم .

من الظلم لعضو خلقه الله لشيء محدد ، أن نكلفه فوق طاقته ونحاول به بحث أمر غير محدد . .

ولله تعالى المثل الأعلى . .

منبع علم الأنبياء هو الوحى . .

وأصل حركتهم هى اصطفاء الله .

وسر اختيار الله لهم هو علمه سبحانه بحقيقتهم . .

يقول الله : (**الله أعلم حيث يجعل رسالته**)[1] .

ويقول عز وجل : (**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**)[2] .

بعد هاتين الحقيقتين . . علم الله ، واختياره سبحانه . . لا نرى داعيا للحديث عن نقاء قلوب الأنبياء وذكاء عقولهم وطهارة نفوسهم وقدرتهم على الاحتمال فى الله . .

لو قلنا هذا وأكثر منه . . فقد قال الله عز وجل أنه « يصطفى » . . قال أنه « يختار » . .

بعد اختيار الله يسقط كل قول واختيار .

---

(١) سورة الانعام ١٢٤ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٥ .

من الأسئلة التى تثار عن الأنبياء سؤال يقول :

ـــ لو أن الله لم يختر أحد أنبيائه للنبوة . . أى شىء كان يصيره النبى ؟

والجواب : كان النبى يصير سيدا على البشر . . يؤهله للسيادة أنه أفضل البشر معدنا فى الأرض . .

يختار الله أفضل البشر . .

ويعلم ـ سبحانه ـ بوصفه خالق البشر من أفضلهم . .

ومن المعروف أن فضل الاختيار الإلهى لا يمنع فضل الجهد البشرى إنما هو يزيده ، بمعنى أن النبى قبل اختياره يعيش فى سلام خارجى عظيم ، لا يعاديه أحد ولا يحاربه أحد ولا يتآمر عليه أحد ولا يهزأ به أحد . .

بعد اختيار الله للنبى تبدأ مرحلة جديدة فى حياته . .

تقف كل قوى الشر ضد النبى . . تؤذيه فى بيته ونفسه وأهله وعقيدته وأفكاره . . يمتد الإيذاء إلى كل مقدساته . .

يفقد النبى سلامه الخارجى ويتزايد سلامه الداخلى . . ويمضى فى كفاحه من أجل الدعوة إلى الله حتى يلقى ما قدره الله عليه . .

يزيد فضله بعد الاختيار . .

يدفع من احتماله العناء فى الله ، ثمن اختيار الحق تعالى له . .

وما أفدح الثمن الذى يدفعه الأنبياء ، وما أعظم تضحياتهم جميعا من أجلنا نحن البشر الخطاة .

. . . .

يحكم حياة الأنبياء فضل بشرى . . وعصمة إلهية . .

تحلق حياتهم قبل البعثة فى أفق من الكمال لا ينزلون عنه شعرة .

وتصعد حياتهم بعد البعثة لآفاق من الكمال لا ندريها نحن البشر .

ويعصمهم الله تبارك وتعالى قبل البعثة وبعدها من الخطأ البشرى القصور الإنسانى . .

أحيانا يخطىء النبى . . ويعاتبه الله . .

غير أن خطأ النبى يختلف هنا عن خطأ الإنسان العادى . . ينطبق هنا انون النسبية وقانون اختلاف المستويات . . إن حسنات الأبرار سيئات مقربين . . وحسنات المقربين يعاتب عليها الأنبياء . .

والمسألة أمر نسبى بحت .

إن ذا النون أخطأ حين غضب من قومه وتركهم لأنهم لا يهتدون إلى الله . . هذا الخطأ لو ارتكبه فرد بشرى لكان حسنة يجازى عليها . . فهو قد ترك قوما عاصين لا يريدون الهداية . . وهذا شيء يأمر الله تعالى به البشر . . أن يعتزلوا الخاطئين .

أما النبى . . فهو الأب الحقيقى للبشر ، ومن تعليم الله له أن لا يترك الأب أبناءه مهما أجرموا . .

لتبقى الأبوة فى الأنبياء أعلى أفقا من أن تغضب . .

وأرفع مقاما من أن تهجر . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس يوما وسط سادة مكة يدعوهم إلى الله . . لحساب الإسلام لا لحسابه الخاص .

إنه حريص على نجاح الدعوة وليس حريصا على مغنم شخصى . .

ثم يدخل عليه عبد الله بن أم مكتوم . . رجل أعمى وفقير يريد أن يسأله عن الإسلام ويزكى فى دينه ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، والنبى صلى الله عليه وسلم مشغول بالدعوة ، وقد اختار عبد الله وقتا غير مناسب . .

كل ما فعله النبى أنه قطب جبينه وأدار وجهه . . كل ما فعله أنه « عبس وتولى » هذا كل ما فعله .

لو فعله أتقى الأتقياء لكان فعله حسنة يثاب عليها . . فهناك أولويات لكل شيء . . لكن . أن يفعله النبى . .

أن يفعله وهو رحمة الله للعالمين . .

هنالك يعاتبه ربه ويعلمه . .

هنالك لا يرضى الله عما حدث . .

(عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى . . كلا إنها تذكرة)[1] .

ويعرف النبى أن قانون الأولويات سائد فى حق الخلق جميعا وليس سائدا فى حقه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة عبس الآيات من ١ إلى ١١ .

عليه أن يدعو السادة والكبار ، فى نفس الوقت الذى يفتح فيه قلبه للأعمى ولا يدير بصره عنه .

عليه أن يفهم أن وقته كله لله ، وجهده كله لله . . وللفقراء والحزانى .

هذه أخطاء الأنبياء .

هى حسنات بأى مقياس بشرى تقيسها به . .

لكنها فى قياس الله عز وجل تأخذ شكلا آخر . . ويعاتب عليها سبحانه . .

ليس النبى بشرا عاديا .

هو بشر . . لكنه بعد اصطفاء الله يرتقى فى مدارج البشر إلى أفق من الصعب معرفته . .

لا يخرج النبى عن بشريته . . يظل داخلها محكوما بالميلاد والأحزان والمتاعب والمعاناة والموت . .

لكنه يحتمل ما لا يحتمله البشر ، ويدفع ما لا يقدر عليه البشر . .

ويزوده الله بما لا يزود به البشر . .

يزوده الله بالمعجزات . .

وتختلف معجزات الأنبياء باختلاف عصورهم وأزمنتهم .

والمعجزة هى دليل اثبات النبوة عند الكافة . . وهى خروج عن السنن المألوفة فى الحياة والكون . . أن من يدعى أنه رسول من رب العالمين عليه أن يثبت دعواه . .

وإذن يؤيده الله تعالى بما يثبت دعواه . . .

كانت معجزة نوح أنه مكث يدعو قومه ٩٥٠ عاما ثم أيده الله بالطوفان .

وكانت معجزة ابراهيم أن قلبه خلا من كل ما سوى الله . . وأنه ألقى فى النار فكانت بردا وسلاما عليه . .

وكانت معجزة موسى عصا تتحول إلى حية جبارة . .

وكانت معجزة عيسى أحياء الموتى . .

وكانت معجزة محمد كتابا هو القرآن ، وخلقا هو القرآن .

* * * * *

يقول الله سبحانه : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)[1] .
وقد فهم بعض العلماء أن أولى العزم هم كل الرسل . . وأن كلمة « من » هنا لبيان الجنس . .
وقال بعض العلماء أن أولى العزم من الرسل هم خمسة . . نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد واستندوا إلى قوله تعالى :
(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا)[2] .
(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[3] .
وقد فضل الله تعالى بعض الرسل على بعض :
(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)[4] .
وجمهور العلماء على أن أفضل الأنبياء هو خاتم الأنبياء وهو المقصود بقوله تعالى : « ورفع بعضهم درجات » .
واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[5] . . فلزم أن تكون الرحمة العامة المطلقة أفضل من رحمة تختص بزمان محدد ، ورغم ذلك ، وضع الرسول عليه الصلاة والسلام قاعدة عامة تقضى بعدم التفضيل فقال « لا تفضلوا بين أنبياء الله » ، كما قال أيضا « لا تفضلونى على يونس بن متى » .
وكان قصده صلى الله عليه وسلم هو التأدب مع الله . . إن الله يفضل بعض الرسل على بعض ، نتيجة لعلمه سبحانه بهم ، وعلى البشر الذى لا يملك علم الله أن يتأدب مع رسله جميعا ، وأن يضع كلامهم جميعا على نفس القدر من الحب والاحترام والاجلال .

---

(١) سورة الاحقاف الآية ٣٥ .
(٢) سورة الاحزاب الآية ٧ .
(٣) سورة الشورى الآية ١٣ .
(٤) سورة البقرة . الآية ٢٥٣ .
(٥) سورة الأنبياء . الآية ١٠٧ .

كلمـــات الله

كتب الله تعالى هى بعض كلماته إلى خلقه .

لله تعالى كتب يبعثها إلى عباده ، يحملها إليهم رسله من البشر ، ويوحيها الله عز وجل إلى رسله هؤلاء .

(كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه)[1] .

من هذه الكتب :

الصحف التى نزلت على ابراهيم .

والزبور الذى أنزل على داود .

والتوراة التى أنزلت على موسى .

والانجيل الذى أنزل على عيسى .

والقرآن الذى أنزل على محمد .

عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام . . .

والأصل فى كتب الله تعالى أنها دساتيره إلى خلقه . . والدستور هو القانون الأساسى كما نعلم ، والأصل فى كتب الله تعالى أنها وصاياه لخلقه ، وأحكامه بشأن حياتهم ، ورحمته وتكرمه أن تفضل بالحديث إليهم .

ومن كتب الله تعالى ما يركز على الدعوة إلى التوحيد والتسبيح والتمجيد وضرب الأمثال للناس ومثال ذلك صحف ابراهيم وموسى . .

لا نعرف بالتحديد ماذا كانت صحف ابراهيم تضم ، وليس بين أيدينا نصوص مكتوبة لهذه الصحف ، ليس من دليل غير هذه الاشارات المضيئة التى يضمها القرآن عن هذه الصحف .

يقول تعالى : **(قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل**

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى)[1] .

نعرف من هذه الاشارة السريعة بوجود صحف ابراهيم ، والصحف هنا تنصرف لمعنى الكتاب . . نعرف من اشارة أخرى بمضمون كتاب ابراهيم . .

(أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وإن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى)[2]

سأل أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كيف كانت صحف ابراهيم .

قال : كانت أمثالا كلها .

فسأله عن صحف موسى .

فقال : كانت عبرا كلها .

ويسمى الله تبارك وتعالى هذه الصحف . . بالصحف الأولى . . اشارة إلى نزولها القديم وكونها سبقت غيرها من الكتب .

وإذا كانت لله تعالى كتب تركز على الأمثال والعبر ، مثل صحف ابراهيم وموسى ، فإن له كتبا تركز على التسبيح والتمجيد مثل كتاب دواد . . وهو الزبور . . وفى كتب الله تعالى ما يحمل شريعة كاملة ومنهجا للحياة وقواعد للمعاملات والإرث كالقرآن . .

والأصل أن كتب الله تعالى تصلح لكل زمان وكل مكان . . لأن منزلها سبحانه هو خالق الزمان والمكان ، وهو أعلم بنسبية الزمان والمكان ، وهو القادر على أن يتجاوز كلامه نسبية الأزمنة والأمكنة ويجيء مطلقا يصلح لها جميعا . ينطبق هذا الأصل على صحف ابراهيم وداود كما ينطبق على التوراة والانجيل والقرآن .

ولو فهمنا أن كتب الله تعالى هى دساتيره إلى خلقه . ولو عرفنا أن الدستور هو القانون الأساسى الذى يضع القواعد العامة للحياة الإنسانية . .

---

(١) سورة الأعلى الآيات من ١٤ إلى ١٩ .

(٢) سورة النجم الآيات من ٣٦ إلى ٤٢ .

لأدركنا أن الله لم يكن يكلف الناس فوق طاقتهم حين طالبهم بتطبيق هذه الدساتير في حياتهم . .

والأصل أن الله تعالى يرسل كتبه إلى الناس لتكون شريعة للناس يتبعونها ، ولا عبرة هنا بالتغنى بها أو تعليقها على جدران المنازل أو تقديسها مع عدم العمل بها . . لا عبرة بهذا كله . .

إنما يرسل الله كتبه المقدسة للناس ، لتكون واقعا حيا يرى سبحانه أثره فى حياة الناس .

ورد ذكر التوراة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم . .

قال تعالى : **(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار)**[1] .

(وما قدروا الله حق قدره . إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء . قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا)[2] .

أيضا ورد ذكر الانجيل الذى أنزل على عيسى فى أكثر من آية .

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين)[3] .

ورد ذكر كتاب داود فى ثلاث آيات فى القرآن الكريم . .

فى سورة الأنبياء الآية (١٠٥) **(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)** .

وفى سورة النساء (١٦٣) : **(وآتينا داود زبورا)** .

وفى سورة الإسراء (٥٥) : **(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)** .

ومن القواعد الأساسية أن كل كتب الله يصدق بعضها البعض ويكمل بعضها البعض ، ولا تختلف فى أصل أو قاعدة من قواعد التوحيد . .

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢) سورة الانعام الآية ٩١ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٦ .

إنما تتالى إرسال الكتب لأن عديدا منها لم يسلم من التدخل البشرى والتبديل والتحريف . . كما أن أصولا خطيرة من أصول التوحيد قد انحرفت بفعل الإنسان إلى التثنية والتثليث وما شابه ذلك من العقائد الوثنية القديمة .

يقول تعالى :

(افتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)[1] .

ويقول تعالى فى نفس السورة :

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) .

وإذن ، فقد لزم أن نأخذ عن الكتاب الوحيد الذى سلم من التدخل البشرى ، وذلك هو القرآن ، فقد حدث الحق تبارك وتقدس أن القرآن محفوظ كما أنزل . . **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**[2] .

كما أخبر الله تعالى أن القرآن يهيمن على ما سبقه من الكتب . قال تعالى :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)[3] .

إذا اتفقنا على هذه القاعدة الأساسية . . وهى الأخذ من القرآن دون غيره ، فإن هذا لا يمنع أن ننظر فى الكتب السابقة ، إن كان فيها ما يتفق مع القرآن أخذنا به ، وإن كان فيها ما يختلف معه تركناه .

فى المزامير الواردة فى العهد القديم مثلا ، لا يعدو الكلام فيها أن يكون مع الله وعن الله . والأساس فيها التوحيد ، الايمان بإله خالق ، وكل آلهة الوثنيين إلى جانب الإله « يهوه » الحق . . مجرد عدم . . والإله الواحد الحق باق مهيمن لا يتغير ، موجود فى كل مكان ، قريب منا ، فهو بكل شىء عليم ، بكل شىء بصير ، على كل شىء قدير ، خلق الكون بكلمته ،

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٧٥ ، ٧٩ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٨ .

ولما كان حيا فإنه يحيى ويميت كما يشاء ، ولما كان هو الرب والملك والحكم ، فهو المدبر لمجرى الكون ومجرى التاريخ ، الكائنات جميعا خاضعة لحكمه ، وهو قائم بذاته ، غنى عن كل شيء ، وهو وإن لم تدركه الأبصار ، إلا أنه يظهر بفعله كماله الذى لا انتهاء له ، من رحمة وقدس وعدل وصدق .

وإذا نسب إليه وجه أو صفة من صفات البشر كالغضب . . فليس هذا غير مجاز . تتحدث المزامير عن الله . . فتقول أن السماء تحكى عن جلال الله ، والملائكة حاشيته ، وهم يسبحون بحمده ، وهم جنده ورسله ، وعليهم حفظ المؤمنين ونصرتهم ، والبشر أقل منهم منزلة ، ولكن لهم السلطان على الحيوان ، وحياة الإنسان قصيرة واهية ، ومع آثامه يحبه الله الذى يعاقب الخبيثين وينعم على الصالحين ويغفر للنادمين المستضعفين . .

استمع إلى المزمور التاسع عشر من العهد القديم . .

« السماوات تقص قصص جلال الله . والقبة تنبيء بما خلقت يداه .
النهار يحدث النهار بخبره . والليل ينقل لليل نبأه .
ولا حديث ولا كلام ، ولا صوت يسمعه الأنام .
بل سطور للأرض جميعا بارزة . وكلمات إلى أقاصى الدنيا بينه » .

أو استمع إلى المزمور السابع والتسعين .

« تذوب الجبال كالشمع . عند تجلى رب الأرض .
السماوات تنبيء بعدله ، الناس كافة يشاهدون جلاله .
الخزى لعبدة الأصنام . الذين هم بالأباطيل يفخرون .
يا أيها الأرباب . خروا جميعا له ساجدين » .

أو استمع إلى المزمور الخمسين بعد المائة .

« هللويا
الحمد لله فى قدس أقداسه . له الحمد فى سماء عزته .
له الحمد على جليل فعاله . له الحمد فى كامل عظمته
سبحوا بحمده نفخا فى الصور . سبحوا بحمده ايقاعا على الأوتار .
ليحمد الله كل حى يتنفس . . هللويا » .

إذا كان فيما سبق ما لا يخالف جوهر التوحيد فى القرآن ، فنحن أمام مشكلة ثانية . . من أين نعرف أن هذه المزامير هى الزبور الذى أنزل على

داود . إن عناوين المزامير فى كتاب العهد القديم تنسب ٧٣ مزمورا لداود ، و ١٢ مزمورا لآصف ، و ١١ لبنى فورح ، ومزامير متفرقة لهيمان وأتيان ، أو يدونون ، وموسى وسليمان ، ويبقى ٥٣ مزمورا لا تنسب لأحد ، وعناوين الترجمة الاغريقية لا تتفق دائما والنص العبرى ، وهى تنسب لداود ٨٢ مزمورا ، ثم أن الترجمة السيريانية أكثر اختلافا .

والمؤرخون يرون أن من الصعب تحديد مؤلف المزامير ، فهى خلاصة قرون عدة من النشاط فى الشعر ، وهى ثمرة لحماسة بنى إسرائيل الدينية مدى سبعة قرون أو ثمانية من تاريخهم . .

وإذا كان داود قد قرأ على قومه كتابه ، فقد أضيف إلى الكتاب بعد موته الكثير . . الأمر الذى يجعلنا أمام كلام جوهره التوحيد ، وإن كنا لا نستطيع التثبيت بأنه من عند الله ، ونحن نقبله ككلام حكيم عظيم ونحنى له رؤوسنا ، ولكننا لا نستطيع القطع بأنه كلام الله تعالى ، ولا نستطيع القطع بأن هذا السطر كلام الله الذى أنزل على داود ، وهذا السطر كلام بشر مضاف ومنسوب لداود .

وما ينطبق على الزبور ينطبق على الكتب السماوية الأخرى التى لحقها التبديل والتحريف وإذن . . لا يبقى أمامنا إلا كتاب الله الأخير ، وهو القرآن الحكيم . .

ليس معنى ما نقول أن نتخلى عن الإيمان بالكتب السماوية ، إن نص القرآن يخاطب الرسول ، ومن بعده جميع المسلمين قائلا :

(قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون)[1] .

الإيمان بكتب الله تعالى جزء من الإيمان بالله تعالى . .

حتى لو كانت بعض هذه الكتب غير موجودة . . أو موجودة ومحرفة . . يكون الإيمان بها إيمانا بالغيب ، أى إيمانا بها كما أنزلت قديما لا كما صار إليه أمرها حديثا . . بمعنى أن على المسلم أن يؤمن بجميع

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٤ .

الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله ، حتى لو لم يكن بين يديه غير بعضها . . أو مجرد اشارات إليها . .

يكفى أن يحدث القرآن عنها ليؤمن بها كما أنزلت . .

وإذا كنا لا نعرف أول كتاب أنزله الله على رسله . .

فإننا نعرف أن آخر كتاب بعثه هو القرآن . .

والقرآن هو كتاب الله المبين ، نزل به الروح الأمين جبريل ، على قلب خاتم النبيين ، بلسان عربى مبين ، القرآن منزل من الله ، من الله بدأ . . وإليه يعود ، وهو سور محكمات ، وآيات بينات ، وحروف وكلمات ، له أول وآخر ، وأجزاء وأبعاض ، فيه محكم ومتشابه ، وناسخ ومنسوخ ، وخاص وعام ، وأمر ونهى . . وقصص وموعظة . .

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[1] .

والقرآن ـ بوصفه كلام الله تعالى ـ كتاب معجز . . وقد تحدى الله البشر وغير البشر أن يأتوا بمثل هذا القرآن . وأعلن هذا التحدى منذ أربعة عشر قرنا من الزمان . . وإلى يومنا هذا لم يزل التحدى قائما ولم يزل عجز البشر وغير البشر قائما .

قال تعالى : **(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)**[2] .

وإذا كانت الكتب التى سبقت القرآن قد تعرضت للتغيير ، ونجا القرآن من إضافة كلمة أو حذف كلمة ، فإنه لم ينج من عديد من الاتهامات البشرية . .

اتهم الكافرون القرآن بأنه قول بشر .

(إن هذا إلا قول البشر)[3] .

واتهمه البعض بأنه شعر . . ورد الله قائلا : **(وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)**[4] .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٨٨ .

(٣) سورة المدثر الآية ٢٥ .

(٤) سورة يس الآية ٩٨ .

وطوال ثلاثة وعشرين عاما نزل فيها القران ، لم ينج النبى ولا نجا القران من الهجوم والإفتئات . . حين عجز الكافرون عن الإتيان بمثله . . تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله أو آية . فلما عجزوا ، بدأوا يعلنون صراحة عدم رضاهم عنه ، بدأوا يطالبون النبى الكريم بتبديله وتغييره .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى)[١] .

وبهذه الآيات الكريمة ، أثبت النبى عدم قدرته على التصرف فى حرف من حروف القرآن ، فهو مبلغه وحامله ، وليس صاحبه ليتصرف فيه بالتبديل أو التغيير . . والقرآن يبدأ بسورة الفاتحة ، ويختتم بسورة الناس ، ويفتتح الله تعالى تسعا وعشرين سورة منه بالحروف المقطعة مثل : (كهيعص) أو (حم) أو (ألم) ، وقد اختلف العلماء فى تفسير هذه الحروف المقطعة ، وقال بعضهم أن لها أسرارا لا يعرفها إلا الله وقال بعضهم أن الله يعلن تحديه وتعجيزه للبشر فى بداية هذه السور بإيراده هذه الحروف المقطعة ، فكأنه يقول لهم . . إن القرآن يتكون من حروف كهذه الحروف ، وهى من جنس الحروف التى يتكلم بها البشر ويكتبون بها ، رغم ذلك لا يستطيع البشر أن يأتوا بآية واحدة من آياته . .

قال الإمام الشافعى عن القرآن . . هو حجة الله على البشر . . لا يجهل من علمه ، ولا يعلم من جهله . .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه . من كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله . . ولا خلاف فى العقيدة الإسلامية على أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة ، أو حرفا ، أو عطل له حكما أو منع الناس من تطبيقه والحكم به . . لا خلاف على كفر من يفعل ذلك .

. . . .

كتب الله تعالى هى بعض كلمات الله تعالى إلى رسله وعباده . . غير أنها ليست كل كلمات الله . .

لا يعرف كل كلمات الله تعالى غير الله تعالى . .

---

(١) سورة يونس ١٥ .

من صفات الله أنه متكلم بكلام قديم ، يسمعه من شاء من خلقه ، سمعه موسى عليه السلام منه تعالى من غير واسطة ، وإن كان ذلك من وراء حجاب . . وسمعه جبريل عليه السلام ، ومن أذن له من ملائكته ورسله . .

ورد فى الآثار أن موسى عليه السلام حين رأى النار أحس بالخوف وفزع منها فناداه ربه : يا موسى .

أسرع يجيب استئناسا بالصوت فقال : لبيك لبيك . . اسمع صوتك ولا أرى مكانك . . فأين أنت .

قال : أنا فوقك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك .

فعلم موسى أن هذه الصفة لا تنبغى إلا لله تعالى .

قال : كذلك أنت يا إلهى . . أفكلامك أسمع أم كلام رسولك .

قال : بل كلامى يا موسى . .

قال تعالى فى سورة النساء : **(وكلم الله موسى تكليما)**[1] .

وقال فى سورة الأعراف : **(يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى)** .

وقال فى سورة البقرة عن أنبيائه ورسله : **(منهم من كلم الله)**[2] .

غير أن كلام الله تعالى لرسله لا يكون مواجهة أو مباشرة . .

قال سبحانه فى سورة الشورى : **(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب)**[3] .

. . . .

كلمات الله تعالى أكبر من أن يعرفها الخلق كلها . . سواء كانوا ملائكة أم رسلا أو بشرا . .

وإذا كان القرآن هو كلام الله المنزل على عبده ، فان الكون بعجائبه هو قرآن الله المخلوق . . وهو بعض كلمات الله . .

وليست كتب الله تعالى ، ولا كونه العظيم ، غير جزء من كلمات الله . . وهناك قاعدة أساسية تشير إلى عظمة كلمات الله وتضعها فى مكانها الصحيح . . هى قوله تعالى :

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٣ .

(٣) سورة الشورى الآية ٥١ .

(قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا)[١] .

(ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)[٢] .

نحن نقول « الله أكبر » عند إقامة الصلاة .

اشارة إلى أنه الكبير بغير حد . . العظيم بلا أفق . .

وكذلك كلمات الله تعالى . .

تنفد البحار ولا تنفد كلمات الله .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩ .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٧ .

يــوم القيــامـة

يعرف كل طفل أن من السهل نفخ فقاعة من الصابون ، ولكن المحافظة عليها زمنا أكبر من دقيقة أو دقيقتين أمر شديد الصعوبة ، لأن الفقاعة عرضه لأن تنفجر بعد هذه الثوانى وتختفى . .

اكتشف حديثا جدا أن الكون شبيه بذلك .

اكتشف الرياضى البلجيكى ليمتر أن الكون كما يصوره أينشتين له خواص كخواص فقاعة الصابون . . اكتشف أنه غير ثابت الاتزان ، بمعنى أنه غير قابل لأن يقف ساكنا ، فالكون بمجرد خروجه إلى حيز الوجود يأخذ حجمه فى الازدياد ، ولا مناص له من أن يستمر فى التمدد إلى غير حد . .

هذه هى نظرية الكون المتمدد . . وهى أرقى اكتشافات علم الفلك فى هذا القرن . يزداد حجم الكون على الدوام ، ولا مناص من أن يزداد حجمه حتى آخر الزمان .

وكما أن فقاعة الصابون ترق كلما ازدادت حجما ، وتتباعد أجزاؤها المختلفة ، فكذلك يقع للكون . . كلما ازداد حجم الكون ازدادت المسافة بين أجرامه المختلفة فى الفضاء ، وتحركت المُدن النجومية العظيمة الواقعة فى الغشاء الصابونى ، وتباعدت عن بعضها البعض . .

إن أغلبها فى الوقت الحاضر هو من البعد عنا بحيث نحتاج فى رؤيته إلى مرصد لا توفره لنا امكانياتنا على الأرض ، وعلى مر الزمن سيأتى وقت يكون بعدها عنا أكبر من بعدها الآن ، فنحتاج إلى مراصد أقوى مما نملكه الآن .

والكون المتمدد لا يزداد حجمه باستمرار فحسب ، وإنما تزيد سرعة تمدده على الدوام .

ولسوف يأتى الوقت الذى لا يمكن فيه لشعاع من الضوء ان يتم دورته حول الكون أبدا . . علما بأن الضوء يسير بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة .

وسيجىء الوقت على الكون ، فيصل إلى الحالة التالية .

إذا قطع الضوء مليون ميل . . يكون محيط الكون قد تمدد بقدر مليونى ميل ، وبذلك لا يستطيع الضوء ذاته أن يتم دورته حول العالم ، وعندئذ تكون محاولة اقتحام الكون بالابصار كمحاولة اللحاق بقطار سرعته أكبر من السرعة التى تستطيع أن تجرى بها . .

تقوم نظريات الفلك على أن مثل هذا الوقت لا بد آت .

وإذا كان لنا أن نثق بحسابات الرياضيين فهذا الوقت قد حل بالفعل . . أى أننا قد ولجنا الكون بعد أن ولى زمن احاطته بالابصار .

ضع هذه الحقيقة التى يقررها السير جيمس جنيز فى كتابه « النجوم فى مسالكها » . .

وأضف إليها هذه الحقيقة الثانية التى يقررها العالم الفلكى نفسه . .

« نحن الأفراد لا نرى العالم إلا كما يرى السائح أرضا فى ضوء ومضة من البرق » .

لقد كانت الأرض هناك قبل أن يكشف ضوء البرق عنها بكثير ، وستظل هناك فترة طويلة بعد أن يكتنفها الظلام مرة أخرى ، فالومضة قصيرة لدرجة أننا لا نتبين فى خلالها تغيرا فى منظر الأرض ، ومع ذلك فنحن نعلم أن هذا المنظر ليس خلوا من التغير ، ولو أستطعنا أن نسلط عليه ضوءا أبطأ فى الزوال من وميض البرق لرأيناه صورة دائبة التغير من نمو يعقبة انحلال . .

ونعتقد نحن (علماء الفلك) أن الكون ليس بناء ثابتا وإنما هو يحيا حياته ويجتاز الطريق من المهد إلى اللحد شأنه شأننا جميعا . . فالعالم لا يعرف تغيرا سوى التغير بالكبر ، ولا تقدما سوى التقدم نحو القبر .

إن أقصى ما وصلنا إليه الآن من العلم يضطرنا إلى الاعتقاد بأن الكون المادى بأسره صورة مكبرة لهذه القاعدة .

من الحقائق التى يقررها علم الفلك اليوم أن النجوم فى انحلال دائم إلى

شعاع ، انحلال لا يقل فى ثبوته واستمراره عن انصهار جبل من الثلج يطفو فى بحر دافىء . . قد لا نحس أن الجبل يذوب ، ولكنه يذوب . .

من الحقائق الجديدة أيضا فى علم الفلك أن الشمس تفقد من مادتها ويقل وزنها . .

وهى الآن أقل وزنا عنها منذ شهر ملايين كثيرة من الأطنان . .

ولما كانت النجوم الأخرى تنحل بنفس الأسلوب ، فالكون فى مجموعة أقل من مادته مما كان عليه منذ شهر .

يشير الكاتب إلى أن اشتعال النجوم ليس احتراقا كيميائا تتحول فيه المادة ، وإنما هو احتراق نووى تفنى فيه المادة بعد أن تتحول إلى طاقة ، وفناء جزء من المادة يعنى نقص وزنها

لا يقتصر الأمر على أن مقدار المادة فى الكون آخذ فى التناقص ، بل إن الشمس تفقد من وزنها على الدوام ، فإن قوة قبض جاذبيتها على السيارات تضعف ضعفا يزداد أمد الدهر ، وإذن فإن الكواكب كلها ومنها الأرض تتحرك باستمرار مبتعدة عن الشمس فى زمهرير الفضاء ، كذلك كل نجوم المجموعة المجرية تتمدد باطراد تمددا لا ينقضى ، فمدينتنا النجومية تزداد على الدوام فى الكبر فى حين أن أضواء أفرادها تزداد ضعفا وبرودة إلى الأبد ، وإن كنا لا نحس بذلك . . وتنطبق هذه الحقيقة على جميع المدن النجومية الأخرى فى الفضاء . .

إن هذا التمدد العام للكون يشبه ازدياد انتفاخ فقاعة الصابون .

وهكذا تتحرك المدن النجومية العظيمة على الدوام . . تتباعد عن بعضها البعض إلى الأبد . . وهكذا يسير الكون المادى بكيفية ما إلى الانقضاء كما تنقضى حكاية تروى . ويأخذ فى الاندثار إلى لا شىء كأنه حلم من الأحلام . .

والجنس البشرى الذى لما يمضى على ظهور العقل فيه إلا دقة واحدة من دقات ساعة الفلك ، لا يكاد يرجو أن يفهم عاجلا معنى ذلك كله . .

قد يأتى يوم نفهم ذلك فيه . .

أما الآن فليس فى وسعنا إلا أن نعجب » .

انتهت كلمات عالم الفلك والطبيعة . .

أثار عجب العلم فى القرن العشرين . . جزء من حقيقة قررها القرآن

الكريم منذ ١٤ قرنا من الزمان . وتلك إحدى معجزات القران ودليل على كونه من لدن حكيم عليم .

حين اكتشف علم الفلك أن الكون يتحرك ويتمدد ويبرد وأن مصيره إلى الانكدار والانطفاء مثل حكاية تروى . .

حين اكتشف علم الفلك هذه الحقيقة لم يستطع أن يمنع نفسه من العجب . . ولهذا العجب موضعه . . فبغير نظرية النسبية وما تلاها من اكتشافات ونظريات ، لم يكن ممكنا أن يصل علم الفلك إلى نظرية الكون المتمدد الآخذ فى الانطفاء والبرودة . . ومنذ قرون عديدة . . حين كان علم الفلك يقوم على نظرة ساذجة مؤداها أن الأرض مركز الكون ، وأن الشمس والنجوم أجساد ثابتة فى مادتها ومواضعها ، لا يقع لضوئها تغير ولا يحدث لها شيء . . بل إن كثيرا من الناس عبدوا النجوم لما تصوروه من بقائها الخالد . .

نزل القرآن يشير إلى حقائق لم يتكشف جزء منها إلا بعد ١٤ قرنا .

قال القرآن فى أكثر من سورة أن النجوم لها بداية ولها نهاية . .

أنها خلقت وستموت . . وحدد أسلوب موتها بالإنكدار أو الإنطفاء . .

وتلك حقيقة لم تعرف إلا فى هذا القرن ، حين عرفت مادة النجوم وأسلوب احتراقها النووى وطريقة استهلاكها لطاقتها ، وكيف أنها تفنى حين تستهلك طاقتها .

يقول تعالى فى كتابه العزيز :

(إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت)[1] كورت فى لغة العرب يعنى ذهب ضوؤها وانكدرت فى لغة العرب يعنى انطفأت .

(يوم تكون السماء كالمهل)[2] المهل هو ذوب المعادن .

(إذا السماء انفطرت . . وإذا الكواكب انتثرت)[3] انفطرت السماء بمعنى انشقت وانفجرت متهاوية ذائبة .

(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية)[4] مثل فقاعة صابون تمددت جدرانها فصارت واهية ثم انشقت .

---

(١) سورة التكوير الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) سورة المعارج الآية ٨ .

(٣) سورة الانفطار الآيتان ١ ، ٢ .

(٤) سورة الحاقة الآية ١٦ .

تتحدث الآية السابقة جميعا عن يوم القيامة . . وهو يوم رهيب تنطفىء فيه النجوم وتنشق السماء وينحل فيه الكون عائدا إلى الفناء . . ساجدا بفنائه وعدمه بين يدى ربه .

. . . .

لو فتحت كتاب الله فى الجزء التاسع والعشرين . .

وقرأت سورة الحاقة ، فسوف تعيش زمنا باد وانتهى ، وزمنا لم يأت بعد . .

(الحاقة . . ما الحاقة . . وما أدراك ما الحاقة)[1] .

هى سورة هائلة من سور القرآن كما يقول المفسرون ، سورة تطالع قارئها بالهول القاصم ، والجد الصارم ، وتتتالى فيها المشاهد مؤكدة أن أمر الدين والعقيدة جد خالص . . لا لهو فيه ولا مجال فيه لظن . .

هو جد فى الدنيا وفى الآخرة . وجد فى ميزان الله وحسابه .

جد لا يحتمل التلفت عنه لحظة . . وأى تلفت عنه يستنزل غضب الجبار وأخذه الحاسم . . ولو كان الذى يلتفت عنه هو الرسول . .

فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . .

إنه الحق الحاسم من رب العالمين . .

الحاقة . . اسم من أسماء يوم القيامة . .

وليوم القيامة أسماء عديدة . . القارعة ويوم الدين ويوم التلاق ويوم الحسرة ويوم الطامة ويوم الخروج والصاخة والحاقة . .

والحاقة هى التى تحق فتنزل بالحق على الناس . . وتحق فيكون فيها الحق . . وتحق فتقع فجأة . . الحاقة كلمة مشتقة من الحقيقة . . والحاقة اسم ليوم القيامة ، ويوم القيامة هو يوم الحقيقة . .

والجو كله جو هول وروع . .

هول من القدرة الإلهية . . وروع من ضآلة الإنسان والتاريخ والكون والنجوم إزاء هذه القدرة . .

فى البدء يقول الحق كلمة مفردة . .

(الحاقة)[2] .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الحاقة الآية ١ .

لا خبر لها فى ظاهر اللفظ . .

ثم يتبعها باستفهام يدثره استهوال واستعظام . .

(ما الحاقة)[1] .

ثم يزيد الاستهوال والاستعظام بتجهيل الأمر . . مخرجا الأمر عن حدود العلم والإدراك .

(وما أدراك ما الحاقة)[2] .

يسكت الحق فلا يجيب عن السؤال . .

يدعك مأخوذا أمام سؤال بغير رد . .

أنت لا تدرى رده . . ولو قاله الله عز وجل لك فلن تدريه . .

هو غيب . .

هو أعظم من أن يحيط به علم البشر المحدود . أو إدراك الإنسان .

يوم القيامة الرهيب هو موضوع السورة . .

« الحاقة .

ما الحاقة .

وما أدراك ما الحاقة .

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة)[3] .

القارعة اسم جديد للحاقة . فوق أنها تحق الحق ، فهى تقرع ، وذلك ضرب الشىء الصلب بشىء أصلب . كذبت ثمود وعاد بيوم القيامة . النقلة سحيقة فى التاريخ . أنت تواجه صورة قوم عاشوا فى قديم الزمان . . قوم كذبوا بيوم الله . . لا تفصل لك الآيات أين عاش القوم ولا تحدثك عن أسماء رسلهم ولا عن عبادتهم الوثنية ولا عن أسلوب تكذيبهم وعنادهم . . إنما يساق إليك خبر تكذيبهم ويتلوه خبر الجزاء .

(فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية)[4] .

نعرف من سور القرآن الأخرى أنهم أهلكوا بالصيحة . . أما هنا فيذكر الحق وصفا للصيحة دون لفظها . . يفيض الوصف بالهول المناسب لجو السورة . . إذا انتهيت من قراءة الآية تلاشت من أمامك صورة ثمود . .

---

(١) سورة الحاقة الآية ٢ .

(٢) سورة الحاقة الآية ٣ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٤ .

(٤) سورة الحاقة الآية ٥ .

طغت عليهم الصيحة وطوتهم فبادوا أمام عينيك فى لحظة مثلما أبيدوا فى لحظة .

يطويهم السياق القرآنى ويبرز لك صورة أخرى . .

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية)[1] .

تشى الألفاظ بصرير الرياح وبرودتها . . ويرسم جرس الريح العاتية فى نفسك ظلا فتعرف أنهم كانوا عتاة . . فأهلكتهم ريح أعتى وأشد . .

(سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما)[2] .

تأمل تسخير الرياح . . لم يكن الأمر مصادفة . . لم تكن الرياح تهب نتيجة لعوامل كونية أو طبيعية . . كانت رياحا باردة وعاتية ومسخرة ، وتسخير الشىء يعنى تكليفه بمهمة وأمره بشىء .

استمر الأمر الصادر إلى الرياح سبع ليال وثمانية أيام حسوما . . حسوما يعنى قاطعة ومستمرة فى القطع . . يرسم التعبير القرآنى مشهد العاصفة المدمرة ، ويحدد وقتها بالليالى والأيام . . تستطيع أنت أن تحسب عدد الساعات التى هبت فيها الرياح . .

يتغير أمامك المشهد . .

صورة ولا صوت . . مات صوت الرياح بعد أن أدت مهمتها . . ولم يعد باقيا غير مشهد الموت الهامد .

(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)[3] .

انتهى الأمر وصرعتهم الرياح وجوفتهم مثلما تجوف نخلا وتلقيه فى الصحراء . .

إن سؤالا يصدر من الحق تبارك وتعالى إليك .

(فهل ترى لهم من باقية) ؟[4] .

سبحانك يا الله . . ليس لأحد بعد عذابك من باقية .

يبيد كل شىء إذا غضبت عليه .

يتغير المشهد وينقلك السياق إلى قوم آخرين . . قوم فرعون وقوم

---

(١) سورة الحاقة الآية ٦ .

(٢) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٣) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٤) سورة الحاقة الآية ٨ .

لوط . سبق قوم لوط قوم فرعون فى الوجود الزمانى ، ولكنهم تلاقوا معا فى التكذيب ، فكانت نهايتهم واحدة . . شهقة غرق واحدة . .

(وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية)[1] .

لا يسمى الله قوم لوط احتقارا لشأنهم . . المؤتفكات هم قرى لوط التى اتبعت الإفك فانقلبت . . تلاقوا مع قوم فرعون فى مجيئهم بالنفوس الملتوية الخاطئة . . تلاقوا فى عصيان الرسل المتعددين ، فكأنهم عصوا رسولا واحدا ، لأن حقيقة الرسل واحدة ورسالتهم واحدة . . كانت نهايتهم أن الجبار العظيم أخذهم أخذة رابية . .

رفعت مدن لوط وضربت بها الأرض فانفجرت من الأرض المياه ومات الأحياء غرقا بعد صدمة الضربة . . واحتلت مكان مدنهم بحيرة لم تزل موجودة . .

والتأم الموج على فرعون وجيشه فمات غرقا بعد صدمة المفاجأة . . ثمة مياه تملأ المشهد . . مياه عذاب مرير

من الماء إلى الماء تنقلك السورة . . من البحيرة إلى البحر إلى الطوفان تنقلك السورة .

(انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)[2] .

نفس ما وقع لقوم نوح ، بعد ٩٥٠ عاما قضاها يدعوهم إلى الله وهم يرفضون دعوته ويؤذونه ويقاومون . . بعدها طغى الماء . .

حين زادت آثام الناس وتلوثت الأرض أمرها الله أن تغتسل منهم . .

وارتفعت جبال الموج وأبيد الظالمون ونجا من ركب السفينة الجارية . . وجعلها الله لنا تذكرة كى تعيها إذن واعية . .

من هول إلى هول أشد تنقلك السورة .

ثمة تصاعد فى الهول وتنوع فى العذاب . .

من صرخة واحدة ساخنة . . إلى ريح باردة مستمرة . . إلى مياه تعلو كل شىء ويختنق فيها كل أحد . . إلا من رحم الله . .

---

(١) سورةالحاقة الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الحاقة الآيتان ١١ ، ١٢ .

هو نغم واحد يتلون حتى إذا وصل إلى قمته اكتشفت أنك أمام قمة أخرى تشحب جوارها هذه القمة . .

كنت تشهد مصارع المكذبين فى الأرض . .

كنت ترى ماضيا وقع . . وعذابا تم . . وتاريخا ذهب وانقضى . .

المكان : هو الأرض .

والزمان : هو الماضى .

دع عنك الماضى فسوف تنقلك السورة إلى مستقبل لم يأت بعد . . لم يقع بعد . .

ينقلك السياق من ماضى الأرض وتاريخها إلى يوم القيامة . .

إلى مستقبل الأرض وحسابها .

إن نغم الهول يذوب هنا ليبدأ جلال هول من لون آخر . .

كل ما أطلعتك عليه السورة من مصارع المكذبين يتوارى خجلا أمام عظمة الواقعة .

(فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة)[1] .

أشهدك الله غيبا وقع فى الماضى . . وهو سبحانه يريك الآن غيبا يقع فى المستقبل حيث تبدأ أهوال القيامة بنفخة واحدة فى الصور . .

بوق لا ندرى حقيقته . . يمسكه ملك كريم من ملائكة الله يقول العلماء أنه إسرافيل . . وينفخ فيه إيذانا ببداية النهاية . .

ما هى صفة هذا البوق ؟

ما هى حقيقته ؟

ما دلالة هذه النفخة ؟

هذا كله غيب لا ندريه ولا نخوض فيه بغير علم . . كل ما نعرفه أنه ما أن ينفخ فى الصور حتى تتبع النفخة حركة هائلة تتمثل فى حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة .

من الذى يحمل الأرض والجبال ويدكها دكة واحدة ؟

---

(١) سورة الحاقة الآيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

لا يحدثك السياق القرانى عن تفصيلات قدرة الله ، ويترك لذهنك ان يتخيل المشهد المروع . .

يوم النفخ فى الصور ، ودك الأرض والجبال . . يومئذ وقعت الواقعة . .

بدأ يوم القيامة . . اسمه هنا « الواقعة » . .

اشارة موحية إلى المكذبين والمرتابين فى حقيقة وقوعه . . بينما اسمه « الواقعة » .

لا يقتصر الهول على حمل الأرض الثقيلة والجبال الراسخة ودكها دكة واحدة . .

إن السماء فى هذا اليوم ليست بناجية .

(وانشقت السماء فهى يومئذ واهية)[1] .

السماء فى اللغة هى كل ما علا الأرض . . والسماء المقصودة هنا هى الكون بنجومه ومدنه النجمية ومجراته وسدائمه . .

انشقت السماء فهى يومئذ واهية . .

انفجرت فقاعة الصابون بعد أن تمددت ورق غشاؤها ووهت جدرانها . .

انطفأت النجوم وبردت . . انتهى الأمر وانفرط عقد الكون ومات الكون ذاته . .

بعد ضجيج يوم القيامة وأصواته المروعة .

بعد النفخة الصاعقة فى الصور . .

بعد صوت دكة الأرض والجبال .

بعد أصوات انفجار الكون وتشققه وانهياره . .

بعدها ينسدل الجلال على المشهد ويغشيه . .

تسكن الضجة ويملأ النور مكان المكان . .

يبيد كل شىء . . وينتهى كل شىء . . ويظهر فى المشهد عرش الواحد الأحد تحمله الملائكة .

---

(١) سورة الحاقة الآية ١٦ .

(والملك على أرجائها . ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)[1] .

يظهر الملائكة على أرجاء السماء المنشقة وأطرافها . والعرش فوقهم يحمله ثمانية . .

ثمانية من الملائكة . .

أو ثمانية صفوف منهم . .

أو ثمانية طبقات من طبقاتهم . .

أو ثمانية ملايين أو بلايين . .

أو ثمانية مما يعلم الله . . .

هذا كله غيب . .

عرش الله نفسه سبحانه غيب . .

لا ندرى صفته . . وإن آمنا بوجوده . .

لا نعرف كيف تحمله الملائكة . . وإن صدقنا أنهم يحملونه . .

لا نعرف ولا يصح أن نحاول المعرفة . .

مثل هذه المعرفة اليوم لا تفيدنا شيئا فى استخلافنا على الأرض ، زودنا خالق العرش فى الأرض بما يحقق حكمته العليا من الخلافة .

وحدثنا رحمة منه وتكرما عن عرشه وملائكته . .

وتركنا لنؤمن أو ننكر . .

ولو عرفنا اليوم حقيقة عرش الله أو ملائكته . . لو رأينا اليوم طرفا من غيب الله لذهب اختيارنا وبطلت إرادتنا والفينا أنفسنا مجبرين على الإيمان . .

وإذن تنتفى الحكمة من خلق الإنسان وإبتلائه .

سنعرف حقيقة هذا كله حين نستيقظ يوما من الموت . .

سنرى بأعيننا وبصيرتنا ما لا نستطيع اليوم تخيله . .

سنملك من القدرات ما يمكننا من الرؤية يومئذ .

دع عنك فضول الفضول وادلف إلى الظل الجليل الذى يخلعه العرش على الموقف . .

---

(١) سورة الحاقة الآية ١٧ .

تصور عظمة الموقف وعرش الله تبارك وتعالى أمامك . . تصور رهبة الموقف . .

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)[1] .

يومئذ سترى كل ما أردت رؤيته . .

ويومئذ يرى الله تعالى كل ما أخفيته حتى عن نفسك . .

كان يراه وأنت لا تدرى . . واليوم يراه وأنت تشهد . .

يومئذ تسقط الأستار التى كانت تحجب الأسرار . .

وتتعرى النفوس تعرى الأجساد . . وتبرز الغيوب بروز الشهود .

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية)[2] .

أخيرا يقف المخلوق عاريا أمام الخالق . .

أخيرا تقف عاريا أمام خالقك . .

تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الهائل بلا ستار .

عارى الجسد والقلب والضمير . .

عارى الشعور والنية والعمل . .

منتظرا قضاء من لا راد لقضائه . .

وحكم من لا معقب لحكمه . .

يقع هذا كله بعد البعث فى اليوم الآخر . .

---

(١) سورة الحاقة الآية ١٨ .

(٢) سورة الحاقة الآية ١٨ .

البَعث

يشبه النوم بحرا إحدى جزره هى الموت . . وشاطئه الأخير هو البعث والعالم الآخر . . يرقد الإنسان على ظهره ويطفىء نور العالم الخارجى باغلاق جفونه ، يغمض الإنسان عينيه فكأنما يقطع تيار الحياة عن عقله . تهدأ ضربات القلب ويتسلل إلى العقل شىء غامض .

فى البداية يعبر المرء موجا أخضر من مياه البحر . . لم يزل الموج يشف عن قاعة القريب من شاطىء اليقظة . .

أى مؤثر من العالم الخارجى يستطيع ايقاظ النائم . .

تبطىء ضربات القلب أكثر . . ويقع شىء غير مفهوم للعقل فيبطىء نهر الأفكار من تدفقه . . يعبر المرء موجا أزرق . . نبتعد عن الشاطىء أكثر . . وتنسدل على العقل ستارة تمنع العالم الخارجى أن ينفذ إليه .

بعد ساعة من النوم تبدأ المياه الغريقة . .

ينقلب المرء ويهدهده موج داكن الزرقة .

مثل تنفس البحر يتنفس الإنسان . تنساب فى الأفق القريب أشرعة الأحلام البيضاء . تزداد توغلا فى البحر . تدخل المياه الداكنة . . يهدأ الهياج الجامع للموج ويتحول الماء إلى زيت . . هذه مياه النوم العميقة . . لا أحلام هنا . . وهنا لا يصل إلى القاع أحد .

نحن أمام تجربة كاملة من تجارب الموت . .

تقدم إليك رحمة الله بروفات للموت كل ليلة . .

أرأيت أحدا من الناس يكره النوم ؟ ألم تر كيف يعلن الناس عن احتفالهم بالنوم بالتثاؤب . . لماذا يكره الناس الموت ويتصورونه نهاية . بينما هو مرحلة من مراحل الطريق يجىء بعدها اليوم الآخر . .

يموت الإنسان إذا نام ثم يبعثه الله إذا جاء أوان يقظته . .

كيف ينكر الإنسان بعث الموتى وهو يموت كل ليلة ويبعثه الله كل صباح .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون)[1] .

لا شىء يمضى عبثا ولا شىء يقع عفوا .

كل شىء مقدر ومحسوب ومسجل ، وكل شىء يعلن عن قدرته سبحانه . وكل شىء يسجد لعظمته ويعفر جبينه فى تراب الذل أمام كبريائه .

(أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)[2] .

يقوم الإيمان بالله فى العقيدة الأسلامية على الإيمان باليوم الآخر .

لا يكون المؤمن مؤمنا إذا آمن بالله ولم يؤمن بيوم البعث . . وذلك يوم قيامة الموتى من الفناء وعودتهم إلى الله . .

ان الإيمان بالله . . يضع يدنا على معرفة المصدر الأول الذى صدر عنه الكون .

والايمان باليوم الآخر . . يحقق المعرفة بمصير الوجود . . ويضع يدنا على النهاية التى ينتهى إليها الكون . .

ويوم القيامة ضرورة من ضرورات عدل الله . كما أن الجنة والنار ضرورتان من ضرورات رحمة الله وعدله . .

كثيرا ما ترى الملحدين فى الدنيا يملكون أسباب التقدم . . ويستمتعون بكل شىء ، ويخضعون لإرادتهم كل أحد . . وربما رأيت المؤمنين يتعثرون فى عباءة الفقر والأحزان والمشاكل .

وكثيرا ما ترى الجريمة فى الدنيا تجلس فى مقاعد القضاه ، وتحكم على الخير بالسجن والتشريد والموت ، كثيرا ما ترى الشر يكسب ما كان ينبغى على الخير أن يكسبه . . كثيرا ما تنتهى الجولات بين الخير والشر بانتصار الشرور . .

---

(١) سورة الانعام الآية ٦٠ .

(٢) سورة المؤمنون ١١٥ ـ ١١٦ .

وتمضى الأيام ويموت أصحاب القضايا والحقوق ، وتطوى الصفحة على الظلم . .

لو كانت الدنيا هى أيام الله وحدها لكان ما يقع فيها من الظلم أضعاف ما يقع فيها من العدل . .

لو اقتصر الوجود على الدنيا . . لكانت أغلبية الوجود ظلما بحتا . . تبارك الله وتعالى على ذلك . .

لقد خلق الله الدنيا دارا للابتلاء . (**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**)[1] .

وخلق الله اليوم الآخر دارا للقضاء .

اسأل نفسك ما هى قيمة أى انتصار يحرزه الشر فى الدنيا ، لو عرفت أن جميع القضايا سيعاد نظرها مرة ثانية أمام الله يوم القيامة .

ولن يكون القاضى هذه المرة إنسانا يمكن التأثير فيه أو خداعه . إنما سيكون الحق هو القاضى . . سيكون الله هو القاضى . .

ولن يكون الشهود شهود زور يمكن شراؤهم ، إنما ستكون الأيدى والأقدام والعيون والآذان شهودا على الإنسان . .

وسوف ينادى الله يوم قيام المحاكمة الكبرى سائلا .

(**لمن الملك اليوم**)[2] .

وسيرد عن الكائنات لسان ذلها وانسحاقها قائلا :

(**لله الواحد القهار**)[3] .

ويحكم الله على عباده . . (**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**)[4] .

عندئذ يتحقق العدل . .

يتحقق بشكل مطلق ونهائى وحاسم . . للمرة الأولى فى الوجود .

(**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم**)[5] .

. . . .

---

(١) سورة الملك الآية ٢ .

(٢) و (٣) سورة غافر الآية ١٦ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٤٧ .

(٥) سورة غافر الآية ١٧ .

استبعد كثير من الناس فكرة البعث .

(وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر)[1] .

وتساءل كثير من الناس .

ـــ كيف يعيد الله بعث الأجساد بعد أن تتحول إلى التراب ؟

والحقيقة أنها لا تتحول إلى التراب فحسب . . إنها تتحول إلى ملايين الصور قبل أن تتحول إلى التراب . . لقد أكلت إحدى أسماك البحر عين فرعون . ثم اصطاد السمكة صياد ، وأكلت ابنة الصياد عين فرعون والسمكة ، ثم ماتت ابنة الصياد فتحولت إلى شجرة ورد فى حديقة ، ومن عين فرعون نمت شجيرات عشب ، جاءت إحدى الأبقار الجائعة وأكلت العشب ، ثم ذبح الجزار البقرة ، ووزع عين فرعون والسمكة وابنة الصياد على عشرات من الناس فأكل الناس . . مات هؤلاء الناس وأكلهم ناس آخرون .

كيف يبعث الله عين فرعون الضائعة فى ملايين الصور . .

أريد أن أضحك قبل أن أجيبك .

أتظن أن الأمر صعب . . ؟

من الصعب علينا نحن أن نبحث عن عين فرعون . . مثلما يصعب علينا أن نسترد طعاما أكله الذباب منا . .

(وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب)[2] .

مجرد البحث عن عين فرعون يصعب . .

لقد ولدت العين الظالمة فى ملايين الصور الجديدة . . ولهذا يصعب العثور عليها واسترجاعها . .

هذا ما تظنه أنت . .

نحن نعترف بشبهة منكرى البعث ، ونوافقهم على استبعادهم عودة الأجساد بعد تحولها وفنائها . . لو كانوا هم الذين سيبعثون هذه الأجساد ! ! . .

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤ .

(٢) سورة الحج آية ٧٣ .

أما إذا كان الله تعالى هو الذى سيبعث الأجساد الفانية . .
أما إذا كان الله هو الذى يريد . .
فالأمر يختلف . .
بالنسبة إليه تعالى لا يقع الأمر كما يقع منا . .
إذا أراد الإنسان استرجاع عين فرعون . . فعليه أن يبحث عنها خلال ملايين الصور التى تحولت إليها . . والأمر مستحيل . .
أما إذا أراد الله سبحانه استرجاع فرعون كله . . فلا عليه أن يبحث سبحانه . . إنما هو يأمر فقط . . **(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون)**[1] .
سيأمر الله فرعون أن يقف بين يديه . . استيقاظا من الموت . . حضورا من العدم . . من الضياع . . من التشتت . . من التوزع فى ملايين الصور .
مجرد الأمر يكفى . .
مجرد توجه المشيئة الإلهية يكفى . .
لا تسأل إذن . . من يحيى العظام وهى رميم . . ؟
وإنما تأمل قوله تعالى :
(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)[2] .
. . . .
قبل أن يولد فرعون كان عدما . .
كان فناء . .
كان صفرا . .
ثم أمر الله قطرة من الماء المهين أن توجد .
ومن هذه القطرة أمر أن يخلق فرعون .
كيف يصعب على من يخلق من العدم أن يعيد بعث صورة ترابية توزعت فى ملايين الصور .
سبحانه وتعالى على الصعوبة والسهولة وكل مسمياتنا البشرية .

---
(١) سورة يس الآيات ٨٢ ، ٩٣ .
(٢) سورة يس الآيات ٧٨ ، ٧٩ .

(أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد)[1] .

يلفت الله نظر عباده إلى تحولات الإنسان وتحولات الأرض ، كمظهر من مظاهر إعجازه وقدرته . . ويوجه أنظار المرتابين فى البعث إلى أنه خلقهم من تراب . . ثم صور لهم مراحل خلقهم وقارنها بالأرض حين تموت و ينزل عليها الماء فترتد إلى الحياة . . ثم أفهمهم أن قدرة الله لا يعجزها فى الكون شئ . .

يقول تعالى فى سورة الحج :

(يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة . لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق . وأنه يحيى الموتى . وأنه على كل شئ قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)[2] .

---

(١) سورة ق الآية ١٥ .

(٢) سورة الحج الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ .

الســـاعة والحســاب

تقوم قيامة الإنسان إذا مات . .

وتقوم قيامة الأرض إذا جاءت الساعة . .

وقيام الساعة يعنى نهاية الحياة البشرية ، ويعنى موت الكون واختلال قوانينه الحاكمة ، وانطفاء نجومه ومجراته وصيرورة كل شيء إلى الفناء . .

(يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب . . كما بدأنا أول خلق نعيده)[1] .

وقيام الساعة غيب . .

استأثر الله وحده بعلمها . وسئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى :

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل : إنما علمها عند الله)[1] .

وقيام الساعة يعنى وقوع الحساب . . ويعنى التفريق بين المؤمنين والكافرين ، ويعنى رد المظالم إلى الذين ظلموا ، ويعنى التمييز بين المتقين والفجار ، ويعنى قبل هذا كله وبعده . . تنزه الخلق عن العبث والباطل . . وصيرورة كل شيء إلى منشئه وبارئه ، وعودة الخلائق إلى ربها ومولاها . .

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار)[3] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٢) سورة الاعراف الآية ١٨٧ .

(٣) سورة ص الآية ٢٧ .

وقيام الساعة يقترن بالحساب والله هو الذى يتولى حساب البشر وغيرهم من خلقه .

وحساب الله تبارك وتعالى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لا يفلت ذرة ولا أقل من الذرة ، وثمة قاعدة أصيلة تحكم الحساب وتنبئك بدقته وأحاطته . قوله تعالى أنه مع الخلق وينبئهم بما عملوا . .

(ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم)[1] .

ويتفرع من هذه القاعدة الأساسية عديد من القواعد التفصيلية .

سنرى يوم القيامة أن الإنسان كان خاضعا لرقابة رهيبة دون أن يحس . . وسنرى يوم القيامة أن انكار المنكرين لا يجديهم ، وسنرى أن محاولتهم الافلات لا تنفعهم . . ان الأرض تشهد عليهم .

وصحف الملائكة تشهد عليهم .

وكتب الأعمال المسجلة تشهد عليهم .

حتى الألسنة والأيدى والأرجل تشترك فى الشهادة .

حتى سمع الناس وأبصارهم وجلودهم تشهد عليهم .

انتهى الأمر وضاقت الحلقة حول الإنسان وغيره من خلق الله .

كيف تشهد الأرض على الناس ؟

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : **(إذا زلزلت الأرض زلزالها . . وأخرجت الأرض أثقالها . . وقال الإنسان ما لها . . يومئذ تحدث أخبارها)**[2] .

توقف عليه الصلاة والسلام وسأل : أتدرون ما أخبارها . . ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها « رواه أحمد والبغوى والترمذى وصححه » .

كيف تشهد كتب الأعمال المسجلة على الإنسان ؟

تأمل قوله تعالى : **(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له**

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧ .

(٢) سورة الزلزال الآيات من ١ إلى ٤ .

يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)[1] .

كيف تشهد الألسنة والأيدى والأرجل .

أنظر قوله تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . ويعلمون أن الله هو الحق المبين)[2] .

ومثال شهادة الألسنة والأيدى والأرجل ، شهادة السمع والأبصار والجلود . .

قال تعالى فى كتابه العزيز : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين)[3] .

. . . .

إذا كان عدد الشهود هكذا . . فكيف تكون دقة الحساب يوم القيامة . .

يشير الحق تبارك وتعالى إلى ذلك فى قوله :

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[4] .

نريد أن نتوقف قليلا عند قوله تعالى :

(وكفى بنا حاسبين) .

أى ضمانات لدقة الحساب واحاطته وشموله يطلبها البشر بعد هذا الضمان . . أى ضمانات للعدل والرحمة يطلبها البشر بعد هذا الضمان .

---

(١) سورة الاسراء آية ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة النور الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) سورة فصلت الآيات من ١٩ إلى ٢٣ .

(٤) سورة الانبياء الآية ٤٧ .

ليس بعد عدل الله ورحمته عدل أو رحمة .

(وكفى بنا حاسبين) .

سئل الإمام على كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين . . كيف يحاسب الله الناس كلهم فى وقت واحد .

قال ـ كما يرزقهم فى وقت واحد .

○ ○ ○

الجنـة والنـــار

إذا فرغ الله تعالى من حساب عباده . .

ادخل أصحاب الجنة الجنة . . ودفع بأصحاب النار إلى النار . .

الايمان بهذه الحقيقة جزء من الايمان بالله تعالى . . لا يصح ايمان إنسان يؤمن بالله وينكر الجنة أو النار .

والجنة والنار غيب من غيب الله تعالى كالملائكة واليوم الآخر وأسلوب الحساب . غير أن الايمان بالله يعنى الايمان بالغيب الذى حدثنا عنه . ولقد حدثنا الله تعالى أن له عبادا يدخلون الجنة ، وأن له خلقا يدخلون النار . . بشر الله عباده المؤمنين بالجنة ونعيمها . . كما خوف عباده الكافرين بالنار وعذابها . .

. . . .

قال تعالى فى وصف النار :

(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يإعباد فاتقون) الزمر .

وقال تعالى فى وصف الجنة :

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) البقرة من الآية ٢٥ .

. . . .

نريد أن نلفت النظر إلى ملاحظة أساسية قبل أن ندخل فى موضوع الجزاء الذى وضعه الله لدار الابتلاء فى الدنيا .

هذه الملاحظة أن الجنة غيب . والنار غيب . . وكل ما ذكر عنهما من

ألفاظ إنما ذكر لتقريب المعنى من الذهن البشرى . (**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما**)[1] .

حين يقول الله تعالى أن هناك نارا تحرق الجلود ويبدل الله الجلود بغيرها ليستمر الاحراق . . حين يقول تعالى ذلك نفهم من ذلك أن جسد الإنسان لن يكون كجسده على الأرض . . إن شيئا مجهولا سيقع للجسد الإنسانى فيمنعه من الموت . .

نعرف من حقائق الحياة على الأرض أن النار إذا أحرقت جلد الإنسان كله مات الإنسان على الفور .

كيف تحرق نار الآخرة جلد الإنسان فيبدله الله بجلد آخر ليستمر الاحراق ؟

هل سيموت الموت يوم القيامة . . أم أننا سننشأ خلقا آخر يحتمل عذابات الجحيم ونعيم الجنة . ؟

يشير النص القرآنى إلى اختلاف النشأة الأخرى يوم القيامة بقوله فى سورة الواقعة : (**نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

ينفى القرآن عن الإنسان معرفته بهذه النشأة الأخرى . وإن صرح بأنها تختلف تمام الاختلاف عن النشأة الأولى . .

ولعل هذا أول خيط راعب يصلنا من الوعيد . .

إن طاقة الإنسان على الاحتمال فوق الأرض محدودة بحياته وجسده .

أما طاقة الإنسان على الاحتمال بعد قيامه من الموت فى الآخرة فهى بلا حدود .

أى نعيم هناك يستمر . . وأى جحيم هناك يستمر . .

هذه الحقيقة الأولى تكفى لالقاء الرعب فى قلب أعظم الأسود الظالمة على الأرض . . إن عمر الإنسان النسبى على الأرض يتراوح بين الستين عاما والمائة ، لو زاد عن ذلك لم يزد إلا قليلا .

---

(١) سورة النساء الآية ٥٦ .

أتساوى هذه الأعوام حقبا وعصورا وأزمنة ودهورا من العذاب الذى لا يتوقف ؟

يحدثنا القرآن الكريم أن قسوة العذاب تدفع الكافرين إلى تمنى الموت والصراخ توسلا له أن يجىء .

(ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك . قال انكم ماكثون)[1] .

إن مالك هو اسم لأحد ملائكة النار الأشداء .

وضيوف النار المؤبدين يتوسلون إليه أن يتوسل إلى ربه أن يريحهم بالموت ويقضى عليهم . . ويجىء رد الملك الكريم موجزا غاية الايجاز . . صريحا كل الصراحة . . حاسما راعبا هادئا فى كلمتين . .

ـــ انكم ماكثون .

لا أمل فى الخروج إذن . . ولا أمل فى الموت . . ولا سبيل إلى الراحة .

يقول الشاعر أبو الطيب المتنبى :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكون أمانيا

هذه الصورة الشعرية المتخيلة تتحول إلى واقع حقيقى يعيشه الكافرون فى النار . . إنهم يتمنون الموت للخلاص من العذاب . . ولا موت .

وهم يلقون فى مكان لا يمتلىء من فرط قسوته ورعبه . . مكان لا يشبع أبدا ويطلب المزيد دائما .

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)[2] .

قال مجاهد . . ليس هناك قول وإنما جرى الكلام على سبيل تمثيل حال جهنم بأنها امتلأت حتى لم يبق فيها مكان خال . . ونحن لا نرى بأسا من رفض هذا الفهم ، فان الجنة مخلوق من مخلوقات الله عز وجل . . والكلام يجرى يوم القيامة ، ويوم القيامة تنقلب طبائع الأشياء ، وتتكلم الأيدى والأقدام ، وتشهد الجلود والأسماع . . وأدعى إلى الرعب أن تتكلم النار . . ولو تأملنا سؤال الكافرين لأعضائهم ـ لم شهدتم علينا .

ورد هذه الأعضاء : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء . .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٧٧ . (٢) سورة ق الآية ٣٠ .

لو تأملنا ذلك لأدركنا أن لا غرابة فى كلام النار يوم القيامة . .

إن كلامها ينسجم مع الجو الرهيب الموحش الذى يرسمه الحق عز وجل لعذابه ، وهو عذاب يود المجرم لو افتدى نفسه منه بكل من يحب .

(. . . . يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا)[1] .

غير أن كل أمنيات المجرمين فى الافتداء تضيع بددا . .

إنهمه يدخلون النار أخيرا . . وهم يدخلونها لأسباب وجيهة .

(إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر .

قالوا : لم نك من المصلين .

ولم نك نطعم المسكين .

وكنا نخوض مع الخائضين .

وكنا نكذب بيوم الدين .

حتى أتانا اليقين)[2] .

حتى أتانا الموت . . لم يتب أحدنا قبل موته ، ولهذا تجاوزتنا رحمة الله واستحق عملنا أن ندخل النار .

وإذن يعترف الكافرون بالأسباب التى أدخلتهم النار . .

وهكذا يدخل الناس الجحيم بعملهم . .

ولكنهم يدخلون الجنة برحمة الله . . لأن عمل الإنسان مهما تسامى لا يوازيه أو يساويه أن يدخل الجنة .

إنما يسمح الله للناس بدخول جنته رحمة منه ، وإن نسب ذلك سبحانه لعملهم . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحدكم الجنة بعمله .

قالوا : حتى أنت يا رسول الله .

---

(١) سورة المعارج الآيات ١١ - ١٥ .

(٢) سورة المدثر الآيات ٣٩ - ٤٧ .

قال : حتى أنا . . إلا أن يتغمدنى الله برحمته .

لا تنفى هذه الحقيقة أن دخول الجنة يتوقف على من يبيع لله تعالى نفسه ويقاتل فى سبيله ويعبده ويحفظ حدوده ويسجد له ويركع .

تحدث الله تعالى فى سورة التوبة الآيتان ١١١ ، ١١٢ عن صفة أهل الجنة .

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .

التائبون

العابدون

الحامدون

السائحون

الراكعون

الساجدون

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر

والحافظون لحدود الله

وبشر المؤمنين) .

. . . .

تقوم العقيدة الاسلامية على الايمان بالجنة والنار . .

والايمان بنعيم الجنة وعذاب النار . .

ويسيطر عليها أن هذا النعيم ليس نعيما حسيا فحسب . .

وأن عذاب النار ليس عذابا حسيا فحسب . .

ان قاعدة أصيلة تهيمن على الجنة والنار . .

قاعدة أوردها الرسول فى حديث له .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« أعد الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت . ولا أذن سمعت ولا خطر

على قلب بشر . . اقرأوا ان شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)[1] » .

ينطبق هذا الكلام على الجنة .

وينطبق بمفهوم المخالفة على النار . . فقد أعد الله لعباده الكافرين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

(فَضُرِبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)[2] .

واذن فان نعيم الآخرة لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا .

وجحيم الآخرة لا يشبهه شيء من عذاب الدنيا .

ان شابهه فى الاسم فهو مختلف عنه فى الصفة . .

لا يشبه شيء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء .

وكذلك النار . .

. . . . . .

لم نحدثك بعد عن أعلى نعيم فى الجنة . . كما تصوره العقيدة الاسلامية .

أيضا لم نحدثك عن أرهب عذاب فى النار . .

تجاوز بفكرك فواكه الجنة وحورها العين ولحم الطير وكل أنواع المتع . .

وتجاوز بفكرك نار الجحيم التى تشوى الجلود وتصهر البطون وتغلى بها الأدمغة . .

تجاوز هذا كله وارتفع أكثر . .

إلى نعيم ينخسف جواره نعيم الفردوس الأعلى . .

أو إلى جحيم تشحب جواره نار سقر . .

نتحدث عن الله عز وجل . .

ان الذين يعبدون الله خوفا من ناره يشبهون عبدا خائفا من سيده .

والذين يعبدون الله طمعا فى جنته يشبهون عبدا طامعا فى سيده . .

---

(١) سورة السجدة آية ١٧ .

(٢) سورة الحديد الآية ١٣ .

ولا بأس بالخوف والأمل ما داما فى الله

غير أن فوق الطمع والخوف قمة لم نصل إليها بعد . .

قمة هى ذروة الذرى ومنتهى أمل السالكين . .

وجه الله تقدست ذاته . .

النظر إلى وجه الله تقدست ذاته .

إن الله العظيم الجليل يحجب ذاته عن أهل النار غضبا عليهم ، ويكشف نور حجابه الأقدس فيراه أهل الجنة . .

يقول تعالى فى صفة أهل النار :

(كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)[1] .

ويقول تعالى فى صفة أهل الجنة :

(وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة)[2] .

عندئذ تسفر النار عن وجهها الحقيقى . . ويبدأ عذاب المحجوبين عن الله . .

وعندئذ تسفر الجنة عن وجهها الحقيقى . . ويبدأ نعيم الناظرين إلى الله . .

تتوارى النار وتتوارى الجنة . . وتظهر الحقيقة الكبرى . .

لا يبقى غير نار البعد من الله .

ولا يبقى غير نعيم النظر إلى وجهه .

عن أى عذاب أو نعيم تسأل بعد ذلك ؟

---

(١) سورة المطففين الآية ١٥ .

(٢) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

القضـاء والقـدر

تقوم العقيدة الاسلامية على أن الايمان بالله تعالى يستوجب الايمان بقضائه وقدره .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعريف الايمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله . . . (حديث صحيح) .

. . . .

لا يتحرك عصفور فى عشه إلا يعلم الله هذه الحركة ، سجلت فى كتاب منذ الأزل . .

لا تسقط ورقة من شجرة إلا والله يعلم سقوطها . . جرى بها قضاء الله وقدره . . لا ترتعش يد عاشق إلا يعلم الله سر ارتعاشتها ، سبق العلم الالهى بها . .

كل أحداث الأرض والكون ، كل أحداث التاريخ والزمن ، كلها مسجلة عند الله فى كتاب . يعلم الله الأشياء قبل أن تقع ، ويحيط علمه بها قبل أن تولد ، ولا يخرج شىء فى الكون عن علمه سبحانه ، سواء كان هذا الشىء عظيما أم بسيطا . . ابتداء من أطماع الملوك ودسائس الساسة ، وانتهاء برغبات الأجنة وأحلام الأطفال . . لا شىء يخرج عن علم الله . . تستوى فى ذلك أخطر الأشياء وأكبرها ، وأقلها وأصغرها . . سجل الله تعالى حركات النجوم والأفلاك ، كما سجل همس النفس للنفس . .

الله أقرب إلى كل شىء من ذرات هذا الشىء ونواته . .

والله أعلم بكل شىء من معرفة الشىء بذاته أو حياته . .

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[1] .

وحبل الوريد جزء من جسد الانسان ، والله أقرب إلى الانسان من أجزاء الانسان للانسان . .

وإذن . . فإن كل شيء وقع على كوكب الأرض ، أو يقع عليه ، أو سيقع عليه ، سواء كان هذا الكوكب هو وحده العامر بالانسان ، أو كانت هناك كواكب أخرى . . كل شيء مسجل فى كتاب . .

قبل أن يخلق الله تعالى الخلق . . أحاط علمه بكل ما سيقع من الخلق . . وكتب الحق سبحانه وتعالى كل ما سيحدث . .

يختلف علم الله سبحانه وتعالى عن علم البشر . .

يجهل البشر ما سيقع غدا . . ويجهلون ما سيكون من أمرهم بعد سنوات . .

وتظل اللحظة القادمة بالنسبة إليهم سجينة فى الغموض . . بينما يعلم الله تعالى الماضى والحاضر والمستقبل من قبل أن يقع الماضى والحاضر والمستقبل . .

ان النص القرآنى صريح فى الدلالة على ذلك . . قال تعالى : (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين)[2] .

هذا الكتاب المبين ، هو ما نعرفه فى العقيدة الاسلامية باسم القضاء والقدر .

هذا الكتاب المبين هو علم الله الأزلى السابق (الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى)[3] .

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كان الايمان بالقضاء والقدر جزءا من الايمان بالله تعالى . .

كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يعرف قبل بعثته بالرسالة أنه سيكون نبيا . .

---

(١) سورة ق اية ١٦ .

(٢) سورة يونس الآية ٦١ .

(٣) سورة الأعلى آية ٢ و ٣ .

فلما صار نبيا مارس حرية الانبياء واحتمل أمانة الرسالة وبذل جهدا بشريا لا يطاوله جهد بشرى ، ولم يتوقف يوما ليسأل عن علاقة فعله بالقضاء والقدر . .

وكان الصحابة يعرفون ان الاسلام دين بغير معجزات حسية مبهرة . . فصنعوا من مقاومتهم للشر ودعوتهم إلى الحق معجزة حسية باهرة . . مع ايمانهم بالقضاء والقدر . .

كانت فكرة النبى والصحابة عن القضاء والقدر أن الله كتب كتاب الخلق قبل خلقه . ورغم ذلك لم يتوقف أحدهم ليسأل :

ـــ إذا كان الله يعلم ما سأفعل . . فأين حريتى كأنسان فيما أفعله . .

لم يتوقف أحدهم ليسأل :

ـــ هل الانسان مسير أم مخير . . هل الانسان حر أم مسلوب الارادة . .

كانوا أحكم من ذلك وارسخ فى دين الله . .

فهموا أن القضاء والقدر لا ينافى حرية الانسان . .

وأدركوا أن حرية الانسان لا تقف أمام طلاقة المشيئة الالهية . .

كان الانسجام بينهم وبين الكون شيئا يثير الدهشة . .

لقد آمنوا بالقضاء والقدر كاطار عام تتحرك داخله حرية الانسان وقدرته على الحركة . . وأبسط دليل على ذلك ما استطاعوا تحقيقه فى ثلاثة وعشرين عاما . .

ان الطفرة التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم كانت حدثا لا مثيل له فى تاريخ العقائد ، كما كانت دولة الاسلام دولة لا مثيل لها فى تاريخ الدول . .

تحول المجتمع العربى بعد الاسلام إلى حضارة راسخة تملك أسباب حياتها الدائمة ، وتملك فكرها الالهى وتفسيراته البشرية . .

وبعد مجموعة القبائل التى تتناحر لأتفه الأسباب . . صار للاسلام دولة سخرت كل عبقريتها العسكرية لنشر طموحها فى الدعوة إلى الله وتحرير الانسان . .

قبل معركة القادسية . . وقفت جيوش المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص أمام جيوش الفرس بقيادة رستم . . كان عدد الجيش الفارسى

مائتين وأربعين ألفا . . أما جيش المسلمين فكان عدده اثنين وثلاثين ألفا .

أى أن عدد الجيش الفارسى كان ثمانية أضعاف جيش المسلمين . . ورغم هذه الحقيقة فقد هزم المسلمون جيش العدو ، وحطموا قوته العسكرية ، وانفتح الطريق إلى قلب فارس . .

حدث قبل القتال أن بعث رستم قائد الجيش الفارسى إلى سعد بن أبى وقاص رسولا يقول له « ان رستم يقول لكم أرسلوا إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا » واختار سعد ربعى بن عامر . . وهو جندى عادى من جنود المسلمين الفقراء . ودخل ربعى معسكر الفرس المدجج بالفيلة والفرسان والمشاة والرماة . .

دخل على فرس عارية وفى يده رمحه وقد شد سيفه فى وسطه . .

قال له الحرس : ضع سلاحك .

قال : لم آتكم برغبتى فاضع سلاحى بأمركم . . أنتم دعوتمونى فان أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد ، وإلا رجعت .

فأخبروا رستم فقال : « ائذنوا له . . هل هو إلا رجل واحد » .

وأقبل الجندى المسلم وهو يتوكأ على رمحه ويمزق به البسط الفارسية عمدا مشيرا بذلك إلى احتقاره لزينتهم . . فلما دنا من رستم جلس على الأرض ورشق رمه فى البسط . . بعد أن ربط فرسه فى مخدات مذهبة مزقها ليربط فيها مقود الفرس .

سألوه : ما حملك على هذا « يقصدون تمزيقه للبسط والوسائد » .

قال : انا لا نستحب القعود على زينتكم هذه .

سأله رستم : ما جاء بكم « يقصد الجيش الاسلامى بقيادة سعد » .

قال الجندى المسلم : الله ابتعثنا . . والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام . . الله أرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يحكمها دوننا . . ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضى إلى موعود الله . .

قال رستم : وما موعود الله ؟

قال الجندى المسلم : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقىَ . .

هذا الجندى المسلم كان يعرف عن القضاء والقدر أكثر مما عرف علماء متأخرون تخاصموا بعد ذلك على الألفاظ . .

ان القدر الكافى من الحرية الانسانية كان لا ينقص هذا الجندى المسلم . . وهو قدر دفعه للخروج من بيته فى الجزيرة العربية والانضمام لجيش المسلمين وتحركه أياما وشهورا حتى وقف أمام الجيش الفارسى . .

هذا الجندى حر اذن . . وهو يعلم أنه حر . . غير أنه لحكمته يعلم أنه ليس حرا . . هو عبد مخير ، عبد لأن الله خلقه على الأرض فى هذه البقعة الزمنية والتاريخية . . وهو مسير لأن « الله ابتعثنا » . وليس له دخل فى ابتعاث الله له وخلقه اياه . .

غير أنه مخير فى مجيئه إلى هنا . . لقد اختار بارادته أن يقاتل دفاعا عن عقيدة التوحيد . . غير أنه ينسب اختياره هنا إلى الله تأدبا فيقول « والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله » ان الجملة خير تفسير عملى لمعنى القضاء والقدر . . ان الجندى المسلم ينسب الخير إلى الله ، فإذا فعل شرا نسبه إلى نفسه . .

دار هذا الحوار فى عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . .

كان العهد قريبا من عهد النبى صلى الله عليه وسلم . . ولم تكن فكرة القضاء والقدر قد خرجت من ميدان الفعل إلى ميدان القول . . وصارت جزءا مما يسمونه علم الكلام . . حين تخرج احدى عقائد الاسلام من ميدان التطبيق إلى ميدان الجدل النظرى ، فهذا يعنى خروج الفكرة أو العقيدة من المجال الذى يمكن دراستها فيه ، وهذا يعنى عدمية كل مناقشة نظرية لها . .

هل الانسان مخير أم مسير . .

هذا السؤال لا يمكن الاجابة عنه نظريا . . ان الانسان ليس مخلوقا بهذه البساطة .

الانسان مخلوق شديد التركيب والتعقيد والاعجاز . . وهو يتعرض لمواقف متعددة فى الحياة ، ويتعرض لتغيير مستمر فى الحياة ، ولهذه المواقف التى يتعرض لها مستويات فى الشعور والفهم . . وللتغيير أيضا مستوياته . . أى هذه المواقف تريد أن نحدثك عن حرية الانسان فيها . أو كونه مسيرا . .

هناك معيار عام لهذه المسألة كلها . .

الانسان مخير فيما يحاسبه الله عليه ، وهو مسير فيما لا يحاسبه عليه .

هذه الاحالة على الله تعالى ، هى القاعدة التى يطمئن لها قلب المسلم .

ولننظر بعد ذلك فيما يحاسب الله عليه ويأمر به . . هذا هو مجال حرية الانسان . . وما عدا هذا المجال فلا حرية للانسان فيه . . ولا مسئولية عليه بالتالى . .

تقوم العقيدة الاسلامية على أن الله كتب كل ما يفعله الانسان فى حياته قبل أن يولد . . وقد فهم بعض العلماء ان هذه الكتابة تعنى أن الله قضى وقدر وحكم وأراد . . والحقيقة أن الله كتب ما علم ان الانسان سيفعله ، كان الانسان حرا ، وقد سبق العلم الالهى حرية الانسان فعلم ما ستفعله وكتب كل شىء ، كتابة الله تبارك وتعالى هى علمه الأزلى القديم والعلم الأزلى القديم نور يكشف وليس قوة تقهر . .

كتب كثير من العلماء عن القضاء والقدر .

من أقرب ما كتب لروح العصر النبوى ما قاله الامام الموفق ابن قدامة المقدسى .

« من صفات الله تعالى أنه الفعال لما يريد ، لا يكون شىء إلا بارادته ، ولا يخرج شىء عن مشيئته ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا يحيد عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خط فى اللوح المسطور ، اراد ما العالم فاعلوه ، ولو عصمهم لما خالفوه ، ولو شاء أن يطيعوه جميعا لأطاعوه ، خلق الخلق وأفعالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته . قال الله تعالى : (**لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** . .) الأنبياء ٢٣ . وقال الله تعالى : (**إنا كل شىء خلقناه بقدر**) القمر ٤٩ . وقال تعالى : (**ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها**) الحديد ٢٢ . روى ابن عمر ان جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما الايمان : قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » . . فقال جبريل صدقت . رواه مسلم . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره » . .

ومن دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الذى علمه للحسن بن على ليدعو به فى قنوت الوتر « وقنى شر ما قضيت » . ولا نجعل قضاء الله وقدره حجة لنا فى ترك أوامره واجتناب نواهيه ، بل يجب أن نؤمن ونعلم أن الله ألزمنا الحجة بانزال الكتب ، وبعث الرسل . قال الله تعالى (**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**) النساء ١٦٥ . ويعلم أن الله سبحانه ما أمر ونهى إلا المستطيع للفعل والترك ، وأنه لم يجبر أحدا على معصيته ، ولا اضطره إلى ترك طاعته . قال الله تعالى : (**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**) البقرة ٢٨٠ . وقال الله تعالى : (**فاتقوا الله ما استطعتم**) التغابن ١٦ ، وقال تعالى : (**اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم**) غافر ١٧ .

فدل على أن للعبد فعلا وكسبا يجزى على حسنه بالثواب ، وعلى سيئه بالعقاب وهذا كله واقع بقضاء الله وقدره » .

ويعرض المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز للقضية من زاوية جديدة ، هى « تنظيم العلاقة بين الإرادة والغرائز » فيرد على محاولة بعض المذاهب الفلسفية التى تحاول أن تصور لنا الإنسان فى أحد طرفين : فهو مخلوق أعزل ، قد شد وثاقه إلى عجلة الكون ، وسخر تسخيرا بطبيعته وطبيعة الأشياء ، أو هو فى هذا الكون سيد مطلق اليدين ، يتصرف بملء حريته فى طبائع الأشياء وطبيعة نفسه . .

والحقيقة ـ كما يقول الدكتور دراز : أن الإنسان مسير مخير معا ، ولكنه يقوم بهذين الدورين فى ميدانين مختلفين .

وليس من العسير علينا فى كثير من الشئون أن نتبين ما هو من عمل الطبيعة القاهرة ، وما هو من عملنا الحر المستقل ، غير أن هناك حالات خاصة تلتبس فيها المعالم ، وتشتبه فيها الحدود ، ويدق الفصل فيها على غير الناقد البصير ، ومن هنا يميل أكثر الناس فيها إلى التنصل من مسئولياتهم ، وإلقاء عبئها على كاهل الطبيعة ، زاعمين أنهم كانوا مدفوعين بحركة قسرية لا حيلة لهم فى وقفها ولا تصريفها .

إن وجهة نظر الإسلام بريئة من عنف البرهمية وجفاف البوذية ، وغرور أدعياء الصبر والجلد فى الفلسفة الإغريقية ، وانها فى الوقت نفسه منزهة عن ميوعة اليسوعية ـ إحدى الفرق المسيحية ـ وخور الجبرية ،

ورخاوة الكسالى فى كل ملة ونحلة ، فبينما يذهب الفريق الأول إلى إنكار الغرائز والمكابرة فى سلطانها ، ودعوى القدرة على محوها واستئصالها ، وبينما يميل الفريق الثانى إلى التسليم لها والإنهزام أمامها ، والنزول الكلى على حكمها ، تقف الدعوة الإسلامية على الجادة الوسطى ، مشرفة على جانبى الطريق ، فتعترف بسلطات النزعات الجبلية إلى حد محدود ، ثم تترك المجال للهمم والعزائم فى الوقوف بتلك النزعات عند حدها ، ومقاومة الاسترسال معها فى غير ضروراتها الملحة . .

إن كل إلزام أدبى يفترض فيمن يوجه إليه الخطاب أن يكون ذا شخصية مستقلة تعمل لحسابها الخاص ، لا لحساب الطبيعة القاهرة . ومن عجيب أمر الإنسان أنه يجمع بين وصفين متناقضين فى علاقته بالكون : إنه سيد ومسود ، وحاكم ومحكوم ، ولكن فى ميدانين مختلفين . فهو فى عالم المادة وعالم الحياة وعالم النفس لا يخرج عن أن يكون جزءا من هذه العمارة الكونية ، خاضعا لنواميسها وقوانينها : **(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)** لكن للإنسان ميدانا أعلى يملك فيه حريته ، ويبرز فيه سلطانه ، تتقرر فيه مسئوليته ، حيث تسلس له الطبيعة قيادها ، وتملكه زمامها ، وتمهد له سبلها المختلفة ينتقى منها وينتخب . . . [1] .

. . . .

لم يستمر هذا الفهم النقى طويلا فى حياة المسلمين . .

تعاقبت المحن والابتلاءات ، وأصاب القوم بعد انقطاع وحى السماء شر عظيم . .

لا يكاد المرء يلقى نظرة على مفهوم القضاء والقدر فى تاريخ الأمة الاسلامية حتى يصادف جرحا يصدم العين . . ان المعارك التى ثارت حول حرية الانسان أو جبره كانت شيئا يثير الأسف . . والفرق المتصارعة على تفسير الفاظ . . أو على الخلاف بين الفاظ . . كانت حالا يدعو إلى الحزن . . لقد نزل الاسلام أصلا لتجميع الناس حول الحق ، الاسلام دين

---

(١) راجع كتاب « المسئولية فى الإسلام » للدكتور دراز .

تجميع . وليس دين تفريق . . كيف تتحول احدى عقائده الجوهرية إلى مجال خصب للجدل والخصام والتشابك وتحكيم السيوف . .

كيف يسيل دم المسلمين لأن بعض علمائهم اختلفوا على تفسير كلمة أو عبارة ؟ !

سنلمح وراء هذه المأساة شبح السياسة ولعبة الحكم . .

حقيقة الاسلام أنه برىء مما أحدثه الناس . .

لقد شجعت ظروف سياسية على نشوء نظرة معينة للقضاء والقدر . . ليخلو الجو أمام الحكام فى التصرف . . وإذا كان الظلم قدرا مقدرا فأى بأس فى أن يحتمله الناس بالصمت الجميل . . وليستمر الحكام فى ظلمهم مادام هذا قضاء أزليا لا يمكن الفكاك منه . .

يرينا التاريخ الاسلامى كيف ارتد الناس إلى الايمان بأنهم مسيرون كالدمى فى مسرح العرائس . .

ويرينا ، كيف قادت هذه الفكرة إلى نشوء فكرة مناقضة . . تدعو إلى اعتبار الانسان حرا كالإله . . خالقا مثله . .

وكانت قمة تدهور الموقف هو خروج الاختلافات العلمية من قاعات الدرس إلى الساحات والنوادى فإذا بالناس يتساءلون . هل الانسان حر أم مجبر ؟ .

هل القرآن مخلوق أو أزلى . . ؟ وينتصر لكل رأى من الرأيين من لم يفتح القرآن يوما ليقرأ فيه آية . .

يرينا التاريخ الاسلامى كيف دخلت السياسة فى الدين فمزقت رجاله إلى فئات متناحرة ليخلو الجو أمام تصرفات الحكام الفردية . .

والأصل فى الاسلام أن يقود الضمير الدينى عربة السياسة . . الأصل فيه أن الدين يهيمن على السياسة . .

وحين انقلب الوضع وتقدمت السياسة لتقود . . أخذت جزءا من الدين على أجزاء من الهوى وعلقت عربة المصالح فى حصان المطامع وتقدمت الأمة الاسلامية نحو الهاوية . . واحتل الغرب بلاد المسلمين بعد أن كان المسلمون يفتحون العالم فرسانا متجردين لا تجارا طامعين ، وهداة إلى الله لا جباة للجزية .

ونظر المسلمون إلى وضعهم وقرأوا قوله تعالى : (وتلك الأيام نداولها بين الناس)[1] وحركوا شفاههم واعتذروا بقولهم : قضاء الله وقدره ، كتبه علينا منذ الأزل ولا حيلة لنا فيه . .

وهكذا أخطأوا مرتين . . مرة حين نسبوا عجزهم وقعودهم وهو ذنب إلى قضاء الله تعالى وقدره . . ومرة حين تصوروا أن قضاء الله وقدره يعفيان الانسان من مسئوليته أو يشلان حريته . .

يتصور العالم الغربى اليوم - حين ينظر إلى حال المسلمين - أنهم أصحاب ديانة تدعو إلى الجبر وتخلع عن الانسان حريته . . وحقيقة الاسلام أبعد ما تكون عن هذا كله ، وهى بريئة من هذا كله . .

وهذه الرؤية فزع لها الإمام محمد عبده ولذلك يعرض الإمام محمد عبده لهذه القضية ، وهو بصدد رده على مفتريات مفكرى الافرنج الذين لا يفرقون - فى الإسلام - بين اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية ، ويردون تأخر المسلمين إلى اعتقادهم بمذهب الجبرية هذا . .

ويؤكد الإمام أن المسلمين - على اختلاف مذاهبهم - يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهب الله لهم من هذا الجزء الاختيارى ، وأن هذا النوع من الاختيار هو سبب التكليف الشرعى ، وبه تتم الحكمة والعدل . . .

ولا ينكر الإمام وجود طائفة - فيما مضى - تسمى بالجبرية ، ذهبت إلى أن الإنسان مضطر فى جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، لكنه يقول بعد ذلك : إن مذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض أرباب هذا المذهب فى أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر ، هو عين الاعتقاد بالجبر . .

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد إليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان ، وأنه

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ .

لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهرا ، فيما بعد بتقرير العزيز العليم ، وإرادة الإنسان ، إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الإرادة إلا أثرا من آثار الإدراك . . والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات[1] . ٢٢ أهـ .

ان ما جعل المسلمين يصلون إلى ضعفهم ليس هو تمسكهم بتعاليم الاسلام ، إنما تركهم للاسلام وهجرهم لتعاليمه ، ولولا ضعف المسلمين وفهمهم الخاطىء لعقيدة القضاء والقدر لكانوا هم أول من وضع أقدامه على تراب القمر ، ولكانوا هم سادة الأرض اليوم .

ان الاسلام هو دين الحرية الانسانية . . وهو دين التقدم المادى والروحى معا ، وهو دين العلم والاكتشاف والسياحة فى آفاق الكون والنفس ، وهو فى نهاية الأمر دين يؤمن بالقضاء والقدر . .

والاسلام كل واحد لا يتجزأ . . وليس شيئا يمكن تقطيعه واختيار ما يوافق الظروف واستبعاد ما عدا ذلك . . وأى فصل لحكم فى الاسلام أو استبعاده يعنى الاجهاز على تأثير الاسلام الكلى ونزع أثره من الحياة . .

ولقد أخذ المسلمون بفكرة القضاء والقدر فى جانب من جوانبها . . وتركوا فكرة الحرية الانسانية فى الجانب الآخر ، ولما كانت كلمة الاسلام تطلق على الشريعة الكلية التى نزل بها الوحى على قلب الرسول ، وتطلق على سنة الرسول كلها ، فان معنى أخذ اشياء وترك اشياء . . هو أننا لم نعد نأخذ بما أسماه الله الاسلام . .

إنما هو دين جديد ابتكرناه ابتكارا ونسجناه نسجا واضفنا إليه وانقصنا منه ، وليس اللوم على الاسلام ان هلكنا وإنما اللوم علينا . .

ما هو تعريف القضاء والقدر عند القدماء ؟ .

يرى الاشاعرة أن القضاء هو الخطة الربانية الأزلية كما علم واراد ، أما القدر فهو ابراز الكائن إلى الوجود بقدرته تعالى .

وإذن فإن رأى الأشاعرة أن القضاء قديم والقدر حادث . .

---

(١) العدد السابع من جريدة العروة الوثقى ، مايو ١٨٨٤ .

وهناك من رأى العكس ، فذهب الماتريدية إلى أن القضاء حادث والقدر قديم . .

هذا هو تعريف القدماء للقضاء والقدر . . وهو تعريف يمكن أن نقول عنه بلغة عصرنا : أن القضاء والقدر هما علم الله وارادته سبحانه كما يظهران فى صفحات الحياة اليومية للبشر .

ولقد كانت أول مسألة ظهر فيها الخلاف بين المسلمين هى مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله . .

اختلف فيها واصل بن عطاء واستاذه الحسن البصرى فاعتزله وراح يعلم اصولا لم يكن قد أخذها عنه . .

وإذن فان السؤال الذى يقول : هل الانسان مخير أم مسير ؟

هذا السؤال الذى نردده اليوم سؤال ردده الأجداد قديما واختلفوا حوله . .

انقسم القدماء أمام السؤال فرقا متعددة تجتمع تحت أصلين جوهريين . .

القائلون بالجبر

والقائلون بالاختيار

قال القائلون بالجبر ان الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها أمام الرياح . .

وقال القائلون بالاختيار ان الانسان حر وخالق لأفعاله . .

ورسم الجبريون للعالم صورة غريبة . . صورة يؤدى فيها البشر ادوارا فرضت عليهم ولا خيار لهم فيها كأدوار الممثلين ، وعلى مستوى التصوف شاعت بين الصوفيين نظرة تسوى بين آدم وأبليس ، وبين موسى وفرعون . . فكل واحد من هؤلاء كان يمثل دورا رسمته الأقدار له من قديم الأزل ، ولا حيلة له فيه . . وحين ثار من يعتقدون ان الانسان مخير . وقالوا ان الشر من عمل الانسان لا من قضاء الله ولا من فعله . . رد عليهم الجبريون يسألونهم : هل يريد الله الشر . . فلما قالوا : لا . . سألوا :

ـــ هل يقع فى ملك الله ما لا يريده ؟

وزاد من عمق الخلافات ذهاب القائلين بالاختيار إلى الطرف الأقصى فقالوا بأن الانسان حر تمام الحرية ، وتغالوا فى حريته فهو وحده خالق

أفعاله . . وهو وحده المهيمن عليها والمتصرف فيها ، ولو فعل خيرا فيجب على الله أن يدخله الجنة . . ولو فعل شرا فيجب عليه أن يدخله النار . وعلى طول التاريخ الاسلامى تصارع الجبريون والاختياريون . . وكانت حرب الجدل بينهم لا تهدأ إلا لالتقاط الأنفاس من أجل جولة جديدة . .

وكان الايمان بالجبرية هو أحد العوامل التى أدت لتخلخل الدولة الاسلامية . .

والحقيقة أن القضاء والقدر . . والحرية الانسانية . . وعلم الله السابق بالانسان . . وظروف الانسان العقلية ووجدانه النفسى . . الحقيقة أن هذا كله مرتبط متشابك معقد . . ومن الطبيعى أن علم الكلام أو علم التوحيد قد سجل لنا انقسام المسلمين إلى مذاهب متفرقة . وكان كل مذهب يؤيد دعواه بالآيات القرآنية . . الأمر الذى يؤكد أن القضية كانت قضية اختلاف فى وجهة النظر . . لا اختلاف على الأصل الثابت وزاد طول الحرب بسبب كفاءة أسلحة الفريقين ، وكان معظمها آيات من القرآن .

كان الجبريون يستشهدون بقوله تعالى : (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله ان الله كان عليما حكيما**)[1] .

وكان الاختياريون يستشهدون بقوله تعالى : (**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم**)[2] . .

والأمر المحير أن هذا الخلاف لم يدرك أن القضاء والقدر جزء من العقيدة الاسلامية . .

والعقيدة الاسلامية ـ كعقيدة يطبقها البشر ـ محكومة بقوانين النسبية وقوانين اختلاف مستويات النظر . .

ان قوله تعالى (**وقل اعملوا**) لا يتعارض مع قوله تعالى (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**) . .

ان قانون المستويات ينطبق هنا . .

من مستوى العمل المادى والخلافة فى الأرض ينبغى النظر إلى الأمر بالعمل . .

---

(١) سورة الدهر آية ٣٠ .

(٢) سورة التوبة من الآية ١٠٥ .

ومن مستوى الايمان والتسليم بالقضاء ينبغى النظر إلى ربط المشيئة الانسانية بطلاقة المشيئة الالهية . . فلا ينجح عمل لا يباركه الله بتوفيقه . . وربما فعل المسلم كل ما عليه ثم فاجأته الرياح بما لم يخطر على باله . . كأن وقع زلزال أو طوفان أو قوة قاهرة أو حال دون نجاحه أمر خارج عن ارادته . .

هنالك تصير فكرة القضاء والقدر شاهدا على جلال الله وقهره وبلسما للجراح . .

هنالك يقول المسلم (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم)(١) .

ان التسليم هنا هو الشكل العملى للايمان بالقضاء والقدر . .

وهو حكمة كبرى لأن الجزع لا يرد الخسائر . . والله وارث كل شىء ، وهو يبتلى الناس لاختبارهم ومعرفة معادنهم . . والله يعرف قبل أن يختبر الناس ، ولكنه يريد من الناس أن يعرفوا أنفسهم . .

أليس من الغريب - فى التاريخ الاسلامى - أن يصير الدواء جرحا . . ويستخدم البلسم الشافى سكينا للطعن . .

وقع هذا بسبب الأحزاب السياسية والفرق ، وبسبب الجهل والأمية الثقافية ، وبسبب الترف العقلى الذى صادف الفلسفة اليونانية فاستهوته أدوات بحثها ، رغم أن هذه الأدوات لا تصلح لمناقشة عقائد الاسلام . . وأضيف التعصب المذهبى إلى الموضوع فزاد من ثقله ، حتى وصل الأمر إلى هذا الحد . .

بعد أن كانت قضية القضاء والقدر عند المسلمين فى عصر النبى شجاعة قلبية كبرى ، واستشهادا فى سبيل الله ونشرا للاسلام . . صارت مدعاة لتخاذل المسلمين أمام أعدائهم ، وزيادة بأسهم بينهم . . وعدم تحركهم لاحراز أى تقدم فى الحياة . .

واتهمت الحضارة الاسلامية بأنها حضارة قدرية . . لا مجال فيها لارادة الانسان ولا معنى لحريته .

---

(١) سورة الحديد اية ٢٢ وجزء من اية ٢٣ .

والتهمة باطلة إذا نظرنا إلى أصل عقيدة القضاء والقدر فى الاسلام . .
وهى صحيحة إذا نظرنا لحال المسلمين السيئة .
هل الانسان مسير أم مخير ؟
هل الانسان معدة أم قلب ؟
هل صنعت الطائرة من الحديد أم من النحاس ؟
ان منطق الاسئلة الثلاثة متشابه . . .
منطق التبسيط الجائر . .

ليس الانسان معدة فقط ، ولا قلبا فحسب ، ولا عقلا مجردا ، ولا جسدا دون روح ، ولا روحا دون جسد ، الانسان تركيب رائع التعقيد ، والعلاقات بين القلب والرئتين والعقل والروح وخلايا الجسد ونخاع العظام ، هذه العلاقات موضوع أكثر من علم . . كعلوم الطب والكيمياء الحيوية وعلم النفس وعلوم الاجتماع . من الخطأ اذن أن نسأل . . هل الانسان روح أم جسد . هل هو قلب أم عقل . .

هو خطأ لأنه ممعن فى السذاجة . .

وهو يشبه سؤال طفل لوالده . . هل صنعت هذه الطائرة من الحديد أم النحاس .

لو قال الأب لطفله : ليست الطائرة مصنوعة من الحديد ولا من النحاس . انها صنعت من السبائك ، وهى خلطة من معادن كثيرة يدخل فيها الحديد والنحاس والألمونيوم . . لو قال الأب هذا لطفله ، وغضب الطفل لأن الجواب لم يأت بسيطا كالسؤال . . فليس هذا ذنب الاجابة . .

الذنب هنا هو ذنب الطفولة . .
ذنب سذاجة الطفولة . .

كان من عيوب بعض عصور الاسلام النظرة إلى الحياة على أنها تضم لونين اثنين هما الأبيض والأسود . .

والحياة أعقد من هذين اللونين وأغنى . .

تتداخل الأشياء والعلاقات فى الحياة تداخلا عميقا يوشك أن يجعل مسألة القضاء والقدر بحرا تغرق فيه العقول . .

ولهذا المعنى الدقيق أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إذا ذكر القضاء فأمسكوا . . والقدر سر الله فلا تفتشوا عنه ، وهو بحر لا تغرقوا فيه » . .

يقصد الرسول معنى خطيرا بقوله . .

ان للقضاء والقدر بناء فوقيا يتصل بارادة الله ومشيئته وعلمه . .

وان للقضاء والقدر بناء تحتيا يتصل بفعل الانسان وكسبه وحركته . .

البناء الفوقى بالنسبة إلينا مجهول . . لا نملك الخوض فيه بوسائلنا البشرية ولا بعقولنا . . ليست لدينا أدوات البحث فى هذه المنطقة . . أما بالنسبة للبناء التحتى أو الناس . . فنحن نملك التصور القائم على المنطق . . ونملك أن نقوم بسياحتنا فى التاريخ لنقرأ سطوره . .

قبل الاسلام . . كان للعرب موقف فكرى من قضية الجبر والاختيار . .

كان العرب جبرية يقولون بالجبر . . ثم جاء الاسلام فغير هذا الموقف ، وقرر الحرية والاختيار للانسان . . روى عن الحسن البصرى أنه قال :

« ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة ، يحملون ذنوبهم على الله ، ويقولون ان الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه ، وحملنا عليه ، وأمرنا به ، فقال عز وجل : (**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل : ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون**)[1] .

هذا النص يقطع بانتصار الاسلام لحرية الانسان واختياره ، ووقوفه ضد الجبرية ، وذلك قبل تفتح الثقافة الاسلامية والحضارة العربية على الثقافات والحضارات الأخرى ، وقبل أن ينشأ فى الفكر الاسلامى علم الكلام .

يروى عن الرسول أن رجلا سأله : متى يرحم الله عباده .

قال صلى الله عليه وسلم : ما لم يعملوا المعاصى ثم يقولوا انها من الله . .

وسأله بعض الصحابة يوما : فلأى شىء نعمل ، وقد فرغ الأمر . .

قال صلى الله عليه وسلم : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . .[2]

---

(١) سورة الاعراف آية ٢٨ .

(٢) حديث صحيح رواه الطبرانى عن ابن عباس .

بمعنى أن ما كتب على الانسان وعلم من أمره لا يخرجه عن أنه حر ميسر له سلوك الطريق الذى يريد ويختار . .

روى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن بعض الناس قالوا له :

يا أبا عبد الرحمن ، ان قوما يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون كان فى علم الله ، فلم نجد بدا منه . .

وغضب عبد الله بن عمر وقال : سبحان الله العظيم . . قد كان ذلك فى علمه أنهم يفعلونها ، ولم يحملهم علم الله على فعلها ، حدثنى أبى عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى اقلتكم . . فكما لا تستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله عليها » .

القضاء والقدر عقيدة من عقائد الاسلام . . هذه العقيدة ليست تجريدا مطلقا . . إنما هى عقيدة تتصل بالانسان ، وكل ما اتصل بالانسان لا بد من النظر إليه فى موقف ان أردنا تحليل هذا الموقف . . وأى موقف ظاهرة انسانية لا بد من خضوعها عند التحليل إلى قوانين النسبية واختلاف المستويات .

بهذا المنهج تنحل مشكلة القضاء والقدر فى جانبها المتصل بالانسان .

لا تعود لغزا تتصارع تحت رايته مذاهب تقنعك كلها وتتعارض كلها وتستخدم كلها آيات القرآن للاقناع والمعارضة . .

ان هناك معيارا سهلا لذلك . . هناك أشياء يعرفها الانسان وأشياء لا يعرفها . .

أشياء يفهمها وأشياء لا يفهمها . . أشياء يقدر عليها وأشياء لا يستطيعها . .

الانسان حر فيما يعرف ويفهم ويقدر . . مجبر فيما لا يعرفه ولا يفهمه ولا يستطيعه . .

عظمة الانسان أنه مخير ومسير . . حر ومجبر . . عظمة الانسان أنه يجمع كونا بأكمله فى ذاته ، ويتعرض لآلاف المواقف أثناء حياته على الأرض . . أحيانا يكون مسيرا . . وأحيانا يكون مخيرا ، وكثيرا ما تتداخل

حريته مع جبره . . وتتعدد الألوان ويهيمن عليها كلها قانون واحد . . قوله سبحانه وتعالى : (**ان الله لا يظلم مثقال ذرة**)[1] .

هذا معناه أن الناس لن تحاسب إلا على هذا الخيط الرفيع من حريتها ، لو افترضنا حريتها خيطا رفيعا . .

ومن أجمل ما قيل حول القضاء والقدر . . هذا السؤال :

ـــ هل يعرف الانسان ما كتبه الله عليه . . ؟

الجواب أنه لا يعرف . .

وإذن فهو حر . . ليس مقيدا بشيء . . يستطيع أن يتغير . .

تغييره هذا مكتوب هو الآخر . . فلا شيء يخرج من علم الله سبحانه ولا شيء فى نفس الوقت يحد من حرية الانسان . .

ان موقف القرآن الكريم من مشكلة حرية الارادة واضح تمام الوضوح . .

● هناك نص يؤكد غيبية أفعالنا المستقبلة . (**وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا**)[2] . .

● وهناك نص يؤكد قدرة الانسان على أن يحسن أو يفسد نفسه الداخلية (**قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها**)[3] .

● وهناك نص يؤكد أن أقوى دعوات الشر اغراء ليس لها السلطان على الارادة الانسانية ، ما لم تنبعث هذه الارادة لتلقيها . .

يحدثنا الله تعالى أن الشيطان يقول يوم القيامة لأتباعه (**وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم**)[4] .

هذه الآيات كلها . . إلى جوار آيات القرآن التى تقطع بادانة الشر وازدرائه والتخويف من تبعته الثقيلة .

هذه كله يقطع بحرية الانسان وارادته . . لأن الله لا يمكن أن يجبر

---

(١) سورة النساء من الآية ٤٠ .

(٢) سورة لقمان من الآية ٣٤ .

(٣) سورة الشمس آية ٩ و ١٠ .

(٤) سورة ابراهيم الآية ٢٢ .

أحدا على فعل ثم يعاقبه على نفس الفعل بعد ذلك . . والله تبارك وتعالى أعدل العادلين . .

هذا هو المستوى الأول فى النظر إلى موضوع حرية الانسان وارادته غير أن هناك مستويات أخرى فى النظر إلى الموضوع . .

ماذا يحدث لو وقع اكراه على ارادتنا . .

سواء كان هذا الاكراه ماديا أم معنويا ، قادما من الخارج أم نابعا من كياننا العضوى ذاته . .

ان صور الاكراه متعددة ومختلفة . . نعرف أن العقل هو مناط التكليف . . والعقل يتكون نتيجة ظروف البيئة والثقافة والمؤثرات الحضارية والعقل الجماعى والقيم السائدة ، كما يتكون نتيجة عوامل الوراثة التى قد تحمل فى طياتها قوة خاصة أو ضعفا معينا . . ثم ان ما يقع للعقل من مؤثرات قد يكون قمة فى التعقيد ، بحيث تصبح دواعى الأخذ مساوية لدواعى الترك . .

هذا كله يجعلنا نتساءل . .

ما هو مدى حرية الانسان هنا . . ؟

من هذا المستوى الثانى نواجه موضوع القضاء والقدر .

ان الله قد خلق كل طاقات الكون وقواه ، طبقا لتدبير سابق ، بما فى ذلك ارادتنا . . الله هو الذى خلق الطاقة التى تحرك الارادة . . وهو سبحانه يعلم مسبقا كيف ستعمل كل هذه القوى ، وما الأحداث التى ستنتج عن عملها . . وكل ما يوجد فى الكون مخلوق لله . .

ان حرية الانسان تتضاءل فى هذا المستوى . .

نحن لم نعد فى مستوى التكاليف الشرعية ، لم نعد فى مستوى الواجبات المفروضة . . نحن نرتفع إلى مستوى ننظر منه إلى البشر . .

تركنا مواقع البشر ولم نعد ننظر منها . من هذا المستوى الجديد سنرى أن ارادة الانسان تشبه قلبه . . وذكاءه . . وبيئته . . وهذه كلها ليست سوى أدوات بين يدى الله . . نوع من اللجام الذى يقودنا به كما يشاء . . اقرأ قوله تعالى : (**كذلك زينا لكل أمة عملهم**)[1] .

---

(١) سورة الانعام الآية ١٠٨ .

وقوله عز وجل : (واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه)[1] .

هذه الآيات كلها لا تنفى حرية الانسان النسبية . .

يقدم القرآن الكريم مبدأ عاما يقول : (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[2] .

صحيح أن الله يحكم ارادتنا . . صحيح أن الله خلق طاقتنا على الفعل . . وصحيح أنه أحاط أفعالنا بسياج من المؤثرات التى لم نخلقها ولا نستطيع التحكم فيها . .

هذا كله صحيح . . ويبقى صحيحا أيضا أن الله خلق فى الانسان قدرة على توجيه الطاقة . .

ان الطاقة من خلق الله . . لكن توجيه الطاقة من فعل الانسان ، هى كسب انسانى يستطيعه الانسان ، ولولاه ما كانت الجنة ولا النار ولا الرسل ولا الآخرة ولا الحساب .

وسواء أشعر قلبنا بالفرح أم بالانقباض لمعرفة الحقيقة ، أم لممارسة الفضيلة ، وسواء ضل عقلنا أم اهتدى ، وسواء توجهت أحكامنا نحو الخير أم نحو الشر ، فاننا حين نقرر أن جميع هذه الآثار تحدث فينا بواسطة قوة عليا ، فاننا نجد فى نفس الوقت أن سوابقها تصدر عن ارادتنا . . نحن الذين نبدأ بالاتجاه إلى النور أو التحول عنه . . نحن الذين نبدأ باضاءة عقلنا أو طمسه . .

ان الله قد سمح لعباده بالحرية . . غير أنه لم يطلق هذه الحرية فوضى بغير ضابط . . أحاط الله قدرتنا على الاختيار بجهاز قوى ومعقد تتفرع عنه كل قراراتنا . . وهذا الجهاز يتألف من الحواس والذوق والقيم الروحية ، كما يضم تلك الرؤية الداخلية التى هى الضمير ، وذلك النور الخارجى القادم من وحى السماء أو حديث الرسول . وكل قرار حسنا كان أم سيئا ، هو أشبه بعملية انفاق من ذلك الكنز العظيم الذى أودعه الخالق رهن تصرفنا فى الفطرة . .

---

(١) سورة الانفال الآية ٢٤ .

(٢) سورة الرعد الآية ١١ .

نعرف الآن من تقدم الحياة أن الانسان يولد وهو يحمل خبرات أسلافه جميعا فى نفسه . . ثمة كنز خفى خلقه الله داخل كل انسان منا . . كنز ربما لا يدرى الانسان أنه موجود داخل نفسه . .

المشكلة كلها تكمن فى العثور على هذا الكنز واستخدامه . . عندما نعثر عليه لا يعود القضاء والقدر مشكلة محيرة . . إنما يصير نعمة كبرى ورحمة شاملة ودواء لجراح النفس والقلب والجسد . .

يتساءل د . محمد عبد الله دراز فى رسالته للدكتوراه عن أخلاق القرآن :

« المسألة التى يجب علينا أن نعرفها ، والتى تفرقت المدارس الاسلامية بصددها بطريقة واضحة هى : عندما يطلب الله منا أن نستخدم قدرتنا على الاختيار . . بعد أن يكون قد وضع رهن تصرفنا هذه الموارد العامة والخاصة . . هل يتخلى الله عنا تماما . . ألا يتدخل لمصلحة جانب على جانب . . فيوجه مؤشر نشاطنا ويحدد حركته فى اتجاه أو آخر . . دون أن نحس به مطلقا . .

يعتقد د . دراز أن هذه هى المسألة التى لم يفصح فيها القرآن عن نفسه بطريقة واضحة وكافية ، بل يبدو أنه قد التزم من هذا الجانب نوعا من الحذر المقصود . . ذكر له الاجابة فيما بعد (**قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين**)[1] .

ويخالف الدكتور حسن صالح العنانى ـ رحمه الله تعالى ـ الدكتور دراز فى هذه الفقرة الأخيرة ، ويرى أن من الخطأ البالغ اتهام القرآن بالغموض ، وهو يندهش كيف جرى قلم الدكتور دراز رغم فضله وعلمه بهذه العبارات ، اللهم إلا إذا كان يقصد بحث الكيفية التى تعمل بها المشيئة الالهية فى المخلوقات ، وتلك قضية لا يخطر ببال أحد أن تكون موضع بحث أو تفصيل . . لأنها من الحقائق العليا التى تتعلق مباشرة بصفات الله . .

أما آثار المشيئة ، وهى ما نرجح أن يكون المؤلف يعنيه ، فقد وضح القرآن موقفه منها توضيحا كافيا . . ويستنكر د . حسن صالح العنانى هذه العبارة التى بدأ بها د . دراز اسئلته . .

---

(١) سورة الانعام آية ١٤٩ .

ـــ هل يتخلى الله عنا تماما . . ؟

ويسأل د . صالح العنانى :

ـــ هل يبقى شىء من الوجود لأى موجود إذا تخلى الله عنه . . ؟

ان الله تبارك وتعالى لا يتخلى عنا لحظة واحدة . . وهو سبحانه يتدخل دائما لمصلحة الانسان ونفعه ونجاته . .

يقول تعالى : (ولولا فضل الله ورحمته عليكم ما زكى منكم من أحد) .

. . . .

. . . .

أنوار العقل وحدها لا تستطيع اكتناه سر القضاء والقدر . .

نحتاج هنا إلى أنوار من لون آخر . . أنوار ليست مادية . .

ان القضاء والقدر يصدران من الله . . كما يتصلان بالانسان . .

ما صدر من الله تعالى لا تصلح أنوار العقل وحدها لاكتشافه .

أما الجزء المتصل بالانسان فللعقل أن يعمل فيه ويكتشف ويحاول الفهم . .

وغاية جهد العقل أن يفهم ويعرف . .

وليس الفهم وحده هو المطلوب من المسلم . . كما أن المعرفة العقلية ليست بمفردها هى الغرض النهائى لوجود المسلم . .

ثمة آفاق وراء آفاق الفهم والمعرفة . .

ثمة مستويات أخرى تعلو على الفهم المجرد أو المعرفة العقلية . .

نتحدث عن الحب . .

بغير الحب يصعب علينا تفسير القضاء والقدر . .

وبغير الحب يصير القضاء والقدر لغزا لا أمل فى حله .

ان العقل يمكن أن يتساءل أسئلة محيرة . . وهذه مهمة العقل ووظيفته . .

غير أن العقل وحده . . بأنواره المحدودة . . لا يصلح لغير الحياة على

الأرض ، وتقدمه فى مجال يتصل بحكمة الله تعالى ـ كالقضاء والقدر ـ لا يؤدى إلى نتيجة نهائية . . إنما يصلح العقل لاستكشاف الطريق ، أو يصلح لتصويب الاتجاه فى البداية . . يقول جلال الدين الرومى .

« ان العقل فى بداية الأمر يكون استاذا للمرء . . ولكنه بعد ذلك يصبح تلميذا له » .

ومتى أصبح العقل تلميذا تقدم الحب وجلس على عرشه . .

وإذا كان شأن العقل أن يبحث ويسأل ويتطلع ولا يتوقف عن الاسئلة . .

فإن شأن الحب هو الطاعة العذبة والاستسلام المحض . .

أو فلنقل ان شأن الحب هو اختيار ارادة المحبوب . .

وبدلا من أن نسأل « هل الانسان مسير أم مخير . . » .

تتحول القضية إلى سؤال آخر « كيف يصير الانسان بلا ارادة أمام ارادة الله » . .

كيف يختار الانسان أن يكون مجبورا مثل ريشة تلعب بها مياه البحر ؟ . .

كيف يتحول الانسان فيصير هو البحر والريشة والرياح والتيار والموج والشاطىء . .

ان هناك مستويات للنظر إلى عقيدة القضاء والقدر فى الاسلام . .

أولها أن يعلم الانسان أنه حر ومسئول أمام الله . . وأن يعلم ان حريته تخضع لمشيئة الله المطلقة النافذة . .

أن شاء سمح بالتقوى . . وان شاء يسر الطريق للغواية . .

لا يسأل لماذا شاء لموسى أن يكون موسى ، ولا يسأل لماذا شاء لفرعون أن يصير فرعون . . لا يسأل لماذا اختار محمدا رحمة للعالمين ، وترك أبا لهب نقمة على عصره . . لا يسأل لماذا هدى انسانا وأضل آخر . لا يسأل عن شىء مما يفعل ، لأنه خالق الأشياء وصاحبها ومالكها والمتصرف فيها . . وهو قد أصدر أوامره الواحدة لموسى وفرعون ومحمد عليه الصلاة والسلام وأبى لهب . . أطاع موسى وعصى فرعون ، وارتفع رسول الله وهبط أبو لهب . . وقبل هذا كله أخطأ آدم واخطأ ابليس . . وتاب آدم واحتج ابليس بالقضاء والقدر . .

(قال أنا خير منه . .) سورة ص من الآية ٧٦ .

كانت كلمته كبرياء بحتا ، وعصيانا لأمر الله . . أيضا كان فى كلماته ما يؤكد أنه يحتج على القضاء والقدر .

(قال فبما أغويتنى) سورة الأعراف من الآية ١٦ . . أنه يسند الغواية إلى الله عز وجل ، ويحمل تبعة اخطائه على الخالق ، وهذا سوء أدب مع الله . . واصرار على تحدى الخالق . .

يختلف هذا الموقف عن موقف آدم . . فقد اعترف بظلمه وسأل المغفرة وتوسل إلى الرحمة . . (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) سورة الأعراف آية ٢٣ . .

ولهذا قال العارفون بالله « اثنان أذنبا ذنبا ، ابليس وآدم ، أما آدم فتاب فتاب الله عليه واختاره وهداه ، وأما أبليس فأصر واحتج بالقدر ، فمن تاب من ذنبه كان يشبه أباه آدم ، ومن أصر واحتج بالقدر صار يشبه ابليس » . .

حرية الانسان موجودة وقائمة ولكنها تتحرك داخل اطار المشيئة الالهية .

قال تعالى : (لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) سورة التكوير آية ٢٨ و ٢٩ .

مشيئة الانسان متوفرة وموجودة ، ومشيئة الله مهيمنة وحاكمة ومحيطة . .

هذا هو أول مستوى فى النظر إلى القضاء والقدر . .

وثمة مستوى آخر هو مستوى الحب . .

مستوى اختيار الجبر . .

ان الايمان بالله يشبه جبلا يصعده المرء . . وقمة الايمان هو الاسلام كما كانه سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مع الله بلا ارادة . . بتحديد أكثر . . كانت ارادته هى ارادة الله . . وكان إذا رمى كشف له الله عن حقيقة ما حدث (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) سورة الانفال من الآية ١٧ .

اختار سيد الخلق ان تذوب ارادته فى مشيئة الله . . وصار يتحرك بالله ، ويسكن فى الله ، ويحب فى الله ، ويكره فى الله . . « بمعنى يكره ما أراد الله كراهيته » . . صار الله هو السبب وراء كل ما يفعل أو يدع . صار عبدا ربانيا يكمن شرفه العظيم فى قول الله عنه .

(**سبحان الذى أسرى بعبده**) سورة الاسراء من الآية ١ .

لم يقل ربنا سبحان الذى اسرى برسوله ، أو اسرى بنبيه . . لم يستخدم الحق عز وجل صفة النبوة ولا صفة الرسالة ، إنما ذكر أعلى الصفات وأشرفها . .

صفة العبودية . .

فى هذه الصفة يقف الحب على عرشه ويتحكم فى نبضات القلوب وأحلام العقل وحركة الجوارح . .

ولو نظرنا فى قصص الأنبياء فسوف نرى أنهم كانوا جميعا مسيرين . . اختاروا أن يكونوا مجبرين . . وهذا الجبر هو عين الحرية لأن الحرية الحقيقية تعنى الخروج من كل سلطان غير سلطان الله .

وهذه هى العبودية الحقيقية لله . .

ان ابراهيم عليه السلام كان يحب ولده اسماعيل فقد رزقه على كبر ، وكان الابن كريما ومن انصالحين ، ورغم ذلك فقد ارقده يوما على الأرض ورفع يده بالسكين وهم أن يهبط بها على عنقه .

لقد رأى فى المنام أنه يذبحه . . ورؤيا الأنبياء أمر من الله . . وأمر الله حق . .

ولقد كانت رؤيا ابراهيم امتحانا شديدا وبلاء عظيما . تأمل تعبير النص القرآنى : (**ان هذا لهو البلاء المبين**) سورة الصافات آية ١٠٦ .

كان الله تبارك وتعالى يخرج كل حب غير حبه من قلب ابراهيم .

كان يمتحن عبده ويعلمه الدرس النهائى والقيمة العليا فى حياة الانسان . . كان يعلمه حب الله عز وجل . . وحين أخرج ابراهيم كل ما سوى الله من قلبه . .

حين أخرج ابراهيم ابنه من قلبه . .

حين استسلم للقضاء والقدر وأطاع المشيئة الالهية . .

عندها وقعت المعجزة وتغير القضاء والقدر بأمر الله وعلمه السابق ورحمته العليا . .

(**وفديناه بذبح عظيم**) سورة الصافات آية ١٠٧ .

يفهم من هذا ان ابراهيم كان مع الله بلا ارادة . . كان مجبرا باختياره . .

كانت ارادة الله هى ارادته . .

ولهذا استحق ان يقول الحق عنه فى كتابه الكريم .

(**واتخذ الله ابراهيم خليلا**) سورة النساء الآية ١٢٥ .

قال العلماء ان الخلة هى شدة المحبة . .

واذن . . فقد اتخذ الله ابراهيم حبيبا . . وكان ذلك حين اخرج ابراهيم من قلبه السوى . . والغير . .

كل ما سوى الله أو غيره . .

كان هذا موقف ابراهيم . . اختار الجبر . . فكرمه اختياره . .

وعلى النقيض كان موقف يونس . . اختار يوما بغير رجوع إلى الله ، خرج يوما من الجبر باختياره . .

(**وذا النون إذ ذهب مغاضبا**) سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

لم يستسلم للبقاء مع قومه وخرج غاضبا عليهم وقرر هجرهم . .

كان يونس يستخدم حريته وإرادته ساعتئذ . . نسى أنه نبى وليس له أن يختار . .

ومثلما كان ثواب ابراهيم جليلا كان عقاب يونس رهيبا . .

عوقب على خروجه من الجبر بسجنه فى جوف حوت . . وجرى الحوت فى جوف البحر ، وأطبقت ظلمات ثلاث . . ظلمة الليل والندم ، وظلمة قاع البحر ، وظلمة جوف الحوت . .

ولولا تسبيحه ما انفتحت أبواب سجنه . . (**فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**) سورة الأنبياء من الآية ٨٧ .

وخرج يونس من سجن الاختيار وعاد إلى طلاقة الإرادة الإلهية ومثل بقية الأنبياء يختار الشهداء والأولياء الجبر . .

يقول محمد اقبال « أن جبر خالد بن الوليد أحدث إنقلابا فى العالم . . أما الجبر بالنسبة لنا فقد اقتلعنا من جذورنا » .

هذا البيت الشعرى يمثل المستوى الرفيع فى فهم قضية القضاء والقدر . .

لقد فهم خالد بن الوليد القضاء والقدر فهما عميقا تأسى فيه بالأنبياء .

ولهذا أحدث انقلابا فى العالم . . لقد صار خالد سيفا من سيوف الله فى الأرض . . اختار أن يصير أداة فى يد القدرة ، ومجاهدا فى الله ، اختار أن يقاتل أعظم القتال فى سبيل العقيدة ، وآذى مشاعره وهو يموت أنه يموت على فراشه كما يموت البعير . .

وكانت اشارته للجروح فى جسده اشارة جليلة إلى جرح روحه لأنه وهو سيف الله . . لم يلق نحبه فى معركة . .

كان خالد بن الوليد حرا تمام الحرية . .

كان خالد حرا إلى الحد الذى فنيت فيه حريته فى إرادة الخالق ومشيئته ، ولهذا كان جبر خالد بن الوليد هو جبر الأقوياء . .

جبر رجل يعرف ان الله هو (**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**) سورة الملك من الآية ٢ .

جبر رجل أحب الله قبل أن يحب الحياة . .

رجل أحب الموت فوهبت له الحياة . .

. . . .

. . . .

أما جبرنا نحن . .

أما نظرتنا المعاصرة للقضاء والقدر فقد اقتلعتنا من جذورنا .

جبر المسلمين اليوم استسلام للحياة لا استسلام لله . .

استسلام لحب الحياة لا لحب الله .

وعلى عكس أيام خالد بن الوليد . . تركنا القتال خوفا من الموت . . فعرفنا الموت ونحن أحياء . . وبدلا من أن تصير الأمة الإسلامية سيفا من سيوف الله فى الأرض . . صارت تضع أخطاءها على القدر وتحمله تبعة ما هى فيه من مأساة . .

وعاد السؤال القديم يبرز من جديد . .

هل نحن أحرار أو مجبرون ؟

ان إجابة السؤال تدخل بنا مياه البحار الغريقة للسياسة . .

نحن مجبرون للهوى وللأنظمة الداخلية والتقاليد الجاهلية والفلسفات الخارجية ، نحن مجبرون لقوى بشرية لا تؤمن بالله ولسنا مجبرين لله . .

ولهذا لم نعرف بعد الحرية . .

إن المفهوم الحقيقى لعقيدة القضاء والقدر فى الإسلام ، يجعل هدف المسلم أن يوظف حريته لتصير عبودية لله . . عندئذ فقط يستطيع أن يحصل على حريته الحقيقية . . وعندئذ يستطيع أن يصير صفحات مضيئة فى كتاب القضاء والقدر . . بدلا من هذه الصفحات السوداء التى نكتبها ونقول :

« كتبت علينا منذ الأزل » . .

بينما القلم فى أيدينا . . والمداد لم يجف بعد .

أحـــديـــة الله

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . نظر المشركون إلى أمر الإلوهية بعقولهم البشرية القاصرة ، وقاسوا وجودها المطلق على وجود الإنسان المحدود . . وتوهموا أن لله نسبا كما للإنسان نسبا . . عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم :

أنسب لنا ربك . .

فنزلت سورة الاخلاص .

السورة من أقصر سور القرآن . .

عدد آياتها أربع . . وعدد كلماتها ١٥ . . ورغم أن القرآن كله لا يضم سورة أقصر منها غير سورة الكوثر . . رغم هذا كله قال صلى الله عليه وسلم أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن . .

وسر ذلك يسير . .

ان سورة الاخلاص تضع قواعد التوحيد الأساسية بآياتها الأربع ، وتبين أصول التصور الإسلامى فى حق الله عز وجل . . وتنزهه عن مشابهة خلقه ، وتبين تعاليه على القوانين الحاكمة لهؤلاء الخلق . .

تبدأ السورة بكلمة من حرفين :

(قل)

هذا أمر موجه من رب العالمين إلى رسوله صلى الله عليه وسلم . .

ومن بعد الرسول يستمر الأمر موجها إلى كل إنسان . . قل لمن سألك أن تنسب ربك . . .

(قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد)[1] .

---

(١) سورة الاخلاص .

(قل هو الله أحد .)

ينفرد الله سبحانه وتعالى بأحديته فى الوجود والحكم انفرادا لا مثيل له فى انفراد أحد بالوجود والحكم . .

هو الموجود الأحد . . وهو الخالق الأحد ، وهو المالك الأحد ، وهو المدبر الأحد . . الأحد بمعنى الواحد والأول . لا ثانى معه سبحانه ، ولا معقب على حكمه سبحانه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا مثيل له فى تدبيره وانفراده ، ولا كفؤ له فى جلاله وبهائه ، ولا نظير لكبريائه وتعاليه . .

قل هو الله أحد . .

هذه هى الكلية الأولى فى توحيد الله . .

لم تقل الآية الكريمة أن الله واحد . . أشارت إلى أنه واحد وتجاوزت ذلك إلى تخصيصه بأنه الأحد . .

والأحد هو الذى لم يزل قبل الخلائق متوحدا بالأزل ، لا ثانى معه ولا خلق . . ثم أبدع الخلق فكان الخلق ثانيا ، وخلق الخلق كله ، محتاجا بعضه إلى بعض ، ممسكا بعضه بعضا . . واستغنى عز وجل عن الخلائق فلم يحتج إلى شىء ، ولا ناوأه شىء . . إنما هو السابق الأول الذى كان قبل كل شىء . والواحد من العدد فى الحساب ليس قبله شىء ، والأحد اسم أكمل من الواحد ، لو قلت : فلان لا يقوم له واحد ، لجاز فى المعنى أن يقوم له اثنان أو ثلاثة أو أكثر . . وإذا قلت : فلان لا يقوم له أحد ، فقد قطعت أنه لا يقوم له أى عدد مهما زاد . فصار الأحد أكمل من الواحد . . والأحد تمنع من الدخول فى الحساب . . كالضرب والطرح والقسمة والجمع وغير ذلك ، أما الواحد فداخل فى الحساب منقاد للعدد . .

تأمل سر التعبير المعجز فى الآية (قل هو الله أحد) . .

. . . .

(الله الصمد) . .

الصمد صفة من صفاته عز وجل . . وهى تعنى السيد الذى لا سيد معه ، وهى تعنى السيد المتناهى فى السيادة ، وهى تعنى صاحب السؤدد ، وهى تعنى السيد المقصود فى حوائج الخلق . . وهى تعنى السيد المطلق الذى بيده ملكوت العطاء كله . .

والفرق بين سيادة الخلائق وسؤدد الله عز وجل ان الخلائق تعطى مما أعطاها الله ، وينفد عطاؤها عند حد معين ، أما الصمد سبحانه وتعالى فيعطى من خزائن العطاء التى لا تنضب ، ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى : « يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا » .

هذه هى القاعدة الثانية من قواعد التوحيد . . أن « **الله الصمد** » . . القاعدة الثالثة أنه سبحانه « **لم يلد ولم يولد** » . .

تعالى على أن يلد . . وتعالى على أن يولد . . لأنه ما من شىء يولد إلا وسيموت . .

وما من شىء يموت إلا سيورث . . والله يتعالى سبحانه على هذا كله . .

يصحح النص القرانى هنا عقائد الذين قاسوا جلال الألوهية على القوانين البشرية . . يقول الحق تعالى للإنسان أنك تولد وتلد . . وتموت وتورث . . وكل شىء فى الكون يخضع لدورة الميلاد والنمو والانحلال والموت . . وهذا كله جائز فى حق البشر والخلائق . . أما خالق البشر والخلائق فلم يلد ولم يولد . .

وجود الله قديم قديم . .

يمتد فى الأزل من قبل أن يخلق الأزل . .

يمتد فى الزمان من قبل أن يخلق الزمان . .

يهيمن على المكان من قبل أن يخلق المكان . .

لا وجود قبله سبحانه غيره سبحانه . .

كان الله قبل أن يوجد القبل والبعد والزمان والمكان . .

هو الأول . . وهو الآخر . .

خرج الوجود بكلمة منه سبحانه . .

وسيذوب الوجود بكلمة منه سبحانه . .

ثم يعيد بعث الوجود بكلمة منه سبحانه . .

أحيانا يفكر العقل الانسانى فى هذا الأزل الغامض الذى كان قبل أن يوجد الكون .

أحيانا يفكر العقل بالدهشة فى الله قبل خلقه للكون . . كيف كان سبحانه . . ماذا كان يدبر سبحانه . . ؟

لن يعود العقل من سياحته بغير مزيد من التحير والدهشة . .
لا جواب عن هذه الأسئلة ولا أمثالها . .
عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . .
قال : أوجدتموه ؟
قالوا : نعم .
قال : ذلك صريح الايمان . .
لم يسألهم عما وجدوه فى أنفسهم . .
كان صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم فى الحكمة ولا فخر ، وأستاذا لا مثيل له بين أساتذة النوع الانسانى . . وقد علم صلى الله عليه وسلم أن الشيطان لا بد أن يسهم ببعض الوسوسة فى هذا المجال . . فقال عليه الصلاة والسلام فى رواية أخرى : الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة . .
تمضى سورة الاخلاص بعد ذلك فى بيان القاعدة الرابعة من قواعد التوحيد (**ولم يكن له كفوا أحد**) . .
بعد أن تحدثت السورة عن أحديته وصمديته وتعاليه على قوانين البشر الذين يلدون ويولدون . . توجت السورة هذا كله بالقاعدة الأم من قواعد التوحيد . . (**ولم يكن له كفوا أحد**) . .
تنفى الآية عن الله وجود كفء له . .
لا أحد كفؤ له . .
لا أحد . .
مثلما بدأت الجملة الأولى تقول : (**هو الله أحد**)
انتهت الجملة الأخيرة بقوله (**ولم يكن له كفوا أحد**) . .
سبحانه وتعالى على الشبيه أو النظير أو المعادل . .
سبحانه وتعالى على كل شئ . .
الوجود كله بملائكته ونجومه وأكوانه وأراضيه وسماواته عبد . .
كل شئ فى الوجود عبد سر شرفه كامن فى ذل عبوديته . .
(**ليس كمثله شئ وهو السميع البصير**)[1] . .

---
(١) سورة الشورى الآية ١١ .

رحمـــة الله

بحار الرحمة الالهية بلا ساحل . .

ليس لها ابتداء وليس لها انتهاء . .

هى بحار بلا قاع ولا قرار ولا شاطىء . .

لا يأخذ منها الخلق إلا بمقدار ما يأخذ الطفل من مياه المحيط فى حفرة حفرها إلى جوار الشاطىء . .

تأمل صور الرحمة الإنسانية على الأرض . رحمة الآباء بالأبناء ، ورحمة العاشقين بمن يحبون ورحمة الأخلاء بالأصدقاء ، ورحمة الإنسان بالحيوان . . ورحمة الحيوان بالحيوان . .

تأمل هذا كله خلال تعاقب الأيام والعصور وتتالى القرون والدهور . . تصوره منذ خلق الله الأرض إلى أن يرث الأرض . .

هذه الرحمة الهائلة كلها جزء من مائة جزء خلقه الله ، واحتفظ لنفسه بتسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن هذا الجزء تتراحم الخلائق ، حتى لترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » . .

لا حدود لرحمة الله عز وجل . .

ومن الخطأ أن تقاس عليها الرحمة البشرية أو تقارن بها . .

رحمة الإنسان سجينة فى حدود طاقته المحدودة وهى مقيدة على قدر عطائه الذى ينفد ، وهى لا تسع إلا قدر ما يسعه احتمال عقله وعطاء قلبه ، وهى مثل الإناء إن امتلأ فاض ولم يعد يقبل المزيد . .

وما أسرع ملل الرحمة الإنسانية . .

أما الرحمة عند الله فأفق أعلى من أن يستشرف وعمق بلا قاع ، هو سبحانه الذى وسع كل شىء رحمة وعلما .

يصلى له الملائكة بقولهم (**ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم**)[1] .

ويقول عز وجل فى صفة رحمته (**ورحمتى وسعت كل شىء**)[2] .

يقول العارف بالله « المحاسبى » . .

عرفت رحمة الله طريقها إليك قبل أن تولد . .

كنت ذرة فى صلب أبيك آدم حين تعرف الله إليك ، وأشهدك على إلوهيته فشهدت ، وأخذ عليك عهده فأقررت .

قال تعالى : (**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . . قالوا بلى شهدنا**)[3] .

يقول المحاسبى فى كتابه « الرعاية لحقوق الله » . .

تعرف الله إليك قبل أن تولد فعرفته ، وتجلى بنعمه عليك لك فشهدته ، وألهمك الاقرار بربوبيته فوحدته ، ثم أنه جعلك نطفة مستودعة فى الأصلاب فتولاك بتدبيره هناك حافظا لك ومحافظا عليك ، موصلا لك المدد بلطفه وكرمه من الآباء إلى أبيك آدم ، ثم قذفك فى رحم الأم فتولاك برحمة التدبير ، وجعل الرحم لك أرضا يكون فيها نباتك ، ومستودعا تنشأ فيها حياتك ، ثم جمع بين النطفتين وألف بينهما فكنت ترجمة لسر الازدواج الذى أنبنى عليه الوجود كله ، ثم جعلك بعد النطفة علقة مهيأة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه ، ثم بعد العلقة مضغة ، ثم فتق سبحانه فى المضغة صورتك ، وأقام فيها بنيتك ، ثم نفخ فيك الروح بعد ذلك ، ثم غذاك بدم الأم فى رحم الأم فأجرى عليك رزقه من قبل أن يخرجك إلى الوجود ، ثم أبقاك فى رحم الأم شهورا حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ، ليهيئك إلى البروز إلى ما قسم لك أو عليك ، وليبرزك إلى دار يتعرف فيها بفضله وعدله ورحمته إليك ، ثم أنزلك إلى الأرض فعلم سبحانه أنك لا تستطيع أن تتناول الطعام

---

(١) سورة غافر الآية ٧ .

(٢) سورة الاعراف آية ١٥٦ .

(٣) سورة الاعراف آية ١٧٢ .

الخشن ، وليس لك أسنان تستعين بها على ما تأكله ، فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف . ووكل بهما منبع الرحمة التى جعلها فى قلب الأم ، فكلما وقف اللبن عن البروز استحثته الرحمة التى جعلها لك فى الأم منبعا لا يفتر ، ثم إنه شغل الأم والأب بتحصيل مصالحك والرأفة عليك والرحمة لك والمودة . . وما هذا كله إلا رحمته ـ هو ـ ساقها للعباد فى مظاهر الآباء والأمهات تعريفا بالوداد ، وفى حقيقة الأمر ما كفلتك إلا ربوبيته ، ولا حضنتك إلا ألوهيته ، ثم أنه ألزم الأب القيام بك إلى أن تبلغ وأوجب عليه ذلك رأفة منه بك ، ثم رفع التكليف عنك إلى أن يكتمل فهمك ثم أنه مضى يتعرف إليك برحمته إلى أن صرت كهلا ، لم يقطع عنك نوالا ولا فضلا ، ثم إذا انتهيت إلى الشيخوخة ، ثم إذا أقامك بين يديه ثم إذا سلمك من عقابه ، ثم إذا أدخلك دار ثوابه ، ثم إذا كشف عنك وجود حجابه ، وأجلسك مجالس أوليائه وأحبابه » . أهـ .

. . . .

قل لى : لأى احسانه تشكر . . ولأى أياديه تذكر ، وأنت لم تخرج عن إحسانه ولم تدعك رحمته وفضله وامتنانه . .

أتسأل عن إحسانه وجحودك ؟

أتسأل عن إكرامه وذنوبك ؟

اتسأل عن لطفه وخطيئتك ؟

لا تيأس من رحمة الله . . ورد فى الحديث عن رسول الله قوله :

« رب ذنب أدخل صاحبه الجنة

قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟

قال : لا يزال صاحبه تائبا فارا منه خائفا من ربه حتى يموت فيدخله الجنة » . .

يقول العارفون بالله : إن معصية تورث ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا . .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى : كل اساءة أدب تثمر أدبا فليست باساءة أدب ، وكان رضى الله عنه يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله ، حتى أنه ربما يدخل عليه مطيع فلا يبالى به ، وربما دخل عليه عاص فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله مستحسن لنفسه ، وذلك العاصى جاء منكسرا بمعصيته وذلته ومخالفته . .

ولقد ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« والذى نفسى بيده ، لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

لهذا الحد تصل رحمة الحق . .

يقول تعالى : (**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم**)[1] .

وقد ورد فى الحديث القدسى قوله تعالى :

« يا ابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك » .

« من لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة » .

ورد فى الصحيحين « البخارى ومسلم » عن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله . . ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

سأله أبو ذر : وإن زنى وإن سرق .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإن زنى وإن سرق . .

عاد أبو ذر يقول متعجبا : وإن زنى وإن سرق . قال الرسول : وإن زنى وإن سرق (قالها ثلاثا ثم قال فى الرابعة) على رغم أنف أبى ذر . . فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر .

ليس معنى الحديث الشريف أن الله تعالى يتهاون فى الكبائر ، وإنما يعنى الحديث فتح باب التوبة على نهايته للخاطئين كى يدخلوه ، عارفين أن الاسلام يمحو ما قبله . . مدركين أن رحمة الله تبارك وتعالى لا يعجزها شىء . . وإلى ذلك يشير الأثر « من تصور أن ذنوبه أعظم من رحمة الله فهذا هو الذنب حقا » . .

ليس هناك ذنب لا يغفره الله تعالى .

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣ .

كل الذنوب يغفرها الله . . إلا الشرك . .
هو الذنب الوحيد الذى اقتضى عدله ألا يغفره . .
افتح أى سورة من سور القرآن . .
تجدها مبدوءة بـ . .(بسم الله الرحمن الرحيم) . .

الاسمان مشتقان من الرحمة . . وهما من أسماء الله الحسنى . . والرحمة التامة هى اضفاء الخير على المحتاجين ، والرحمة العامة هى التى تتناول المستحق وغير المستحق ، ورحمة الله تبارك وتعالى تامة وعامة . . والرحمة فى الإنسان كمال فى طبيعته يجعله يتأثر لرؤية الألم ، ويرق قلبه له . .

يقول الإمام الغزالى أن الرحمة لا تخلو من رقة مؤلمة تعترى الرحيم فتحركه إلى قضاء حاجة المحتاج والرب تعالى منزه عن ذلك فلعلك تظن أن ذلك نقصان فى معنى الرحمة . . فاعلم أن ذلك كمال وليس بنقصان . .

ليست نقصانا فى معنى الرحمة . .

لأن كمال الرحمة بكمال ثمرتها . . ومادامت حاجة المحتاج قد قضيت بكمالها فلا معنى لتألم الراحم وتفجعه . . وإنما تألم الراحم لضعف نفسه ونقصانها ولا يزيد ضعفها فى غرض المحتاج شيئا بعد أن قضيت حاجته . .

وإنما هى كمال فى معنى الرحمة .

لأن الرحيم من رقة وتألم يكاد يقصد بفعله دفع الرقة والألم عن نفسه ، فيكون قد نظر لنفسه وسعى فى غرض نفسه وذلك ينقص من كمال معنى الرحمة . .

كمال الرحمة أن يكون النظر إلى المحتاج لأجله . . لا لأجل الاستراحة من ألم الرقة . .

لا يرحم هذه الرحمة السابغة غير الله . .

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)[1] . .

---

(١) سورة الاسراء آية ١١٠ .

هو الرحيم . .

وهو الرحمن . .

الرحمن معنى أبعد من الرحيم . . معنى يتجاوز حياة العباد . . معنى يتعلق بسعادة الدار الآخرة . .

الرحمن هو العطوف على العباد بالايجاد أولا . . والهداية إلى الايمان ثانيا . . والاسعاد فى الآخرة ثالثا . . والانعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعا . .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الله لما خلق الخلق كتب فوق عرشه « أن رحمتى تسبق غضبى » . .

وإذن . . لا يكاد الإنسان يبدأ احتراقه فى ندم التوبة . .

لا يكاد الانسان يبدأ سيره فى طريق الاخلاص لله . . حتى ينطبق عليه قوله تعالى : **(إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما)**[1] .

. . . .

يقول العلماء أن هذه هى « أرجى » آية من آيات الرحمة فى القرآن ، فان الله جل شأنه قد وعد التائب المصلح أن يبدل سيئاته القديمة حسنات . .

وليس بعد هذه الرحمة مقام . .

. . . .

سئل أحد العارفين عن الطريق إلى رحمة الله فقال :

ـــ توحيد الله .

وقرأ قوله تعالى :

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[2] .

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٠ .

(٢) سورة النساء آية ٤٨ .

قواعد التوحيد

قال تعالى :

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السماوات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء . وسع كرسيه السماوات والأرض . ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم)[1] .

لو تصورنا القرآن كونا نجومه الآيات والسور فإن شمس هذه النجوم هى آية الكرسى . وإذا كانت الشمس ليست أكبر النجوم فى الكون ، وإنما هى أقربها فحسب للأرض ، فإن آية الكرسى ليست أكبر شموس القرآن ، وإنما هى أقربها من الحياة الإسلامية . . وإذا كانت صور الحياة على الأرض تستمد وجودها من طاقة الشمس كما يحدثنا العلم ، فإن طاقة التوحيد هى المصدر الرئيسى لكل أنواع الحياة الإسلامية . على التوحيد تبنى قواعد التصور الإسلامى ، ومن قواعد التصور الإسلامى ينهض بناء الفرد المسلم والدولة الإسلامية . .

وإذن ينطوى احتفال المسلمين بهذه الآية على إدراك لجلال شأنها . .

روى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى » . .

فآية الكرسى من آيات التوحيد الأساسية .

وهى آية تشير إلى وحدانية الله . وانفراده بالحياة المطلقة ، وهى تبين قيامه على كل شىء ، وتوضح قيام كل شىء به ، وتؤكد ملكيته المطلقة لكل

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

شىء ، وعلمه المحيط بكل شىء ، وهيمنته على كل شىء ، وقدرته وحفظه لكل شىء .

أيضا تصرح الآية أن الشفاعة عنده مقيدة بإذنه ، وإذنه مرهون بمشيئته ورضاه .

وبذلك ترسم الآية بكلماتها صورة لتوحيد الله . .

هذه الصورة هى الضوء الوحيد الذى يليق أن يستقر فى ضمير المسلم . . ووجود هذا الضوء يعنى انقاذ الحياة الإنسانية . .

سنعثر فى القرآن الكريم على نماذج لقوم أنكروا وجود الله أو يئسوا من رحمته وعذابه ، أو زعموا أن قدرة الخالق لن تبعث الأجساد حين تصير إلى التراب . . أو عبدوا آلهة بشرية أو حجرية ، سنعثر على نماذج لمن يدعى الالوهية . . ويحاول وهو المخلوق الفانى أن يتوهم الجلوس فى كرسى الله . سنجد هذه النماذج كلها فى القرآن . .

إن فرعون موسى أدعى الالوهية . . (**فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى**)[1] . وهناك ملك جادل ابراهيم فى ربه ، وزعم أنه يحيى ويميت كرب ابراهيم . . ثم بهت حين تحداه ابراهيم (**فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**)[2] .

وإلى جوار هذه النماذج الصريحة فى ادعاء الألوهية ، فإن هناك نماذج ملتوية تسلك سلوكا آخر ، كمن ينسب عبدا من عباد الله بالبنوة « مثل أتباع عزير وعيسى عليهما السلام » وهذا كله لا يتفق مع قواعد التوحيد التى تنبغى لله عز وجل . .

واذن تجىء آية الكرسى لتقرر حقيقة الالوهية وتضع القواعد الأساسية فى توحيد الله . . وهى تبدأ بتقرير الوحدانية الحاسمة الناصعة . .

(**الله لا إله إلا هو**) . .

ليس هناك إله غيره . . ليس هناك متصرف فى حياة الكون والبشر غيره . . أى شجاعة يمنحها للبشر هذا التصور . . إن نصف مآسى الأرض

---

(١) سورة النازعات آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

تنبع من خوف الناس من الناس ، أو تأليه البشر للبشر ، ومسايرتهم للطغاة . إن الحرية الإنسانية لا تولد بشكل حقيقى إلا فى مجتمع يؤمن بانفراد الله تعالى بالوحدانية . . والله المتفرد بالوحدة . . هو ذاته الحى القيوم .

تتحدث الآية عن حياة الله تبارك وتعالى ، وقيامه بأمر الخلق جميعا . . الحى اسم لصفة هى الحياة . . وحياة الموجودات جميعا تختلف عن صفة الحياة الإلهية ، يعترض الموت والنوم حياة الموجودات جميعا ، لا ينجو مخلوق من كأس الموت . . والموت صورة من صور القهر الإلهى ، وهو اشارة إلهية إلى أن (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)[1] .

ومثلما لا ينجو مخلوق من الموت . . كذلك لا ينجو مخلوق من النوم ، والنوم صورة من صور الضعف البشرى ، والنوم سر يشبه أسرار الموت ، ولا تحكم لأحد فيه أو هيمنة عليه . . ينام الإنسان وينام الحيوان وتنام الطيور ، وتهجع الأسماك ، ولا ينجو كائن من نعاس أو سنة من النوم . .

(لا تأخذه سنة ولا نوم) . .

تعنى هذه الآية أمران رئيسيان . . تعنى أولا أنه سبحانه لا يخضع لما تخضع له الكائنات . . وتعنى ثانيا أنه يقوم على الكائنات قياما حاكما لا يغفل لحظة أو يتوقف ثانية ، تستمد الكائنات وجودها بكلمة منه ، وتنتهى بكلمة إليه . . ويقوم الأحياء باذنه وإرادته ويطاف بكأس الموت بمشيئته وقضائه . .

هو المتعالى على القوانين التى خلقها لعباده . . وهو المتعالى على النوم والفناء . .

بعد تأكيد الوحدانية . .

وتأكيد الحياة والقوامة . . .

يجىء تأكيد الملكية الكاملة . . (له ما فى السماوات وما فى الأرض) هكذا باطلاق . . هو خالقه ومالكه الحقيقى . . وما بأيدى الناس

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٦ ، ٢٧ .

من صور الملكية ليست هى حقيقة الملكية . . الحقيقة أن هذا كله ملك لله ، قد استخلف عليه البشر وابتلاهم به ليرى ماذا يعملون . . ويريهم ماذا كانوا يعملون (**من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه**) . .

هذا تأكيد لمقام الألوهية ومقام العباد والعبيد . .

كل شىء سوى الله عز وجل لا يتجاوز مقام العبد . .

النجوم عبيد مسخرات بأمره . . الملوك عبيد يتحكم سبحانه فى دقات قلوبهم ويستطيع بكلمة منه أن يوقفها . . الفراغ الكونى عبد من عباده يسبح بظلمته وخلائه لله الخالق الأحد . .

كل ما فى الكون المرئى والخفى عبد .

عبد لا يتجاوز درجة العبد . . عبد قد يكون أفضل من عبد . .

وعبد قد يكون أقرب من عبد . . ولكن هذا لا ينفى أنه يقف فى مقام العبد . .

وهو مقام الخشوع والخضوع أمام جلال الله سبحانه . .

توحى الآية بالجلال ، كما توحى بخشوع العبيد جميعا . . فلا يجرؤ على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه . . (**من ذا الذى يشفع عنده**) توحى صفة الإستفهام الاستنكارية هنا أن هذا أمر لا يكون . .

لا يكون (**إلا بإذنه**) . .

بهذه الحقيقة يستقر فى عقل المسلم أن يعتمد على الله ويعمل . . يرجو شفاعة الملائكة أو الأنبياء لو كان يتبع الملائكة والأنبياء ، فإن كان يمشى نائم العقل فى الحياة ولا يتبع غير هواه فليس انتظاره للشفاعة إلا سخرية . .

وإذن ينطبق عليه هذا الاستفهام الاستنكارى (**من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه**) . .

. . . .

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) .

هذا مقام آخر لجلال الالوهية ، وعجز المخلوقات . . يعلم الله كل شىء عن مخلوقاته ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . . والتعبير يرسم صورة لعلم شامل يستوعب كل شىء ، علم يوقف الإنسان عاريا أمام الله كل لحظة . .

علم يمتد إلى ما يعرفه الإنسان وما لا يعرفه ، ما يعلنه وما يخفيه . . ما يدريه وما هو مخبأ عنه .

أما الخلائق فلا تعلم عن علمه شيئا . . إلا أن يأذن سبحانه وتعالى ويكشف قطرة من بحر علمه لهم ، فيمضون آلاف السنين يدرسون ويبحثون ويتقدمون ويتحيرون ولا يبلغون قاع القطرة . .

(وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما) .

يجىء التعبير هنا بصورة حسية فى موضع من مواضع التجريد المطلق ، وفى القدماء من اعتقد أن لله كرسيا يسع السماوات والأرض ، وإن نفى أن يشبه الكرسى ما نعرفه ، وفى القدماء من فهم الآية فهما آخر ، وأعتقد أن الكرسى ينبغى تأويله وصرفه لمعنى القدرة والحكم والاستيلاء وموقف المحدثين مشابه لموقف القدماء .

ولسيد قطب رأى جديد فى ذلك . . يقول فى تفسيره فى الظلال ان للقرآن طريقته فى التعبير التصويرى ، لأن الصورة فى مواضع التجريد تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا وثباتا ، فالكرسى يستخدم عادة فى معنى الملك ، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد وسعهما سلطانه ، وهذه هى الحقيقة من الناحية الذهنية ، ولكن الصورة التى ترتسم فى الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن . . وكذلك التعبير بقوله **(ولا يؤوده حفظهما)** بمعنى لا يتعب سبحانه فى حفظهما . . يرسم التعبير صورة لانعدام الجهد والكلال ، لأن التعبير القرآنى يتجه إلى رسم صور للمعانى تجسمها للحس . . فتكون منه أوقع وأعمق وأحس . .

ولقد كان هذا رأى المعتزلة الذين أولوا الكرسى بالقدرة والملك . . غير أن صاحب الظلال يزيد عليهم اكتشافه أسلوب التصوير الفنى فى القرآن . . فهو أسلوب يرسم صورا للمعانى . .

(ولما سكت عن موسى الغضب)[1] .

إن الصورة المرسومة ترسم الغضب جاثما على موسى ممسكا به موجها تصرفاته ، فلما سكت عنه وتركه وانصرف . .

ونحن نعلم أن موسى ساعتها كان وحده . . كان غاضبا من داخله

---

(١) سورة الاعراف آية ١٥٤ .

غضبا جعله يلقى ألواح التوراة على الأرض . . هذا الغضب الداخلى يعبر عنه القرآن برسمه من الخارج . . تعبيرا مناقضا لحقيقته وإن كان عين حقيقته . .

يقول سيد قطب :

« لا حاجة بنا إذن إلى كل ما ثار من الجدل حول مثل هذه التعبيرات فى القرآن .

إذا نحن فقهنا طريقة القرآن التعبيرية ، ولم نستعر تلك الفلسفات الأجنبية الغربية التى أفسدت علينا كثيرا من بساطة القرآن ووضوحه » .

والقول على اطلاقه صحيح إذا نظرنا إليه بقانون المستويات . . لو جردنا أنفسنا من سياسة الزمان القديم لأدركنا أن الذين وقفوا عند ظاهر النص ، والذين أولوه كانوا معا على حق . .

لقد اختلفوا إلى حد جعل كل فرقة تقوم بتكفير الفرقة الأخرى ، أو تتهمها بالعجز عن الايمان أو الفهم ، ولقد وقفت السياسة وراء هذا كله ، والحقيقة إن الوقوف عند ظاهر النص تنزيه .

وتأويل النص تنزيه . .

إن غرض الفريقين كان واحدا . . اثبات أن الله ليس كمثله شىء . .

وقد سلك كل فريق طريقا يختلف عن طريق الثانى .

إعتقد أهل السنة أن الوقوف عند ظاهر النص هو الأدب اللائق فى حق الله . .

اعتبروا ان اقتحام المجال بعقولهم جرأة على الله فاستسلموا وآمنوا بالغيب ، واعتقد المعتزلة أن تأويل النص هو الأدب اللائق فى حق الله ، لقد نزل القرآن يخاطب العقل ، فإذا كان فيه ما يستعصى على العقل وجب تأويله . . التأويل هنا أدب . . والله تعالى يقول : **(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم)**[1] والعلم ينصرف إلى العقل فهو مناط التكليف . .

أحد الفريقين وقف فى مستوى العقل . .

والفريق الآخر وقف فى مستوى التسليم . .

وكلا الموقفين انسانى . . وجائز . . ودينى . . ولا غبار عليه . .

---

(١) سورة آل عمران آية ٧ .

والعبرة بالنوايا ، والنوايا أمر لا يعرفه إلا الله ، وعظمة الله تعالى لا يمكن أن تراها العين الإنسانية من زاوية واحدة . .

إن هذا يتوقف على المكان الذى تقف فيه هذه العين . . أو المقام الذى يوقفها فيه الله لو أردنا مزيدا من الدقة . .

(وهو العلي العظيم) . .

هكذا تختم آية الكرسى بإفراد الله بالعلو . .

وإفراده بالعظمة . . هو المتفرد سبحانه بالعلو . . وهو المتفرد بالعظمة . .

وعلوه وعظمته لا يشبهان أية عظمة أو علو فى الأرض أو الكون . .

يستمد العلو قامته فى الأرض والكون من عبوديته لله . .

وتقف عظمة الخلائق متناهية فى تراب الذل والحاجة أمام عظمة الله . .

تقيم آية الكرسى قواعد التوحيد إذن . .

فما هو المقصود بتوحيد الله .

التوحيد فى اللغة جعل الشيء واحدا . .

وفى عبارة العلماء يعنى التوحيد اعتقاد وحدانية الله تعالى . . وعند العارفين يعنى التوحيد معرفة وحدانيته وشهودها . .

والتوحيد هو إفراد الحق تعالى بالقصد والعبادة . . فإن كان ذلك اعتقادا يقال للعبد مؤمن بالتوحيد ، وإن كان علما من أدلة يقال له عالم بالتوحيد ، وإن كان لغلبة الحق على القلب واستيلائه عليه يقال أنه عارف بربه .

والتوحيد هو الايمان بالله تعالى . .

والتوحيد بالله تعالى درجات ومقامات . . ليس ايمان موسى كايمان بنى إسرائيل ولا ايمان عيسى كايمان تلميذه ولا ايمان آخر الأنبياء كايمان أبناء آخر الزمان .

هذه الفروق فى المقامات هى التى دفعت بعض العارفين بالله إلى اعتبار التوحيد درجات . .

توحيد العوام . . وتوحيد الخواص . . وتوحيد الصفوة . .

ولقد كان للإمام الجنيد رأيه الجديد فى ميدان الفكر الإسلامى . .

وكانت له نظرية متكاملة فى التوحيد . . نظرية تقوم على قانون المستويات . . وتقوم على النسبية الإنسانية وإن كانت تستمد وجودها من آية صريحة من آيات القرآن . . هى آية الميثاق . .

. . . .

فى الناس من يقر بوحدانية الله ، وينكر الأرباب والأنداد ، ولكنه يخاف غير الله أكثر مما يخاف الله ، ويرغب فى غير الله أكثر مما يرغب فى الله . .

هذا هو توحيد العوام فى نظر الجنيد . .

وفى الناس من يقر بوحدانية الله ، وينكر الأرباب والأنداد ، ولكنه يخاف غير الله خوفا يمنعه من اقامة كل أوامر الله ، ويرغب فى غير الله رغبة تمنعه من الامتناع عن كل نواهى الله . .

وهذه صورة أعلى من صور توحيد العوام . . وهناك توحيد الخواص . . وهو نوعان عند الجنيد . .

اقرار بالوحدانية ونفى للأرباب والأنداد ، واقامة أوامر الشريعة فى الظاهر والباطن ، وازالة الرغبة والرهبة المتعلقين بكل ما سوى الله . .

هذا نوع شديد الرقى لا يطيقه إلا الأقلون .

وهناك قمة بعد هذه القمة . .

الرجوع إلى الحالة السابقة التى كان فيها العبد عند أخذ العهد عليه . .

وذلك بأن يصل العبد إلى حال يكون فيها شبحا قائما بين يدى الله . . شبحا فانيا عن نفسه . . شبحا لا يرى نفسه . .

يقول الجنيد « وهذا غاية توحيد الموحد للواحد . . يذهب هو » . .

هذا الذهاب للعبد الموحد ، ليس انخلاعا من العقل ، ولا انفلاتا من الوعى ولا خروجا من المدن إلى الجبال والصحارى ، إنما هو ذهاب لكل رغبة فى شىء سوى الله ، وكل رهبة من شىء سوى الله ، وهو ذهاب لأنانية الإنسان الجسدية وحاجاته الدنيوية ، وهو ارتفاع عليها . وهو حال لا يعود فيها المحب يرى غير ذات المحبوب . . يذهب هو . .

يذوب العاشق فى بحار التوحيد . .

أو يصير بحرا من بحار التوحيد . .

حـــق الله

قال معاذ بن جبل :

« كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم على حمار . .

فقال لى : أتدرى ما حق الله على العباد . وما حق العباد على الله .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . . وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . .

قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس .

قال : لا تبشرهم فيتكلوا . .

. .   . .

. .   . .

ينسى الإنسان أنه يعيش فوق أرض خلقها الله . . ويتنفس هواء صنعه الله ، ويشرب مياها أنزلها الله ، ويأكل مما صنعته يد الله ، وتكلأه عناية الله ، ويعيش على نعم ساقها الله إليه . .

لا يزعم أعتى المنكرين أنه مسئول عن الهواء أو المياه أو نبات الأرض أو حيوانه . .

لا يزعم أحد أنه خلق من هذا شيئا أو ساهم فى صنعه أو إيجاده ابتداء . .

لا يملك أحد مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . .

يستوى فى انعدام الملكية أن يكون المخلوق ملكا مقربا أو نبيا كريما أو جنا من الصالحين أو بشرا صالحا أو كافرا عتيا . .

تعيش جميع الخلائق وسط جو لا تملك منه شيئا ولم تخلق فيه شيئا . . وحياة الإنسان شاهد على ما نقول . .

ان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير هواء أو ماء أو طعام . .

هذه العناصر الرئيسية الثلاثة من خلق الله عز وجل . . والتحكم فيها يتم بأمر الله عز وجل . . وجهد البشر فيها معدوم . .

إن هواء الكرة الأرضية هو أول نعمة يستنشقها الناس طيلة الوقت وهى نعمة يبلغ من كثرتها أن صارت لا ترى ولا تحس . .

إن الإنسان لا يرى الهواء لشفافيته . . ولا يحس أنه يتنفس من فرط ما يتنفس . .

وربما استطاع الإنسان أن يتحكم فى هواء غرفته عن طريق تبريده أو تسخينه . . ولكن التحكم فى الغلاف الهوائى حول الكرة الأرضية أمر وراء طاقة الإنسان . .

أيضا يهلك الإنسان لو انعدم الماء الصالح للشرب أو الزراعة . وتوزيع المياه على سطح كوكب الأرض يتم نتيجة لدوران الأرض وتبخر مياه المحيطات والبحار وسقوط الأمطار وتكون الأنهار . . وهذا كله أمر لا يتحكم فيه الإنسان ولا يستطيع إزاءه شيئا ، صحيح أن الإنسان يستطيع تنقية المياه من الشوائب ، ويستطيع تحويل مياه البحر إلى مياه حلوة . ولكن هذا كله يخضع فى نهاية الأمر لقوة فوق قوة الإنسان ، ومشيئة تعلو إرادته . .

أيضا يموت الإنسان لو لم يأكل . . والطعام يخرج من الأرض . . أو يدب فوق سطح الأرض . . ولو صارت الأرض الزراعية صحراء لسبب من الأسباب أو أغرقت مياه البحار أرضا صالحة للزراعة ، فغاية جهد الإنسان أن يفر من هذه الأرض إلى أرض الله الصالحة للزراعة . .

وإذن يعيش الإنسان معتمدا فى أساس حياته على نعمة الله . .

صحيح ان الله تبارك وتعالى خلق عقل الإنسان مستعدا لأن يستغل ما فى الحياة من خيرات ، وعلّمه أن يحصل على ما فيها من نعم ؛ وهداه إلى الافادة من معرفة حقائق الأشياء وكنه الأسماء ، ولكن هذا كله يستند على أساس خارج عن نطاق التحكم البشرى ، خارج عن نطاق قدرة البشر . . هذا كله يستند على أساس هو نعمة الله المهداة للبشر . . قال تعالى :

(وما بكم من نعمة فمن الله)[1] .

---

(١) سورة النحل آية ٥٣

سبحانه وتعالى . .

هو مصدر جميع النعم . . وهو أصل كل خير . . وهو سبحانه المتفضل ابتداء . . وانتهاء . .

كان المفروض - ما دام الله هو خالق العباد ومالكهم ووارثهم - أن يكون لله تعالى على عباده حقوق عديدة . . وكان المفروض ألا يكون للعباد على الله أى حق . . والأصل أن تنشأ الحقوق من المساواة أو الندية . . فإذا انتفت فلا مجال للحديث عنها . .

رغم ذلك . . اقتضت رحمة الله تبارك وتعالى ، وهو أرحم الراحمين . . أن يقدم لعباده من النعم ما لا يمكن احصاؤها (**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**)[1] . . **وإقتضت مشيئته ترتيب حق واحد على** عباده . . هو حق التوحيد . .

واقتضى كمال رحمته وعدله عدم ترتيب نعم الدنيا على حق التوحيد . . فهذه النعم تساق إلى الكافرين والمؤمنين . . وتساق إلى العاصين والمطيعين . . ولو أن الله قصر نعمه فى الدنيا على الموحدين والمؤمنين ، ومنع الهواء والماء والطعام عن الكافرين لوجد الناس أنفسهم مجبرين على الايمان ، مقهورين على التوحيد . .

والله أكبر من أن يجبر أحدا على توحيده أو عبادته . .

لا يقبل الله إلا توحيدا ينبع من ارادة حرة ، ونفس لا اكراه عليها أو ضغط . . لا يقبل الله إلا توحيدا ينبع من الحب الخالص .

وإذا كان مقتضى العدل أن يحجز الله نعمه الدنيوية عن الكافرين ، فان الله عز وجل لا يتعامل مع عباده بالعدل وحده . . إنما تسبق رحمته عدله . . ويسبق عفوه غضبه ، ويمد يد الرحمة للمسىء حتى يرجع ، ويمهل المنكر حتى يعدل ، ويفرح بتوبة التائبين - لو صدقوا - ويدخلهم فى رحمته . .

ويسوق الله قبل هذا كله للعباد نعما لا متناهية ، ولا يريد من عباده رزقا فى مقابل رزقه لهم . . ولا يريد نعما فى مقابل نعمه لهم . . ولا يريد أن يطعموه سبحانه كما يطعمهم (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** .

---

(١) سورة النحل آية ١٨ .

ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)[1] . .

أى لطف واحسان أن يكون حق الله على عباده هو التوحيد فقط . .

لو أضفنا لمعرفتنا أن الله لا ينال من توحيد الموحدين شيء . ولا تزيده عبادة العابدين شيئا ، ولا ينقص كفر الكافرين من ملكه شيئا . . لو عرفنا ذلك لأدركنا أن الله لا يريد من حقه على العباد « وهو التوحيد » إلا رحمة العباد وزيادة الاحسان إليهم . .

إن الله بعد نعمه ومنته فى الدنيا . . يريد أن ينعم ويمن فى الآخرة . .

وإذن . .

أى حسرة على العباد أن يشركوا بالله ؟

أى بؤس أن يعبد الناس إلهين . . أو ثلاثة آلهة . . أو آلهة متعددة .

أى سقوط أن يقول الناس أن لله تعالى ولدا . . أو يتصورون وجود إله مع الله . .

إن الشرك هو اعتداء الإنسان على حق الله الأساسى على العبيد . .

وهو اعتداء يتصدى له القرآن الكريم بالمناقشة والتفنيد فى أكثر من موضع ، سنرى الله تعالى يحدث عباده عن وحدانيته فى الخلق والهيمنة ، ويلفتهم إلى نعمه العديدة التى يسوقها إليهم ولو شاء حجزها عنهم فهلكوا ، سنرى القرآن الكريم يصحب العقول فى رحلة سريعة ومتأنية فى آفاق السماوات والأرض وخبايا الحياة والنفوس ، رحلة يطلعهم فيها عى احسانه الظاهر والخفى ، ويقيم فيها الحجة على انعدام برهانهم وكذبهم فيما يدعونه من وجود إله مع الله . .

يقول تعالى فى سورة النمل :

(قل : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ،ءآلله خير أما يشركون ، أمن خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ . بل هم قوم يعدلون .

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ،

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ ـ ٥٨ .

وجعل بين البحرين حاجزا . أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟ ! قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . أإله مع الله ؟ ! تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض . أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) النمل ٥٩ ـ ٦٤ .

لو تأملنا الآيات السابقة لرأينا الله عز وجل يسأل خمس مرات . . سؤاله بصيغة الإستفهام الاستنكارى .

* أإله مع الله . . ؟

وفى المرة الأولى يتهم قائل الكلمة بأنه لا يعدل . . وهذا يعنى الظلم . .

وفى المرة الثانية يتهم القائل بعدم العلم . . وهذا يعنى الجهل . .

وفى المرة الثالثة يتهم القائل بنسيان نجدة الله للمضطر وكشفه للسوء . . وهذا يعنى الجحود .

وفى المرة الرابعة يقدس ذات الله عن هذا اللغو العابث الذى يقال .

وفى المرة الخامسة يطالب القائل بالبرهان إن كان حقا صادقا ، وهذا يعنى انهيار القضية من أساسها لانعدام البرهان وكذب القائل . .

وفى سورة « المؤمنون » يعرض الله عز وجل قضية الشرك بأسلوب آخر . . يقول تعالى :

(قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله ، قل : أفلا تذكرون ؟ ! قل : من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله . قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) .

آية ٨٤ ـ ٩٢ .

سنلاحظ فى الآيات السابقة أن المشركين يعترفون أن الأرض ومن فيها لله . .

سنراهم يقرون أن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم هو الله . .

سنراهم يعرفون ان ملكوت كل شيء بيد الله . . ويعرفون أنه يجير ولا يجار عليه ورغم هذه الاعترافات كلها ، فإن فيهم من يعتقد أن لله ولدا . . وفيهم من يعتقد بوجود إله مع الله . .

نحن أمام نوعية جديدة من الشرك . .

والشرك كالتوحيد درجات وأنواع . .

وإذا كان الموحدون جميعا فى الجنة . . فإن المشركين جميعا فى الجحيم . .

تتفاوت درجات الموحدين فى الجنة ، ويخرج المشركون جميعا من رحمة الله . .

ويغفر الله تعالى كل الذنوب . . ولا يغفر ذنب الشرك إلا بالتوبة .

(إن الله لا يغفر أن يشرك به . . ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)[1] .

وهناك شرك صريح لا مواربة فيه . . كانكار الإنسان لله وعبادته لنفسه ، أو ماله ، أو صحته ، أو عقله ، أو نظام حكمه . .

وهناك شرك ساذج كعبادة الأصنام والتماثيل وصور الأجداد والآباء . .

وهناك شرك يعترف فيه الإنسان بأن الأرض لله ، والسماء لله ، والملك لله ، ولكنه يضيف مع الله إلها آخر أو ولدا . .

وهناك شرك يعترف فيه الإنسان بوحدانية الله ، وينكر وجود صاحبة أو ولد أو إله مع الله . . ورغم ذلك تمضى تصرفات الإنسان فإذا هو فى الحقيقة مشرك ، وإذا هو يرجو ويخاف الناس أكثر مما يرجو أو يخاف الله . . ويحب ويطيع البشر أكثر مما يحب أو يطيع الله . .

لا نريد أن نفيض فى الحديث عن الشرك الصريح . . فهذا معروف وظاهر . . وإنما نريد أن نبسط عقيدة الإسلام فى الشرك الذى يرتدى ثياب الايمان . .

قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[2] .

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) سورة يوسف آية ١٠٦ .

ما هو المقصود بهذه الآية الكريمة . . ؟

هل نزلت فى أصحاب الأديان السابقة على الإسلام فقط ، إما أنها تنطبق على الفترة الزمنية بعد نزول الإسلام . . وتمتد فترة انطباقها حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

الأصل فى آيات القرآن أن تنطبق على كل زمان ومكان . لا تحابى أحدا لأنه مسلم أو غير مسلم ، ولا يقتصر عملها على زمان دون زمان .

لكى نجيب عن السؤال إجابة كاملة نريد أن نسأل أولا ؟

ما هو تعريف التوحيد فى العقيدة الإسلامية . . ؟

نريد تعريفا نهائيا صادقا لا يختلف عليه اثنان . .

لن نجد ما نطلبه إلا عن آخر الأنبياء وأول المسلمين . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس :

* شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله
* واقام الصلاة
* وإيتاء الزكاة
* وصوم رمضان
* وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

إن أول أساس من أسس الإسلام هو التوحيد ، وتعريف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوحيد . بأنه شهادة أن لا إله إلا الله . . ليس مصادفة ولا اتفاقا ، ومن معانى الشهادة فى القرآن الكريم . . العلم . .

قال تعالى على لسان أخوة يوسف :

(وما شهدنا إلا بما علمنا)[1] .

ومن معانى الشهادة . . الرؤية والاطلاع والاعتراف .

ومن معانى الشهادة . . الصدق فى الشهود ، ومرتبة اليقين فى الاقتناع . وشهادة أن لا إله إلا الله تعنى أن يعلم الإنسان ويعمل بما علم .

ولا عبرة بعمل لا يسنده العلم ، ولا قيمة لعلم لا يؤدى إلى العمل . .

إن هذا يشبه الفصل بين روح الإنسان وجسده . .

ويتصور كثير من المسلمين اليوم أن مجرد التلفظ بالشهادة هو المعنى

---

(١) سورة يوسف آية ٨١ .

المقصود بالشهادة . . وهذا وهم بالغ ، ولو أنه اقتصر على مجرد الوهم لهان الأمر ، ولكنه خطأ قاتل هدم وجود المسلمين أو كاد .

ولو كان النبى صلى الله عليه وسلم يقصد بالشهادة مجرد القول . . لاستخدم لفظ القول صراحة . .

لقد كان صلى الله عليه وسلم محددا وواضحا فى حديثه . .

والشهادة ليست تلفظا باللسان . . إنما هى شهود لشىء . . واعتراف به بعد ذلك ، والاعتراف بالقول لا يمكن أن يكون بديلا عن الاعتراف بالفعل . . ذلك أن الإسلام دين لا يغنى فيه القول عن الفعل . .

الإسلام دين لا تحل فيها الكلمات مكان الأفعال . .

لقد نزل الإسلام يصحح تصور الإنسان عن الله عز وجل ، ولم يمض على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم سنوات حتى كانت جيوش المسلمين تنطلق فى أرجاء الأرض لفتح الأقطار والأمصار ، وكسر جيوش الوثنيين الطغاة . . والاستيلاء على الممالك والدول . .

لم تكن تفعل هذا كله إلا لترفع القضبان التى تحجز عن الناس شهادة أن لا إله إلا الله . . أو شهود أن لا إله إلا الله . .

ورغم أن الإسلام حمل السيف فى بداية دعوته ، إلا أنه حمل سيفه كما يحمل الجراح مشرطه ، دفاعا عن الحياة كى تتحرر ، ورفعا للقهر الذى يرسخ على عقول البشر ، وتحطيما للقيود التى يضعها الجبارون على حرية المستضعفين . . واستئصالا لمرض يهدد الجسد الإنسانى كله بالهلاك .

ورغم هذا الموقف . . فان الإسلام لم يقهر أحدا على الإيمان به ، ولم يقتل أحدا لأنه يؤمن بعقيدته ، ويحترم فى ذات الوقت حرية الآخرين فى الاعتقاد . . إنما حطم الإسلام القيود على حرية الإنسان ، وترك للإنسان الحرية فى أن يؤمن بالله أو يظل على عقيدته ما دام لا يحارب عقائد الآخرين . .

هذا هو موقف الموحدين فى عصور الإسلام الأولى . .

كان الإسلام يوجه الحياة بالفكر والدعوة ، ويحمى صورة التوحيد بالقوة العسكرية ، ولعل هذا الإحساس هو الذى دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول فى أول معركة للاسلام ـ وهى غزوة بدر .

« اللهم نصرك . . اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » . .

لقد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم هذه العلاقة الوثيقة بين عناء الجهاد فى سبيل الله . . وتوحيد الناس لله فيما بعد . . وهذه علاقة مستمرة وليست وقفا على عصره صلى الله عليه وسلم ، وبغير هذه السيوف المؤمنة التى ارتفعت فى معركة بدر . . ما كان ممكنا أن تنتشر دعوة التوحيد فى الأرض . .

ولولا الدماء المسلمة التى أريقت فى المعركة الأولى للإسلام . . لظلت الأرض على جاهليتها الطامية ، ولتعذر أن تجد فكرة التوحيد مجالا تعمل فيه . .

نريد أن نصل إلى قانون أساسى من قوانين التوحيد . .

ذلك هو قانون العلاقة بين فكرة التوحيد . . والعمل لتغيير الحياة . .

إن الصلة بين التوحيد والحركة . . كالصلة بين اليقظة والعقل . .

إذا وجدت اليقظة . . تحرك تيار الأفكار فى العقل . .

إذا وجد التوحيد . . تغير شكل المجتمع من سىء إلى أفضل . .

والدليل على صدق هذا القانون شكل الحياة فى مكة قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشكل الحياة فى المدينة بعد قيام دولة الموحدين . .

إن الفرق بين الظلام والنور هو الفرق بين الشرك والتوحيد . .

والفرق بين الظلم والعدل هو الفرق بين مجتمع مكة الوثنى ومجتمع المدينة الموحد المسلم .

ولقد مرت الآن أربعة عشر قرنا على بعثة الرسول ونزول عقيدة التوحيد . .

وأصاب التوحيد خلال هذه الحقب الطويلة غبار كثيف . .

وموقف المسلمين اليوم خير دليل على ما نقول . .

إن الشعوب التى تدين بالإسلام . . هى للأسف . . شعوب تأتى فى نهاية القائمة البشرية ، ومعظم المسلمين فى الأرض يعيشون وسط أمية تتراوح نسبتها بين ٦٥ ٪ ، ٩٥ ٪ . . بينما كانت أول كلمة فى دينهم هى « اقرأ » .

والخرافات لا تجد أرضا تتنفس فيها غير ديار الإسلام أولا . . والرقى والتمائم والتعاويذ منتشرة بين المسلمين ، وزيارة القبور وسؤال الموتى أن يتدخلوا فى حياة الأحياء مأساة يعيشها المسلمون . . والسحر والعرافة والايمان بالحظ والحسد والبخت أشياء نشكو منها فى حياة المسلمين ، وحب الناس أكثر من حب الله شىء نعثر عليه فى حياة المسلمين . .

ولا يختلف أثنان من المصلحين أو المفكرين الإسلاميين على أن حال المسلمين اليوم يدعو إلى الاشفاق .

ما هو السر ؟

هل ترك المسلمون التوحيد . .؟

هل اختلط توحيدهم بالشوائب . . ؟

هل غطى على جوهر التوحيد الإسلامى ركام من الخرافات التى صارت جزءا من السلوك الإسلامى ، بينما الأصل أن الإسلام نزل لمحاربة هذا السلوك . .

سنترك الاجابة لثلاثة من علماء الإسلام الكبار . . فهم أقدر منا على النفاذ لأصل الداء ومعرفة الدواء . .

العالم الأول هو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب والثانى هو المفكر الإسلامى مالك بن نبى والثالث هو الداعية والمفكر الإسلامى محمد الغزالى . . والأول من الجزيرة العربية ، والثانى من الجزائر ، والثالث من مصر . . وهم على اختلاف ديارهم يجمعهم حب عميق لله ورسوله ، ويشفقون شفقة واعية على المسلمين ويعنيهم أمر تقدمهم وقد بحث الثلاثة مشكلة توحيد المسلمين اليوم . . وكان الشيخ محمد ابن عبد الوهاب حاسما فى كتابه « التوحيد . . الذى هو حق الله على العبيد » ، فقد أبان فى كتابه أن حق الله على العبيد هو التوحيد وتحدث عن فضل التوحيد وما يكفره من الذنوب ، ثم استطرد إلى أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ، ويكاد الرجل يركز فى كتابه كله بعد ذلك على معنى تحقيق التوحيد ، فهو يحدثنا أن من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ويحدثنا أن من علق التمائم فقد أشرك . . والتمائم شىء يعلق على الأولاد لاتقاء العين والحسد ، ويحدثنا ان من تبرك بشجرة أو شىء فقد أشرك ،

ويرى أن من الشرك النذر لغير الله ، أو الاستعاذة بغير الله ، أو الاستغاثة بغير الله أو دعاء غير الله . . وهو يستعين فيما يكتب بأحاديث النبى صلى الله علي وسلم الثابتة . . ويذكر قصة المؤمنين الذين قالوا - قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسول : أنا لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله . .

ويروى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ما أورده أنس فى الصحيح حين شج رأس النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسرت أسنانه . . فقال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم . . فنزل قوله تعالى (**ليس لك من الأمر شيء**)(1) .

اشارة إلى رد الأمر كله إلى الله . .

أيضا يتناول الكتاب مسألة الشفاعة ، وينفيها الشيخ عن أهل العصيان والكفر ويرى أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والاخلاص . .

ويرى الشيخ أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين ، ويهاجم زيارة المقابر والأضرحة ويرى أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله . .

أيضا يهاجم الكتاب السحر والتطير والتشاؤم ، ويحمل حملته القوية على التنجيم والخرافة ، ويكشف الأقنعة عن شرك الذين يتخذون من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، ويتحدث عن الشرك الخفى كالرياء ، ويسند الكتاب آراءه بآيات القرآن والأحاديث النبوية الثابتة ، ولقد أثمرت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ، ومن حكمة الله تعالى أن الرجل عاش فى الجزيرة العربية ودعا فيها دعوته ، فليست هناك أرض تضم ما تضمه الجزيرة العربية من رفات كان يمكن أن تصير فتنة بالغة لمسلمى الزمان المتأخرين ، إن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة العربية ، وقبور الخلفاء والشهداء والصحابة والأولياء هناك ، ولولا صرامة الدعوة الوهابية فى الحق وحسمها القاطع فى التوحيد لمال الميزان وأصاب أرض النبوة شر كبير . .

إن بعض حجاج بيت الله الحرام مثلا يتقاتلون ويتضاربون لتقبيل

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٨ .

الحجر الأسود ، وكان المفروض ـ لو حسن إسلامهم ـ أن يفسح بعضهم لبعض الطريق إليه . . وكثير من زوار الجزيرة العربية يسأل زيارة قبر حمزة رضى الله عنه ، أو زيارة غار حراء الذى كان يتعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يجيبهم أحد لما يطلبونه . . فقد سويت القبور واخفى غار حراء ، ونجحت الدعوة الوهابية أن تنقذ أرض الجزيرة العربية من الفتنة ، وتعيد إليها نقاء التوحيد .

وقد تناول محمد بن عبد الوهاب قضية التوحيد كسلوك فردى وسنرى كيف يتناولها مالك بن نبى كقضية اجتماعية . . فمن المعروف أنه لا يكفى أن يكون الله فى قلوب الناس . . بينما الشيطان هو الذى يحكم المجتمع . .

أيّـــام الله

حين تتحدث إلى فقير أو بائس أو فاشل ، عن الثروة الطائلة التى كانت لأجداده ، فهذا الحديث لن يشفى جوعه ولن يحل مشكلاته . .

ربما كان الحديث يسليه عن متاعبه ، وربما كان يخدر آلامه مؤقتا ، وربما كان يعزل ضميره وفكره عن الشعور بمأساته ، وربما كان يزيد مرارته ، ولكن مثل هذا الحديث بالقطع لا يشفى أوجاعه ولا يعينه على حل مأساته . .

أليس هذا هو حال المسلمين اليوم حين يستمعون إلى مجد الأيام القديمة والعصور الخوالى . .

منذ أربعة عشر قرنا وقف رجل عربى وقال أنه ليس سوى بشر . .

. . ولكن الله الذى خلق الكون والإنسان قد أمره أن يحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ، ولكى يعيش الإنسان بصورة تتلاءم والنظام الذى أبدع الله به العالم ، أمر الله رسوله أن يذكرهم بوجوده الدائم وقدرته اللا نهائية وعلمه بكل أمر ، كما أمره بأن يضع أمامهم منهاجا للسلوك ، فإذا قبلوا هذا التذكير فليتبعوه .

تلك كانت زبدة الرسالة الأخيرة التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولقد كان النظام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر من البساطة التى تتمشى مع العظمة الحقيقية . .

لقد أدرك الإسلام أن سمو الفرد روحيا ، هو الهدف الأساسى لأى نظام ، وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا إذا كان الفرد يحصل على الروح المعنوية والتعاون والتشجيع والحماية من المجتمع حوله ، وينتظر المجتمع فى الجانب المقابل أن يحصل من الفرد على التعاون والتشجيع والحماية . .

هذا التداخل بين الفرد والمجتمع كان سببا فى هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، لقد أدرك أن الدعوة الإسلامية قد حوصرت فى مكة . . ومنعت من أن تنمو أو تحقق أهدافها فى الحياة . .

ويجب أن نضع حقيقة جوهرية فى أذهاننا ونحن ندرس هذا الزمان البعيد . . هذه الحقيقة أن الإسلام لم يكن قاصرا على عمل عقيدة التوحيد فى النفوس وحدها . . ولو كان الأمر كذلك لبقى النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة لا يغادرها ، فقد آمنت معه فى مكة نماذج كثيرة ورفيعة وتربى فى مدرسة النبوة العظيمة أبو بكر وعمر وعلى وعثمان ، وكان الايمان فى نفوس الناس قد بلغ ذروة الذرى . . رغم ذلك هاجر الرسول . .

خرج من مكة وهدفه المدينة . .

لماذا ؟

لأن الإسلام ليس عقيدة توحيد تعمل عملها فى نفس الإنسان فقط ، ولا تتعدى النفس للمجتمع .

لأن الإسلام يحتاج إلى مجتمع مسلم . . ودولة تحكم بالقرآن ، وعلاقات انسانية بكل ما تحمله كلمة العلاقات الإنسانية من تعقيد ورقى . .

لقد غابت أهم حقيقة من حقائق التوحيد عن وعى المسلمين اليوم . .

إن التوحيد لم ينزل على الرسول ليملأ به القلوب والعقول فقط . . إنما نزل التوحيد ليعمل أثره فى الحياة ، وينظم المجتمع ، ويعيد خلقه من جديد على الصورة التى يرضاها الله رب العالمين لعباده .

ليس الإسلام دينا يمكن لأتباعه ممارسة طقوسه بعيدا عن المجتمع . .

ليس الإسلام دينا يمكن الخروج به إلى الجبال والمغارات والصحارى . .

الإسلام دين ودنيا . . عبادة وعمل . . روح وسياسة . . ايمان واقتصاد . . يتدخل الإسلام فى علاقات الرجل بزوجه ، وخادمه وأمه وأبيه . . يتدخل الإسلام فى الزواج والحب والطلاق والميراث والسياسة والحكم والاقتصاد والبنوك . . يضع الدستور لهذا كله ويترك للعقل فرصته فى الاجتهاد . .

إن التَعاون الإنسانى المتبادل بين الفرد والمجتمع فى عقيدة الإسلام ، هو السر فى أن الإسلام لا يمكن فصله عن الاقتصاد أو السياسة . .

إن الإسلام - بوصفه عقيدة توحيد - هو المسئول عن تنظيم العلاقات الإنسانية بطريقة تمكن كل فرد من أن يلقى أقل قدر ممكن من العقبات ، وأكبر قدر ممكن من التشجيع . .

إن نمو شخصية المسلم وتقدمه ورقيه هو هدف الإسلام .

إن سعادة الإنسان هى هدف الإسلام . .

والسعادة لا تعيش إلا وسط مجتمع . . لأن الإنسان - بداهة - يعيش وسط مجتمع . .

ولقد كان طبيعيا أن النظام الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختص بالشئون الروحية فحسب ، ولم يبسط مفهوم الصلاح الفردى فحسب ، بل عرض أيضا مفهوم المجتمع العادل الذى يجب أن يوجده الإنسان الصالح . . واحتلت مشاكل الجسد والعقل والجنس والاقتصاد والحروب مكانها جنبا إلى جنب مع مشاكل الدين والعبادة والذكر والشوق والحب لله . .

وكان إذا عرض أمر خطير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو على خليفة رسول الله نادى المنادى أن الصلاة جامعة ، وفى المسجد يعرض الحاكم الأمر الخطير ويسأل حكماء قومه الشورى . .

وهكذا انطلق الإسلام وانتشر . .

واستطاعت دعوة التوحيد أن تؤثر فى نفس الإنسان وتغير من شكل الحياة . .

ونشأت أول حضارة للموحدين . .

كانت الدفعة الأولى قوية حقا . .

وجد الإنسان طريقه للخلاص ، ووجد المجتمع طريقه للخلاص أيضا . .

وتم التوازن بين حاجات الإنسان وأحلامه ، كما أفسح المجتمع الطريق لتقدم الإنسان الروحى . .

وانعكست أشعة الشمس على سيوف الموحدين وهى تخرج من غمدها فى سبيل الله . . والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . .

وآذن ليل الضمير بانتهاء . .

وسطعت شمس الله على الإنسان . . وبدأ عصر النهضة الحقيقى .

ومرت أيام الله . .

مرت بما تحمله من صفو وكدر ، ونعمة ومحن ، وابتلاء وامتحان . . واستدارت الأيام ، فإذا قادة البشرية هم نهاية القافلة . . وإذا رجال النور القديم يخطون خطوهم الثقيل فى ظلام دامس ، ويتحسسون طريقهم على استحياء ومهل . .

وهزم المسلمون مرتين . .

هزموا عسكريا وهزموا فكريا . . وكانت الهزيمة الثانية أقسى وأمر . . فقد استعمر الغرب الشرق المسلم عسكريا ، ثم تطور أسلوب الاستعمار وتقرر الاستيلاء على مراكز القيادة الفكرية فى ديار الإسلام . . وهكذا تسلل الغرب إلى عقول المسلمين وأقنعهم أن التقدم الحقيقى أن نحمل أسماءا مسلمة وعقولا غربية . .

ولنكن صادقين ونعترف بالحقيقة . .

صحيح أن الإسلام حى لا يزال . . موجود وقائم . . يتلى القرآن وتساق أحكام الله ، ويجيء شهر رمضان فيصوم المسلمون . . وفى موسم الحج يتدافع مئات الألوف تلبية لنداء أبيهم وسيدهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام . .

صحيح أن الإسلام موجود فى كتبه . . لم يتغير ولم يتبدل ولم يحرف ولم يزل بحفظ الله محفوظا . .

لكن المسلمين أنفسهم ليسوا موجودين . . أو أنهم موجودون مثل أناس مشلولين ، فإذا صعبت على نفوسنا كلمة الشلل فلنقل أن لهم وجود النائمين . . وأنهم غير قادرين على تحويل معتقداتهم إلى عمل مثمر ، أو مجتمع مسلم ، أو حقيقة واقعة .

لقد بعد العهد بينهم وبين تعاليم التوحيد الأولى ، وانغمسوا فى التراخى والجهل ، ولم يحافظوا على المثل الأعلى الذى وضعه أمامهم نبيهم الكريم . .

ووسط هذا الفراغ ، وحين نام حرس الثغور تسلل العدو . .

استولى الغرب والشرق على وجدان المسلمين ، وشجع مفكرو الغرب المسلمين على تمجيد آثار الماضى العظيم . . على شريطة أن يكون الرجوع إلى الماضى ، سدا لطريق مناقشة الحاضر ومشكلاته ، أو مناقشته على

أساس أن يقف المسلمون فى مقاعد التلاميذ ، ويجلس الغرب فى مقعد الأستاذ . .

ولقد أدى غياب الروح الإسلامى إلى وقوع المسلمين تحت سيطرة الروح الغربى أو الشرقى ، وعرضت على المسلمين فى مجال السياسة والاقتصاد والآداب والفنون حلول أبسط ما قال فيها ، أنها تشتت انتباه المسلمين عن أم مشكلاتهم ، وهى مشكلة حضارتهم . . وحتى يربطوا اهتمامهم بمشكلات وهمية ، ويلهوهم بحلول وهمية . .

وامتلأت الشخصية الإسلامية بالقدرة على تلقى الخرافة تحت ستار احياء الماضى ، وتحولت ليالى المسلمين التعسة الخاوية التى تفتقر إلى هدف . . تحولت بقدرة قادر إلى ليالى ألف ليلة وليلة . . وتصور الجالسون على الحصير الممزق ، وسط بخور التكايا أنهم يجلسون فى عصر هارون الرشيد ، على حرير بطائنه من استبرق ، وقد خرجت جيوش الخليفة تفتح الأمصار والأقطار . .

وأضيف المجد القديم إلى الفقر المعاصر ، وتشابكت الإنتصارات القديمة مع البؤس الحاضر ، وتداخلت أمجاد علماء المسلمين القدامى مع التخلف العام الواقع اليوم . . وبدأت أحلام اليقظة والتمزق النفسى والضياع . . وساعد على ذلك اغلاق باب الاجتهاد وجمود رجال الدين . .

ولقد تحدث الشيخ مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر إلى المفكر الإسلامى محمد أسد عن وضع علماء المسلمين فى العالم الإسلامى بوجه عام .

قال شيخ الأزهر : هل ترى إلى أولئك العلماء هناك ، إنهم مثل تلك البقرات المقدسة فى الهند ، التى تلتهم ـ كما قيل لى ـ كل ما تستطيع العثور عليه فى الشوارع من أوراق مطبوعة ، أجل ، انهم يزدردون كل الصفحات المطبوعة من الكتب التى كتبت منذ قرون عديدة ، ولكنهم لا يهضمونها ، أنهم لم يعودوا يفكرون لأنفسهم . أنهم يقرأون ويرددون . . والتلاميذ الذين يصغون إليهم لا يتعلمون إلا أن يقرأوا ويرددوا . . جيلا بعد جيل . .

وقاطع المفكر الإسلامى محمد أسد محدثه قائلا : ولكن الأزهر يا شيخ مصطفى على كل حال هو مركز العلوم الإسلامية وأقدم جامعة فى العالم ، إن المرء لتقع عينه على اسمه فى كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى

الثقافى ، وما قولك فى المفكرين ورجال الدين والمؤرخين والفلاسفة والرياضيين العظام الذين أخرجهم الأزهر خلال القرون العشرة الأخيرة . .

وأجاب الشيخ مصطفى المراغى بمرارة : « لقد انقطع عن إخراجهم منذ عدة قرون ، ربما كان فى هذا بعض المبالغة ، لأن الأزهر لم يعدم ظهور مفكرين أفذاذ بين الحين والحين حتى فى الأزمنة الحديثة ، ولكن الأزهر بصورة عامة ، جزء من العالم الإسلامى ، وقد أصيب العالم الإسلامى بالعقم فأصيب الأزهر تبعا لذلك ، ومثلما انطفأت جذوة العالم الإسلامى انطفأت جذوة الأزهر . . وإن اولئك المفكرين المسلمين القدامى لم يحلموا قط بأن أفكارهم بعد هذه القرون العديدة ، بدلا من أن تستمر عن طريق النمو والتطور ، يقدر لها أن تعاد وتعاد . . كأنما هى حقائق نهائية غير قابلة للخطأ . . ولو أردنا أن نبدل حالنا بأحسن منها ، فإن علينا أن نشجع التفكير الحر ، بدلا من تقليد ما سبق من الأفكار » . .

ان الجمود لا يؤدى إلى شىء . . اللهم إلا المزيد من السكون المشلول الجامد . . وليست الحياة غير حركة مستمرة . . ونمو دائم . . فإذا وقف المسلمون فى أماكنهم سبقتهم أمم لا تحمل ما يحملونه من نصاعة التوحيد . . ويولد ملايين الأطفال فى الأرض كل عام . . يكبرون ويصيرون شبابا ، وينظر هذا الشباب إلى الموقف العام فى الأرض فيرون المسلمين الموحدين يعيشون فى مأساة من التخلف والجهل ، ويرون دولا لا يؤمن أفرادها بالله ، وشعوبا تعبد أنظمتها أو تعبد التقدم المادى ، يرون هذه الدول والشعوب تتصدر دول العالم ، ويرون فيها مشاعل المدنية وأنوار الحضارة ، ويسمعون من علماء هذه الدول المتقدمة أن سر سقوط المسلمين عائد قبل كل شىء إلى الإسلام . . وأنه دين كان صالحا لزمانه ثم ولى زمانه ودخل متحف التاريخ . .

يسمعون هذه القولة الظالمة ، ولا يعرفون أن سر إنحطاط المسلمين وتخلفهم يعود بالدرجة الأولى إلى ابتعادهم عن روح الإسلام ومنابعه ، أى عار ينال الموحدين والمسلمين حين يصيرون رموزا للجهل وعنوانا على التخلف . . إن الله تبارك وتعالى يغضبه كثيرا أن نسىء هذه الإساءة لعقيدة التوحيد . .

هذه هى مأساة المسلمين الأولى اليوم . .

وهى مأساة استولت على اهتمام كثير من علماء المسلمين ومن بينهم علماء من الأزهر . ولقد رأينا كيف تناول العالم المجدد محمد بن عبد الوهاب قضية التوحيد ومشكلة الشرك كرجل من رجال الدين ، وقام منهجه فى تناولها على سرد التفاصيل والجزئيات وكان نزوعه واضحا فى تجزئة المشكلة إلى ذرات يتناولها ذرة بعد ذرة .

وسنرى كيف يتناول مالك بن نبى القضية كفيلسوف اجتماعى ومفكر إسلامى ، لقد نظر مالك بن نبى إلى قضية التوحيد وارتباطها بالحياة كمأساة حضارية .

تقوم فكرة مالك بن نبى على تقسيم تاريخ المجتمع الإسلامى إلى ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة التوحيد الأولى فى حيويتها وقوتها الدافعة ونقائها المؤثر . . وهى مرحلة يعتقد أنها انتهت فى معركة صفين . .

الثانية : مرحلة التوحيد الثانية ، أو مرحلة المدنية الإسلامية ، وهى مرحلة التفكير والازدهار الحضارى ، وتنتهى بسقوط دولة الموحدين . .

الثالثة : مرحلة تجمع ما بعد الموحدين . . وتلك مرحلة الجمود والإنحطاط التى لم نزل نأكل من ثمارها المريرة ، ونعيش فى رواسبها .

ولقد كانت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى بداية مرحلة التوحيد الأولى . . لقد أيقظ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم روح الإنسان ، ولئن كانت معجزة عيسى هى بعث الموتى من قبورهم ، فقد كانت معجزة محمد هى بعث الموتى الأحياء الذين لا يدركون أنهم موتى . . وهبت الرياح على المدينة المنورة والمسلمون يقيمون فيها أول دولة يحكمها القرآن ، وكان روح القرآن حيا فى نفوس الرجال ، وصنع المسلمون أول عالم إنسانى يتوازن فيه عنصر الروح وعنصر البدن .

وبدأ أول شرخ فى هذا العالم فى العام الثامن والثلاثين بعد الهجرة فى معركة صفين ، وكانت حمية الجاهلية تصطرع مع الروح القرآنية . وجاء معاوية فحطم هذا البناء الذى قام لكى يعيش . . « ومنذ ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامى توازنه » ، لم تعد هناك دولة يحكمها القرآن ، صارت الدولة هى التى تحكم القرآن وتستخدمه فى أغراضها وتتهم خصومها بالمروق وتهدر دمهم ، ورغم ذلك بقى الفرد المسلم متمسكا فى قرارة نفسه

بعقيدته التى نبض بها قلبه المؤمن ، ولقد كان إنكسار على بكل ما يمثله من نقاء وحق ، أمام معاوية بكل ما يمثله من دهاء ودنيوية ، كان هذا فى عمقه البعيد سرا من أسرار الحياة . . فنحن ندين لهذه الحضارة المنحرفة التى أزدهرت فى دمشق فى ظل الأمويين باكتشاف النظام المئوى ، وتطبيق المنهج التجريبى فى الطب ، واستخدام فكرة الزمن الرياضية ، وهذه هى المعالم الأولى للفكر الصناعى . . كما أننا ندين لهذه الحضارة المنحرفة بانتشار الإسلام ، ولقد كانت هذه الحضارة صورة مشوهة من البناء الأصلى الذى شاده القرآن ، على أساس من التوازن بين العقل والروح . . والحق أن العالم الإسلامى لم يقو على البقاء إبان تلك الأزمنة الأولى من تاريخه وبعدها ، إلا بفضل ما تبقى فيه من دفعة قرآنية قوية . . والمعروف أن البناء الاجتماعى لا يقوم على الفن والعلم والعقل فحسب ، وإنما يحتاج قبل هذا كله إلى الروح ، لأن الروح ، والروح وحدها ، هى التى تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم ، فإذا ضاعت الروح سقطت الحضارة وإنحطت ، مثلما يهوى من فقد القدرة على الصعود ويستسلم لجاذبية الأرض .

وعندما تكف الرياح التى منحت مُجتمعا ما . . عن الهبوب . . عندما تكف الرياح التى منحته الدفعة الأولى عن تحريكه ، تكون نهاية دورة ، وهجرة حضارة . . تصير هذه الأرض الإسلامية بقعة مهجورة . . وفى البقعة المهجورة يفقد العلم كل معناه ، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل . . وحين يفقد الإنسان قوة ايمانه وهمته وتوحيده . . يفقد تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل . . إن العقل المسلم يتراجع لأن آثاره تتبدد وسط جو متخلف لا يستطيع أن يفهمها أو يستخدمها ، ومن هذا الوجه جاءت أفكار ابن خلدون إما مبكرة عن أوانها أو متأخرة عن زمانها ، فلم تستطع أن تنطبع فى العبقرية الإسلامية التى فقدت مرونتها الخاصة ومقدرتها على التقدم والتجدد . حتى إذا وهنت الدفعة القرآنية الأولى توقف العالم الأسلامى كما يتوقف المحرك عندما ينفد وقوده . .

ومن المستحيل لأى معوض زمنى . . أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية . . ألا وهو الإيمان بالتوحيد . .

يعتقد مالك بن نبى أن العالم الإسلامى لا يعيش اليوم فى النصف الثانى من القرن العشرين . . إنما يعيش فى عام ١٣٦٩ ميلادية .

وهو يؤكد هذا التاريخ كلحظة إنقلاب للقيم داخل حضارة معينة .

إن التاريخ الذى يشير إليه المفكر الإسلامى هو ما يؤرخ له فى التاريخ الإسلامى بسقوط دولة الموحدين . . و هو يسمى الإنسان المسلم بعد هذا العصر بإنسان ما بعد الموحدين .

هذا الإنسان يحمل فى كيانه جميع الجراثيم التى أدت لميلاد معظم المشاكل التى تعرض لها العالم الإسلامى منذ ذلك الحين . .

ومن المدهش أن مسلم ما بعد الموحدين لم يتخل مطلقا عن عقيدته ، فقد ظل مؤمنا ، أو بعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا ، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها ، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعى فصارت جذبة فردية ، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعى ، وليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها ، إنما المهم أن نرد لهذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية ، وتأثيرها الاجتماعى . .

فى كلمة واحدة ، ليست مشكلتنا أن نبرهن للمسلم على وجود الله ، بقدر ما هى أن نشعره بوجوده ، ونملأ به نفسه كمصدر للطاقة ، وتغيير النفس معناه تمكينها من تجاوز وضعها ، وليس هذا من شأن علم الكلام ، بل هو شأن منهاج التصوف . . أو بعبارة أدق . . هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد ، ويمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله . لأن التصوف الذى قاد إلى دروشة المرابطين وشعوذتهم لا يمكن أن يقدم لنا الأساس الضرورى للإصلاح ، عندما نحث جهودنا نحو النهضة . .

إن نظرة على العالم الإسلامى اليوم بملايينه العديدة تكشف لنا عن العجز عن التفكير وعن العمل ، أو إنفصال الفكرة عن العمل ، فاما فكرة لا تتحقق ، واما عمل لا يتصل بجهد فكرى . وليس العلم الذى اقتبسه المسلمون من جامعات الغرب وسيلة للإسعاد ، إنما صار طريقا إلى المظهرية ، وأقرب دليل على إنعدام فاعلية العالم الإسلامى أننا لم نر فينا حتى الآن . . فى قرننا الحالى . . وجها من تلك الوجوه الخالدة يبرز فى مجال المعرفة الإنسانية . .

إن الذكاء يتبع حال النفس دائما . . فإذا فقدت النفس صفاءها فقد الذكاء عمقه ، وحركات الإصلاح لم تؤت النفس المسلمة هزة القلب ، ولم ترتفع بها

فوق ركود ما بعد عصر الموحدين . . وصحيح أن هناك حركة أو نهضة ترعش أطراف العالم الإسلامى كله . .

ولكن مأساة هذه الحركة أنها شاءت أن تتحرر من السكون وهى ساكنة . . وهذه هى مأساة الفكر فى نضاله ضد البلادة والقلق . .

لم تزل مأساتنا تشبه مأساة الرجل الذى استيقظ ولم يعرف بعد واجبه . . إن الفرق هائل بين الحقيقة من حيث كونها مفهوما نظريا يتسم به الإدراك المجرد . . وبينها كحقيقة فاعلة مؤثرة تلهم الإنسان مختلف نشاطاته . .

يلاحظ مالك بن نبى أن العالم الإسلامى حين استعمر ، لم يحدث له ذلك إلا لقابليته للاستعمار . . لأن الاستعمار يمارس عمله وتأثيره كحقيقة حين يكف نشاط المجتمع كفا فعليا .

وإذا كنا نجد اليوم شيئا يدوى فى جوانب النفس الإسلامية ، فيردها قادرة على تغيير ذاتها ، والتخلى عن جمودها ، فلن يكون هذا الشىء سوى الإسلام . .

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[1] .

إن المجتمع الإسلامى الأول لم يؤسس على عاطفة مجردة ، أو شعور حلو بالرغبة فى التغيير ، بل قام على أساس جوهرى هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . . وهى مؤاخاة أسست على القرآن . . وكانت الآية القرآنية تستخدم هنا كوسيلة منطقية تساق لغرض تعليمى . .

كانت الآية القرآنية هى المعلم المباشر للإنسان . . وكانت تمس ضميره وحياته وجوانب فكره ومناحى سلوكه مباشرة . .

يتحدث مالك بن نبى فى نهاية كتابه « وجهة العالم الإسلامى » عن مدرسة إصلاحية عملية فى تصوره . . ويقول أن تعاليم هذه المدرسة كانت تنادى بالتضامن الإسلامى القائم على فكرة الأخوة . . وكان زعيم هذه المدرسة لا يستخدم سوى الآية القرآنية ، ولكنه كان يستخدمها فى نفس الظروف النفسية التى كان يستخدمها فيه النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الرعد آية ١١ .

وصحابته من بعده ، ويرى مالك بن نبى أن السر كله يكمن فى هذا التصرف . .

أن تستخدم الآية القرآنية كأنها فكرة موحاة . . لا فكرة محررة مكتوبة . . ولقد أتيح لهذا الزعيم أن يؤثر فى سامعيه تأثيرا عميقا . . ولم يكن يفسر القرآن ، بل كان يوحيه إلى الضمائر ليزلزل كيانها . . ولم يكن القرآن على شفتيه وثيقة محايدة ، أو قانونا مكتوبا ، بل كان يتفجر كلاما حيا ، وضوءا أخاذا يتنزل من السماء ، فيضىء ويهدى ، ومنبعا للطاقة يكهرب إرادة الجموع . .

ولم يكن الرجل يتحدث عن ذات الله ، كما صورها علم الكلام . . لم يكن يتحدث عن الله العقلى . . بل كان يتحدث عن الله المتجلى على عباده بالرحمة والقهر ، الفعال لما يريد ، تماما كما كان المسلمون الأولون يستشعرون حضوره فيما بينهم ، ونفحته المادية فى بدر وحنين . .

يرى مالك بن نبى ان مأساة المسلمين اليوم يمكن أن تحل أو تحولت الحقيقة القرآنية إلى أثر مباشر على الضمير . . وهنا تفسح الفكرة المجردة مكانها لتشغله قيمة مادية محققة . . يعنى تركيبا ناشطا للفكر والعمل . . وهما الأمران اللذان يقوم عليهما كل تطور فى مجتمع يفكر فى عمله ، ويعمل بفكره . .

. . . .

هذه فكرة مالك بن نبى فى إنقاذ المسلمين من مأساتهم ، ان الأمل الوحيد أن تعود الآيات القرآنية إلى دورها كمعلم للإنسان . إن هذه الفكرة التى يضعها المفكر الإسلامى فى قالب حديث من التحليل . .

هذه الفكرة قديمة تدين بوجودها لأحد خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإصلاح فقال :

* ان تقرأ القرآن كأنه انزل عليك أنت . .

الشـــرك بالله

حق الله على عباده هو التوحيد . .

ونقيض التوحيد هو الشرك بالله ، وهذا هو الاعتداء على حق الله ، وهو اعتداء يقف العلماء جميعا ضده ، ويحذر الله منه .

ولقد رأينا كيف دعا محمد بن عبد الوهاب إلى توحيد الله بالابانة عن جزئيات الشرك وتفصيلاته ، ورأينا كيف وضح مالك بن نبى أن التوحيد حين يصبح فكرة ذهنية تحتل عقل إنسان ما ، ولا تجد لها أثرا خارجيا فى الحياة أو المجتمع ، عندئذ يجوز أن نسمى هذا الإنسان بإنسان ما بعد الموحدين ، إشارة إلى ابتعاده عن حقيقة التوحيد . . وسنرى كيف يتناول محمد الغزالى المشكلة على أرض الواقع ، فهو مفكر إسلامى وداعية إلى الله ، وهو يلمس عمليا مدى انغماس المسلمين فى الخرافات التى تحمل معنى الشرك . .

يقول الأستاذ محمد الغزالى فى كتابه عقيدة المسلم . .

« إذا رأيت المرء يحب غير الله أكثر مما يحب الله ، ويخاف العبد أكثر مما يخاف الرب ، ويتعلق قلبه بالناس أكثر مما يتعلق برب الناس ، ويصدر عمله ابتغاء رضاهم أكثر مما يطلب ثواب الآخرة . . فإذا نزلت به نكبة كان تفكيره فى فلان قبل تفكيره فى الله ، وإذا أصابه خير كان حمده لفلان أسبق من شكره لله » . .

فإعلم أن هذا الشخص قد أشرك .

ولئن كان بعض العلماء يقول : ان الشرك فى العمل غير الشرك فى الاعتقاد . . وان هذا شرك أصغر وذاك شرك أكبر .

والحقيقة ان المسألة أصعب مما يتصورون ومما يصورون للعامة »

أ هـ

. . . .

نريد أن نتوقف هنا لنسأل :

هل هناك شرك أكبر وشرك أصغر ؟

هذه مقولة بعض العلماء ، وهى مقولة مرفوضة من وجهة النظر الإسلامية . . لأن الفصل بين الاعتقاد والعمل شيء لا يعرفه الإسلام . .

الأصل فى العقيدة الإسلامية أن يؤدى الاعتقاد إلى عمل ، أو يسفر الاعتقاد عن عمل ، فإذا كان الاعتقاد شيئا ، وكان العمل شيئا آخر ، فنحن أمام إنسان ما بعد الموحدين . نحن أمام توحيد ناقص . . ساكن . . لا قيمة له ولا معنى ولا أثر . .

ان القول بأن الشرك فى العمل هو الشرك الأصغر . . أما الشرك فى الاعتقاد فهو الشرك الأكبر ، إن القول بهذا يؤدى إلى نتائج خطيرة . . لأنه يعنى الفصل بين الاعتقاد والعمل ، ويجعل الاعتقاد أهم من العمل ، ويتصور أن العمل أقل درجة من الاعتقاد . وهذا كله لا أصل له فى الإسلام . .

إن الله تبارك وتعالى يحاسب على النوايا حين ينظر إلى الأعمال ، فلا يقبل عملا لم يكن هدفه هو الله حتى لو وقع العمل . . فكيف يتصور الناس أن يثيب الله على أعمال لم تقع ، لأن النوايا المصاحبة لها كانت طيبة . .

إن الأمر هنا يكاد يبلغ حد الهزل . .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . .

إن الحديث الشريف يريد أن يقول أن إدعاء الهجرة إلى الله ، وإخفاء أغراض النفس تحتها لا تحتسب هجرة إلى الله رغم وقوعها . . كيف نتصور أن يرتكب العامة كل ما يرتكبون من آثام عملية ، ويحتجون بأن نيتهم لم تكن تنصرف إلى الشرك .

يقول الاستاذ محمد الغزالى فى فصل عن توحيد العامة فى كتابه :

« ينبغى لهذه الأمة أن تكون مثلا عاليا فى إسلام الوجه لله وإفراده بالنية والعمل ، ونحن نلحظ ـ آسفين ـ أن هناك مسالك شائعة بين الجماهير الغفيرة من المسلمين ، لها دلالتها الخطرة على فساد التفكير وضلال الاتجاه واضطراب المقصد . ولا نحب أن نوارب فى الكشف عن هذه العلة ، فإن أى خلل فى دعائم التوحيد معناه الخبل الذى يدرك موطن القيادة الفكرية فى هذا الدين الحنيف . . إذ التوحيد فى الإسلام حقيقة وعنوان ، وساحة وأركان ، وباعث وهدف ، ومبدأ ونهاية . ولسنا ـ كذلك ـ ممن يحب تصيد التهم للناس ، ورميهم بالشرك جزافا ، واستباحة حقوقهم ظلما وعدوانا . ولكننا أمام تصرفات توجب علينا النظر الطويل والنصح الخالص والمصارحة بتعاليم الكتاب والسنة .

لقد اهتمت حكومة انجلترا ـ فى سبيل مكافحة الشيوعية ـ بالحالة الدينية فى مصر ! فكان مما طمأنها على ايمان المصريين (! !) أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوى بطنطا هذا العام ، والذين زاروا الضريح ليسوا مجهولين لدى ، فطالما أوفدت رسميا لوعظهم ، فكنت أشهد من أعمالهم ما يستدعى الجلد بالسياط ، لا ما يستدعى الزجر بالكلام . . وكثرتهم الساحقة لا تعرف عن فضائل الإسلام وأنظمته وآدابه شيئا .

وحسبك من معرفة حالهم : انهم جاءوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والابتهال بالدعاء . . ولمن النذور ؟ . ولمن الدعاء ؟ . إنه أول الأمر للسيد البدوى . . فإذا جادلت القوم قالوا : أنه لله عن طريق السيد البدوى . . وأكثر هؤلاء المغفلين لغطا يقول لك : نحن نعرف الله جيدا . ونعرف أن أولياءه عبيده ، وإنما نتقرب بهم إليه ، فهم أطهر منا نفسا وأعلى درجة . .

وهذا الكلام غلط فى الإسلام . .

ان الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا أن نجىء معنا بالآخرين ليحملوا عنا حسناتنا ، أو ليستغفروا لنا زلاتنا . . فالمعروف من بديهيات الإسلام الأولى ، أن الطلب ووسيلته جميعا يجب أن يكونا من الله ، وليس يغنى فى الدفاع عن أولئك الجهلة من العوام أنهم يعرفون الله ، ويعرفون أنه وحده مجيب كل سؤال ، وباعث كل فضل ، وأن من دونه لا يملكون من ذلك شيئا ، فإن هذه المعرفة لا تصلح ولا تقبل إلا إذا صحبها إفراد الله بالدعاء والتوجه والاخلاص ، فإن المشركين القدماء كانوا يعرفون الله كذلك .

(قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله)[1] .

ومع أنهم يقولون الله بصراحة وجلاء ، فلم يحسبوا بهذا القول مؤمنين ، لأن الايمان - إذا عرفت الله حقا - ألا تعرف غيره فيما هو من شئونه .

ولذلك يستطرد القرآن فى مخاطبة هؤلاء .

(فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون)[2] .

أن العامة عندما يشدون الرحال إلى قبور تضم رفات بعض الناس ، وعندما يهرعون بالنذور والحاجات والأدعية إلى من يظنونهم أبوابا لله ، إنما يرتكبون فى حق الإسلام مآثم شنيعة ، ومهما قلبنا عملهم هذا من جميع وجوهه فلن نجد فيه ما يطمئن إليه ضمير المؤمن أبدا ، ومحبة الصالحين وبغض الفاسدين من شعائر الإسلام حقا ، ومظاهر الحب والبغض معروفة ، هى مصادقة للأحياء أو منافرة ، واستغفار للموتى أو لعنة ، وأين من عواطف الحب والبغض هذا الذى يصطنعه المسلمون اليوم ؟ أن الواحد منهم قد يصادق أفسق الناس ، وقد يقطع والديه وهما أحياء ، ثم تراه مشمرا مجدا فى الذهاب إلى قبر من قبور الصالحين ، لا ليدعو له ، ويطلب من الله أن يرحم ساكن هذا القبر ، بل ليسأل صاحب القبر من حاجات الدنيا والآخرة ما هو مضطر إليه ، وذلك ضلال مبين .

وبناء المعابد على قبور الصالحين تقليد قديم ، وقد ذكر القرآن ما يدل على شيوعه فى الأمم السابقة ، ويظهر أن اتخاذ المساجد على القبور لم يكن محظورا أول أمره كنحت التماثيل إذ لم تكن له دلالة مثيرة ، غير أن البشر سفهوا أنفسهم ، فالأحجار التى نحتوها للعظماء عبدوها ، أو على حد تعبيرهم أتخذوها إلى الله زلفى ، والمعابد التى أقاموها على قبور الصالحين قدسوها وسلكوها مسلك الأصنام فى الشرك ، فلما جاء الإسلام أعلن على هذين

---

(١) سورة يونس الآية ٣١ .

(٢) سورة يونس من الآية ٣١ والآية ٣٢ .

المظهرين من مظاهر الوثنية حربا شعواء ، وشدد تشديدا ظاهرا فى محق هذه المساخر .

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن يسوى بالأرض كل قبر وأن يهدم كل صنم ، فجعل الأضرحة العالية والأصنام المنصوبة سواء فى الضلالة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى البيان عن سفاهة القدماء وفى التحذير من متابعتهم « لعن الله اليهود والنصارى ، إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . ألا لا تتخذوا القبور مساجد . انى أنهاكم عن هذا » . وكان يرفع الغطاء عن وجهه فى مرض الموت ويكرر هذا المعنى . وكأنه توجس شرا مما يقع بعده فدعا الله « اللهم لا تجعل قبرى من بعدى وثنيا يعبد » ومع كثرة الدلائل التى إنتصبت فى الإسلام دون الوقوع فى هذا المحظور ، فقد أقبل المسلمون على بناء المساجد فوق قبور الصالحين ، وتنافسوا فى تشييد الأضرحة حتى أصبحت تبنى على أسماء لا مسميات لها ، بل قد بنيت على ألواح الخشب وجثث الحيوانات . ومع ذلك فهى مزارات مشهورة معمورة ، تقصد لتفريج الكرب ، وشفاء المرضى ، وتهوين الصعاب .

وأحب ألا أثير فتنة عمياء بهدم هذه الأضرحة .

فان النبى صلى الله عليه وسلم امتنع عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد ابراهيم ، لأن العرب كانوا حديثى عهد بشرك .

وجماهير العامة الآن ينبغى أن تساق سوقا رفيقا إلى حقائق الإسلام حتى تنصرف - فى هدوء - عن التوجه إلى هذه الأضرحة ، وشد الرحال إلى ما بها من جثث » أ . هـ .

. . . .

هذا رأى عالم فى الدين وداعية إلى الله . .

وهو رأى يثير عليه غضب العامة ، ولكنه رجل لا يعبأ إلا برضا الله عز وجل . . والحق أن الغزالى يصيب الهدف بدعوته ، ويشير لحقيقة الداء بتشخيصه ، فإن المجتمعات الشرقية تعيش أسلوبا مدهشا فى حياتها ، ويرجع سر تأخرها لهذا الأسلوب ، لا تعرف هذه المجتمعات قانون البقاء للأصلح ، ولا تتقدم فى هذه المجتمعات أفضل الأنواع فيها ، إنما يمضى فيها كل شىء بالوساطة والمعرفة الشخصية ، وهى وساطة تجد لها نصيرا فى

العرف العام ، وهو عرف مدنى يستمد وجوده من العرف الدينى القائل بوساطة الموتى والأولياء . . ومن الغريب أن العقيدة الإسلامية لم تعط النبى صلى الله عليه وسلم حق التوسط بين الناس والله ، وإنما جعلته رسولا من الله ، وداعيا إليه ، ومبشرا ومنذرا ، فهو خلافا لعقائد النصارى لا يحمل عن أحد خطاياه ، وهو خلافا لعقائد اليهود لا يجعل أمته شعب الله المختار ، وهو لا يغنى عن أحد حتى أبناءه فى قوانين الله ، سواء كانت هذه القوانين تتصل بسلوك الناس على الأرض ، أو تتصل بالعالم الآخر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » . إذا كان هذا موقفه فى حد من حدود الله على الأرض .

فكيف يكون موقفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المتوسلين بالموتى ، أو المعتقدين فى كراماتهم ؟

إن الإسلام يأمر أتباعه أن يسألوا الله مباشرة . .

بلا وساطة من نبى أو ولى . .

والعقيدة الإسلامية واضحة أشد الوضوح فى التوحيد . .

إنها تأمر أن تكون العبادة لله وحده ، وأن تكون الاستعانة بالله وحده . .

قال تعالى : (أياك نعبد وإياك نستعين)[1] .

ورغم وضوح العقيدة الإسلامية التام فى مجال التوحيد ، فقد تعلق العامة بكثير من الشبهات ، وهى شبهات مصدرها الجهل بدين الله ، أو التعلق بالخرافة . . وقد سيقت إلى الشيخ محمد الغزالى حجج القائلين بالوسيلة ، ورد عليها جميعا . .

قيل له أن جمهور الناس عصاة والله إنما يتقبل من المتقين . وأن الإنسان لو ذهب إلى ربه وهو يحمل السيئات لم يجبه الله ، فلماذا لا يبحث الإنسان عن وساطة مقبولة كولى صالح ، قيل له أنه لا يجوز القول بأن هذا شرك ، لأن النية هى أساس الحكم على الأعمال ، والمتوسلون لم ينووا شركا أو يرضوا به . . قيل له أن الصحابة والفقهاء والأئمة كانوا يتوسلون إلى الله بالأنبياء والأولياء ، وقد توسل عمر بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) سورة الفاتحة آية ٥ .

ثم ان هناك آية قرآنية تفيد أن بركة الأموات تصل إلى الأحياء . . (وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما)[1] .

هذه هى جملة الشبه التى تعلق بها طائفة من الناس وقد إنبنت عليها مسالك طائشة عكرت رونق التوحيد الخالص . . وقد غالب الغزالى السآمة التى تعتريه كلما خاض فى هذا الحديث أو سطر فيه حرفا ، فإن الجدل فيه طال مع وضوح الحق ، ولم يبق إلا أن يحمل الناس عليه حملا . .

بعد ذلك أوضح الغزالى حقيقة هذه الشبهات . .

قال : أن لجوء العاصى إلى الله مع واسطة . . كلام لا أصل له فى الإسلام قط . .

إن إبليس دعا ربه مباشرة وأجيب . .

(قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون)[2] .

والمشركون دعوا الله مباشرة وأجيبوا .

(دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق)[3] .

فهل يحرم عصاة المسلمين من حق أخذه إبليس وجنوده ؟

إن أى مسلم يقع فى خطأ فعليه أن يجأر بالدعاء إلى الله على عجل ، من غير توسيط نبى ولا ولى ولا إنسان ولا شيطان .

(والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله)[4] .

ثم أن الرجل إذا كان بحالة لا يقبل منه دعاء معها ، فلن يقبل فيه دعاء غيره ، ولو كان الداعى سيد الأنبياء .

ألا ترى كيف رفض إستغفار الرسول لعبد الله ابن أبى .

أما القول بأن العمل لا ينظر إليه ، وإنما تعتبر النية المصاحبة له ، فغير صحيح ، إذ العمل المقبول دينا يجب أن تتوافر فيه النية الصالحة والصورة المشروعة . . وفقدان العمل لأحد هذين الركنين يبطله .

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٢) سورة الحجر آية ٣٦ .

(٣) سورة يونس من الآية ٢٢ : ٢٣ .

(٤) سورة آل عمران من الآية ١٣٥ .

فالعلم الذى يتفق ظاهره مع الشرع ، لا يقبل إذا كان صاحبه مرائيا أو منافقا . .

والنية الصالحة إذا إنحرفت عن الطريق الذى يرسمه الدين ، فلا قيمة لها ولا يلتفت إليها ، ولماذا نستحى من وصف المتوسلين بالقبور . . بالشرك . . مع أن الرسول وصف المرائين به فقال : « الرياء شرك » . .

أما القول بأن الصحابة كانوا يتوسلون إلى الله بأشخاص الأحياء أو الأموات فليس صحيحا ، وما يروى من شعر منسوب إلى الإمام الشافعى فمنحول ولا أصل له . . ودعاء الإنسان لنفسه ولغيره مطلوب ، وقد أمرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو بعضنا لبعض بظهر الغيب ، وفى حدود تلك الدائرة من استعطاف العبيد لله ، وتواصيهم باسترحامه ، طلب عمر من العباس أن يدعو الله للمسلمين ، فدعا العباس قائلا : « اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة . . فإسقنا الغيث » . .

بقيت الآية الكريمة التى تقول : **(وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما)**(١) .

إن الآية تفيد أن صلاح الآباء يمتد أثره إلى الذرية ، كما أن فسادهم ينتقل خطره إليها . .

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله)(٢) .

إن معنى الآيتين أن الله يثيب على التقوى ، ويجزى على العصيان ، وقد أكرم الله الغلامين اليتيمين لأن الأب كان صالحا ، وتم هذا الإكرام دون أن يتوسل به أحد ، إنما اقتضته حكمة الله دون تدخل بشرى .

وقد كان ابراهيم من نسل رجل كافر ، وكان لنوح ابن عنيد الضلال . . وليس صلاح الأبوة بمثابة قانون يعنى صلاح الأبناء . . والله تعالى يقول فى ذرية نوح وابراهيم **(ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)**(٣) .

---

(١) سورة الكهف آية ٨٢ .

(٢) سورة النساء آية ٩ .

(٣) سورة الصافات آية ١١٣ .

يحتج القائلون بالتوسل بقوله تعالى : (**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك**)[1] .

وليس فى الآية تصريح ولا تلميح بجواز التوسل . . ينصرف معنى الآية لحياة الرسول ، أما شطحات الصوفية وأحلامهم فليست حجة على أحد . . ومصادر التشريع معروفة ، وليس فيها أن فلانا الصالح رأى فى منامه كذا وكذا ، فنحن لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لهذه الحكايات . .

سيقول بعض الناس : أن القدماء كانوا يعبدون ، أما العامة اليوم فهم يدعون ويسألون فقط ، وشتان بين عبادة الجاهلية وتوسل المحدثين بأولياء الله . .

ويرى الاستاذ الغزالى أن هذه مغالطة ، لأن السؤال والدعاء بنص القرآن والسنة عبادة محضة (**وقال ربكم ادعونى أستجب لكم أن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين**)[2] .

وفى الحديث « الدعاء مخ العبادة » . .

فلماذا نتوجه إلى البشر بما هو من خصائص الألوهية . .

وقد حرم الله الشرك على العرب فهو على غيرهم حرام ، والقول بأن آيات الشرك نزلت فى أهل الجاهلية وحدهم خطأ . .

إن الآيات تنزل فتنطبق حين تتكامل شروط انطباقها . .

. . . .

. . . .

ما هى حقيقة الايمان بالله تعالى ؟ . .

هل هو معرفة فقط ؟ . أو تركيب يتضمن المعرفة والعمل ؟

هل يزيد الايمان وينقص ، أو يظل ثابتا فلا يتأثر ؟

ما هو حكم مرتكب الكبيرة ؟ هل يكفر بارتكابها أم يظل على إيمانه ؟ أم يعد فاسقا ؟

ما هو الشرك الخفى ؟

هذه أسئلة تواجه العقيدة الإسلامية . .

---

(١) سورة النساء آية ٦٤ .

(٢) سورة غافر آية ٦٠ .

ذلك أن أى دين لا بد أن يواجه منذ لحظته الأولى مهمة التعريف باتباعه المؤمنين . . والتعريف بالخصائص التى تميزهم من غيرهم . .

وموقف العقيدة الإسلامية واضح كل الوضوح فى هذه المسألة . .

فى القرآن الكريم آيات وردت فى ٧٥ موضعا تؤكد أن الايمان ليس معرفة فقط ، إنما هو تركيب يتضمن المعرفة والعمل . . مثال ذلك قوله تعالى (**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا**)[1] .

ولو تأملنا الآيات الكريمة ، فسوف نلاحظ أنها تحدد المؤمن بثلاث علامات :

١ ـ مجرد ذكر الله يملأ قلبه بالمهابة والوجل . . والوجل هو الإحساس الناتج من التحير والإكبار والدهشة التى يحسها العقل أمام الله .

٢ ـ العلامة الثانية هى إقامة الصلاة .

٣ ـ العلامة الثالثة هى الإنفاق مما رزقه الله . .

أى أن الايمان أمر يتصل بالفكر . . والمشاعر . . والعبادة . . والاقتصاد .

إن الوجل القلبى شعور مصدره العقل . .

والصلاة رمز للعبادة ، وهى عمل مادى وحركات يركع فيها المرء ويسجد .

والإنفاق كناية عن الاقتصاد ، وهو سلوك . .

هذا هو الايمان كما يحدثنا عنه القرآن الكريم . .

هو اعتقاد عقلى يؤثر فى أحاسيس القلب ، وهو عمل تقوم به الجوارح فى العبادات ، وهو سلوك إقتصادى يطبع تصرفات المؤمن . .

أنت ترى أن الإيمان وصف يتركب من عوامل كثيرة ، ولذلك يزيد الإيمان وينقص إذا تعرضت هذه العوامل للزيادة أو النقص . .

أشارت النصوص القرآنية إلى أن الإيمان يزيد وينقص . . وفى ذلك اشارة إلى أنه تركيب يتضمن المعرفة والعمل . . إذا زادت المعرفة زاد

---

(١) سورة الانفال آية ٢ ، ٣ وجزء من الآية ٤ .

الإيمان ، وإذا زاد العمل زاد الإيمان ، وإذا نقص شيء من هذا أو تلك نقص الإيمان .

أحيانا ترد فى القرآن الكريم آيات يوحى ظاهرها بأن الإيمان قول فقط . مثال ذلك قوله تعالى : **(فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار)**[1] وتفسيرنا لهذه الآيات أن الله تبارك وتعالى يحدثنا عما قالوه ، ولا يتعرض لذكر ما فعلوه ولكن الأمر المؤكد أن ما فعلوه كان مطابقا لما قالوه ، ولذلك استحقوا الجنة . وقد طوى السياق القرآنى الفعل وأبرز القول لأن أحدهما يكفى عن الآخر . . وأحيانا يكتفى السياق القرآنى بذكر « القول » ويختصر « الفعل » .

قال تعالى : **(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين . إتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إنى إذا لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين)**[2] .

يحدثنا القرآن الكريم عن كلمة الرجل « إنى آمنت بربكم فاسمعون » .

وبعدها مباشرة يحدثنا عن النتيجة « قيل أدخل الجنة » . . غير أن السياق يختصر قصة الرجل كلها . .

لقد قتل هذا الرجل بعد أن وقف بكلمته الشجاعة أمام مجتمعه ومن المؤكد أنهم قتلوه بعد أن عذبوه . . ولعلهم إتهموه بمحاولة قلب النظام واحداث فتنة باتباعه المرسلين . .

وهكذا طوى السياق قصته واكتفى بسرد ما قاله وجزاء ما ناله .

تجاوز السياق عن القتل والتعذيب « وهما أمران مؤقتان » ونفذ إلى الأمر النهائى الخالد الذى ناله الرجل « وهو رضا الله فى الجنة » .

هذا هو الايمان . .

فكر وعمل . . شعور وتصرف . . إحساس وجهاد . .

---

(١) سورة المائدة آية ٨٥ .

(٢) سورة ياسين من الآية ٢٠ : ٢٧ .

نحن نتحدث عن ايمان الإنسان . . والإنسان مخلوق مركب معقد ، رائع التركيب بالغ التعقيد . . والايمان الإنسانى أمر مركب معقد . .

ولو كان الإنسان مخلوقا بسيطا يتكون من خلية واحدة . . لقلنا ان ايمان الإنسان بسيط كالإنسان . .

لا ننكر دور الفكر فى الإيمان ، ولا ننكر دور اعلان هذا الفكر ، وهو القول ، ولكن القول فى العقيدة الإسلامية لا يغنى عن الفعل . . إلا إذا كان الطريق إلى الفعل مسدودا بأمور تخرج عن قدرة الإنسان . .

إذا كان الإيمان يزيد وينقص ، فما هو حكم من يرتكب كبيرة من الكبائر كالقتل أو الزنا أو السرقة . . هل يخرج من وصف الإيمان بارتكاب جريمته ؟

وردت فى السنة أحاديث يوحى ظاهرها بأنه يخرج من الإيمان . . كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » وهذا يوحى بأن الإيمان ينخلع عن الإنسان حين يرتكب كبيرة من الكبائر . . وهناك أحاديث يوحى ظاهرها بالعكس كقوله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار » وتفسير هذه الأحاديث يسير . . ليس هناك تناقض ولا خلاف . .

إن الإيمان وصف مركب ، أحيانا يزيد وأحيانا ينقص ، وارتكاب المسلم لجريمة من الجرائم يسلب عنه وصف الإيمان ويدخله فى وصف الفسق ، فإذا تاب وأصلح وعاد إلى الإيمان عاد إليه الإيمان ، وإذا أستمر على جرائمه نقص ايمانه حتى يجىء عليه وقت يصير فيه رصيده منه صفرا ، عندئذ يدخل النار . .

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[1] . .

إن كسب سيئة نوع من أنواع الظلم الذى يصيب الإنسان نفسه به ، فإذا زادت نسبة الظلم فى عمل الإنسان على نسبة العدل ، زحزحه هذا عن مرتبة الإيمان إلى مرتبة أخرى . . لا يكون مؤمنا ولا يكون كافرا . .

---

(١) سورة البقرة آية ٨١ .

يصير مؤمنا ظالما كما يقول أبو حنيفة . فإذا زاد ظلمه دخل فى مرتبة الفسوق . فإذا زاد فسقه وصار طبعه هو المعصية لله والرسول وتعدى حدوده . . استحق النار هو والكافر سواء .

قال تعالى : (**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها**)[1] .

إذا كان الإيمان يزيد وينقص . . فما هو الشرك الخفى ؟

ان بداية الإيمان هى اعتقاد العقل . .

وبداية الشرك هى مشاعر القلب . .

وفى الإيمان جزء خفى كاعتقاد العقل ومشاعر القلب ، وفيه أجزاء ظاهرة كأداء العبادات والعمل . .

وفى الشرك أجزاء خفية وأجزاء ظاهرة هو الآخر . . بداهة أن الشرك نقيض الإيمان . .

والشرك الظاهر معروف ، أما الشرك الخفى فقد وضع له الرسول صلى الله عليه وسلم قاعدة عامة . .

قال صلى الله عليه وسلم :

« الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور . . وأن تبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض » . .

ثم تلا قوله تعالى : (**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**)[2] .

يريد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول أن اخلاص التوحيد يعنى محبة العدل وكراهية الظلم . .

يريد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل التوحيد فى أخص خصائص الحياة الإنسانية . .

يريد أن يدخل التوحيد فى منطقة المشاعر الإنسانية . . فيحب الإنسان ويكره بناء عليه ، وبهذا الدخول ينزل التوحيد إلى مجال عمله الطبيعى ، ويكتسب معناه وفعاليته . .

---

(١) سورة النساء من الآية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣١ .

وبهذا الحديث الشريف ، تضع العقيدة الإسلامية فى أيدينا ما يمكن أن نسميه بقانون التوحيد . .

إن التوحيد حقيقة . .

غير أن هناك فرقا بين الحقيقة كفكرة مجردة يخبئها الإنسان فى عقله أو يكنزها فى تلافيف مخه . . وكونها قانونا مؤثرا يتحكم فى حركة الإنسان ويسيطر على تصرفاته . .

وكل حقائق الإسلام لم تنزل ليحتفظ بها الناس فى عقولهم ، أو يتمتمون بها بين شفاههم . .

إن الإدخار العقلى لحقائق الإسلام . . يفقد هذه الحقائق كل معناها ، ويحولها إلى نوع من أنواع الزخارف والحلى ، ويهدر الحكمة الأصلية فى استخلاف الله للبشر .

ولهذا جاء حديث النبى صلى الله عليه وسلم واضحا فى الدلالة على أن التوحيد ليس فكرة عقلية مجردة ، انما هو قانون يجب أن ينتج أثره فى الحياة ، ولقد كان اهدار هذا القانون هو المسئول عن كثير من مآسى العالم الإسلامى . .

حين اقتصر التوحيد على قول لا إله إلا الله ، ولم يعد شهادة وحركة مؤثرة . . حين اكتفى المسلمون بالقول بدلا من الفعل . . حين صاروا يفسرون التوحيد هذا التفسير النظرى ، ويرون أن الإعتقاد ينفصل عن الفعل ، وإن هناك شركا أصغر وشركا أكبر . . حين وقع هذا صار سهلا أن يكره الناس العدل ويحبون الظلم ، صار مألوفا أن يسند الناس الظالمين ـ ولو بالسكوت ـ إزاء أهل الحق ، وأصبح من المنطقى أن ينسحب القرآن من حكم النفوس والمجتمعات . . وانكسر بذلك قانون من قوانين الحياة والخلافة فى الأرض . .

قانون اختيار الأفضل . . سواء فى شخص الحكام أو شكل الحياة أو أسلوب العمل والانتاج أو علاقات الزواج والتربية . .

وبإنكسار هذا القانون بدأ عطش المسلمين وانحدارهم ، وهو انحدار لا نجاة منه إلا بالعودة إلى منابع التوحيد الأولى ، حين كان التوحيد يحكم أسلوب الحياة ويوجه مشاعر القلب . وينشىء الرغبة فى العمل . . ويهيمن عليه .

ذكـــر الله

ليس هناك مجد يرتفع إليه المخلوق أعظم من ذكر الله .

إن تسبيح المخلوق للخالق . . نوع من أنواع الاتصال التى ترفع المخلوق لآفاق عاليه . . وفى الأنبياء من كان يذكر الله ويسبحه ، فإذا الطيور والجبال تستجيب معه ، وتشترك فى التسبيح . . قال تعالى :

(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين)(١) .

كان داود إذا جلس يسبح الله ويمجده ، تعرت الكائنات من إطار الوجود الجامد ، وانكشف باطنها المترنم بمجد الله ، واستجاب هذا الباطن للنغم الصادر من داود .

تقوم العقيدة الإسلامية على أن الكائنات جميعا تعرف الله ، وتتجه إليه بالسجود والتسبيح والذكر .

حتى ما يصعب علينا إدراك كيفية سجوده . . كالشجر والنجوم . حتى هذا يسجد .

(والنجم والشجر يسجدان)(٢) .

حتى ما لا نستطيع فهمَ أسلوب تسبيحه . . كالرعد والملائكة . .

(ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته)(٣) .

كل ما فى الكون من خلائق . . تعرف الله وتذكره وتسبحه وتسجد له . الجبال والطير والرعد . .

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٧٩ .
(٢) سورة الرحمن آية ٦ .
(٣) سورة الرعد من الآية ١٣ .

ثلاثة أنواع من الخلائق . .
إن الجبال أصلا صخور أو جماد . .
والطير جنس من الأحياء . .
والرعد تفريغ شحنة كهربائية بين السحاب . .
انت ترى أن كل شيء يختلف عن الآخر . .
برغم ابتعاد أنواعها وتنائى مصائرها واختلاف حقائقها ، نراها تجتمع فى شيء واحد هو التسبيح . .
كيف تسبح الجبال والطير والرعد . .
هذا سرها الذى يعلمه خالقها وحده . .
نحن نرى النجوم تومض فى أماكنها ، كما نرى الشجر ثابتا فى الأرض . .
لم نر نجما يسجد ولا رأينا شجرة تحنى ساقها وتلمس بفروعها الأرض . .
ورغم هذا فان النجوم تسجد والشجر يسجد . .
نجهل كيفية سجودها ولكننا نوقن أنها تسجد . .
لا شيء فى الكون يستعلى على ذكر الله أو تسبيحه أو السجود له . .
تحدثنا العقيدة الإسلامية أن كل شيء فى الكون يسبح بحمد الله وإن كنا لا نعرف تسبيحهم . .
(تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[1] .
ترسم الآية ظلالا لملايين الخلائق المختلفة التى تشترك كلها بأسلوبها الخاص وطريقتها الغامضة فى تسبيح الله . .
إذا كانت الجمادات والأشياء تسبح بحمد الله وتذكره . .
أليس أولى بالإنسان - وهو أرقى الخلائق - أن يذكر الله . .
يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يذكروه . .
(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا)[2] . وتقدم الآية الكريمة الذكر على التسبيح . . الأمر الذى يوحى

(١) سورة الاسراء الآية ٤٤ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٤١ ؛ ٤٢ .

أن التسبيح نوع من أنواع الذكر . . كما يحدثنا القرآن الكريم أن الذكر أشمل وأعم من التفكير . . لأنه يقود إلى التفكير . .

قال تعالى : **(الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)**(١) .

ما معنى ذكر الله ؟

ولماذا يأمر الله المؤمنين أن يذكروه كثيرا ؟

. .   . .

قبل أن نجيب نريد أن نستبعد ما يقع فى هذه الأيام فى موالد الأولياء من رقص يطلق عليه اسم الذكر . .

إن الذين يقفون صفوفا ويبدأون فى الذكر ويتمايلون على دق الطبول لا يذكرون الله . . إنهم يتصورون أنهم يذكرون الله . . والحقيقة أنهم يبعثون الحياة فى تقليد وثنى من تقاليد اليهود . .

فى قصة موسى ، يحدثنا القرآن الكريم أن السامرى أضل قوم موسى وصنع لهم عجلا من الذهب ، وقد شرح العلماء كيف كانوا يعبدون العجل بهذا الأسلوب . . كانوا يقفون صفوفا حوله ويبدأون فى الرقص والتواجد . .

من يومها بدأت فتنة الذكر بهذا الأسلوب .

روى القرطبى فى تفسيره أن الامام أبا بكر الطرطوشى سئل عن جماعة من الرجال يكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ويوقعون بالقضيب على شيء من الأديم . (يقصد الطبل) ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه . ويحضرون شيئا يأكلونه . .

سئل الإمام هل الحضور معه جائز ؟

كان الجواب أن مذهب الراقصين بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثهما أصحاب السامرى ، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون . . فهو دين الكفار وعباد العجل .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩١ .

وإنما كان يجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، وعلى السلطان ونوابه أن يمنعوا هذه المساخر ويمنعوا الراقصين من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا أن يعينهم على باطلهم . . وهذا مذهب الأئمة الأربعة : مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل .

إذا استبعدنا رقص الراقصين من الذكر فما هو المقصود بالذكر ؟ سنواجه هنا قانون المستويات . .

إن أبسط أنواع الذكر ذكر اللسان لله . . كالتلفظ باسم الذات الإلهية . . وفوق هذا المستوى حضور فكرة الله فى القلب .

وهناك ذكر الله تعالى بإقامة حكمه فى الأرض ، وتطبيق قرآنه على الحياة . . وهناك ذكر الله تعالى أثناء العمل اليومى للإنسان . . ويأخذ هذا الذكر شكل الابداع فى العمل مع توجيه النية فيه إلى الله .

ومعنى ذكر الله ، أن يدرك الإنسان أن له خالقا يراه .

والذكر يعنى الحياة . . لأن الإنسان مخلوق هالك . . والله هو الحى القيوم ، والاتصال بالله يعنى الاتصال بمصدر الحياة الحقيقية . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت » . .

هذه الصورة التى يقدمها الرسول للذكر ليست تعبيرا أدبيا ، إنما هى حقيقة يقينية . إن الذين يذكرون الله هم الأحياء . . أما الذين انقطع الاتصال بينهم وبين الله فقد انقطعت صلتهم بالحياة . . حتى لو أحدثوا أكبر ضجيج يمكن إحداثه فى الدنيا . .

وذكر الله يعنى عبادة الله . . كالصلاة والصوم والحج والجهاد . .

وذكر الله يعنى إسلام الوجه لله . .

وليس هناك شرف فوق شرف الذكر ، ولا قيمة أخطر من إستحضار جلال الله فى القلب والسجود لعظمته والإستسلام لأمره . .

وذكر الله يعنى حب الله تعالى . .

وليس بعد درجة الحب درجة . .

هذا كله من معانى الذكر . كما أن من معانيه المعرفة .

معرفة الحياة ودقائقها . . ومعرفة العلوم وحقائقها . .

إن الله علم آدم الأسماء كلها . . والعودة لهذا العلم ذكر لله . .

فسر شيخ الجامع الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود قوله تعالى :

(فاذكرونى أذكركم)[1] .

قال : ان (إذكرونى) معناها : تذللوا لجلالى .

أما (اذكركم) فمعناها ، أكشف الحجب عنكم وأفيض عليكم رحمتى وإحسانى وأحبكم . .

. . . .

هذه بعض معانى الذكر ، أما أنواعه فيقسمها العلماء إلى نوعين :

ذكر اللسان .

وذكر القلب . .

وذكر اللسان هو الطريق الذى يصل به العبد إلى إستدامة ذكر القلب . .

يقول الإمام القشيرى « إذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه » . .

ومن المدهش أن العلماء يرون أن الذكر نوعان . . ذكر اللسان وذكر القلب ، من المدهش أنهم يغفلون ذكر العمل . . وهو أرقى أنواع الذكر وأخطرها ، ويبدو أن الفصل بين ذكر اللسان والقلب ، وذكر العمل ، جاء نتيجة منطقية للفصل بين الاعتقاد والعمل . . وهو بدعة أحدثها أهل الزمان الأخير ، ولم يعرفها عصر النبى صلى الله عليه وسلم . .

ذلك أن عصر النبوة كان يعرف أرقى أنواع الذكر . .

نقصد بذلك الذكر العملى الذى يتمثل فى إقامة الدولة الإسلامية ونشر الدعوة والجهاد فى سبيل الله والمتسضعفين من الرجال والنساء والولدان . .

يقول الله تعالى :

(وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمتسضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)[2] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٢ .

(٢) سورة النساء آية ٧٥ .

إن القتال فى سبيل الله هو أرفع أنواع الذكر . . ويليه ذكر القلب وبعدهما ذكر اللسان . .

ومن المأساة أن نفصل الذكر العملى عن ذكر القلب أو اللسان . . لأن الله تبارك وتعالى لا يناله شىء من ذكر الذاكرين ، إنما ينال الذاكرين ما ينالهم من تقدم إذا ذكروا الله . . والأصل فى ذكر الله أن ينتشر أثره فى الحياة . . وأن يعم فضله على الناس . . ولا يقع هذا التأثير إلا من الذكر العملى الذى يقوم فيه المسلم بدوره كحارس لقيم الخير البشرية وكمسئول عن قتال الألم والشرور فى الأرض . .

أما ذكر القلب واللسان فلا يمتد أثره لغير صاحبه ، وعلى المستوى الشخصى يرتفع الذاكر إلى درجة من الشرف أشار إليها الحديث القدسى بقوله « أنا جليس من ذكرنى » .

أما الذكر العملى فيؤدى إلى الفلاح . . قال تعالى : (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[1] .

ولو تأملنا سياق الآيات فسوف نعلم أن الله تعالى يتحدث عن الذكر العملى . .

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[2] .

تتحدث الآية عن ذكر الله مرتين . .

مرة إذا نودى للصلاة . .

ومرة ثانية بعد قضاء الصلاة والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله ، أى العودة إلى الحياة اليومية والعمل . .

والمقصود بالذكر فى المرة الأولى هو الصلاة ذاتها ، وهذا هو ذكر اللسان والقلب ، أما المقصود بالذكر فى المرة الثانية ، فهو الذكر العملى الذى

---

(١) سورة الجمعة اية ١٠ .

(٢) سورة الجمعة آية ٩ ـ ١٠ .

يلازم الحياة اليومية ، ويأخذ شكل إقامة الخلافة فى الأرض . . ويرتب الله تعالى عليه الفلاح .

. .   . .

أخرج الامام البخارى حديثا قدسيا يرويه الرسول عن ربه . .

« قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة » . .

يشير الحديث القدسى إلى أنواع الذكر . . ويوضح جزاء كل نوع من هذه الأنواع . .

وذكر الإنسان لربه فى نفسه هو ذكر القلب واللسان ، أما ذكر الإنسان لربه فى ملأ ، فينصرف فى رأينا إلى الذكر العملى الذى يقيم الأخلاق والحكم بأمر الله فى الأرض . .

وذكر الله تبارك وتعالى ليس مقيدا بوقت معين ، فكل الأوقات تصلح للذكر ، حتى اللحظات التى يقاتل فيها المسلمون ويواجهون عدوهم ولا يستطيعون الصلاة لإنشغالهم بالأعمال العسكرية . . فى هذه اللحظات يقوم مقام الصلاة أن يرفع المسلم رأسه ويقول « الله أكبر » . . .

إذا استحالت الصلاة فإن الذكر يغنى عنها . .

. .   . .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على جماعة من أصحابه فسألهم ما أجلسهم . . فحدثوه أنهم جلسوا يذكرون الله ويحمدونه على ما هداهم للإسلام ، فاستحلفهم الرسول فحلفوا له ، قال صلى الله عليه وسلم : أما أنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة . .

خليـــفة الله

الإنسان هو خليفة الله فى الأرض . .

تقوم العقيدة الاسلامية على هذه الفكرة . . وتنبع الفكرة من القرآن الكريم لقوله تعالى . .

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة)[1] .

ولقد كان إسناد الخلافة فى الأرض للإنسان شرفا أثار حيرة الملائكة ، ولهذا حدثوا الله عز وجل بقول كان صادق الدلالة فى التعبير عن الحيرة . ..

(قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)[2] .

ويوحى قول الملائكة بالدهشة البالغة ، كما يقطع بأنهم لا يعرفون الغيب ، فقد فوجئوا بأمر الله فى استخلاف آدم ، كما غابت عنهم أسرار هذه الخلافة وحكمتها . . ولقد كان جواب الله عز وجل على تساؤلهم فى البداية قصيرا وحاسما . . رد فيه العلم إلى الله ونفاه عمن سواه . .

(قال إنى أعلم ما لا تعلمون)[3] .

اراد الله عز وجل أن ينبىء ملائكته الكرام أن له حكمة فى استخلاف آدم . . وهى حكمة يعلمها سبحانه وحده ولا يدريها الملائكة . .

ويوحى قول الملائكة السالف أنه كان لديهم من شواهد الحال ، كتجارب مخلوقات سابقة فى الأرض . . أو كان لديهم من إلهام البصيرة ، ما يكشف لهم عن شىء من طبيعة هذا المخلوق الجديد ، فعرفوا أنه سيفسد فى الأرض ، وتوقعوا أنه سيسفك الدماء . . ومن هنا تضاعفت دهشة الملائكة ،

(١ ، ٢ ، ٣) البقرة آية ٣٠ .

فهذا الخليفة رغم افساده المنتظر قد وقع عليه اختيار الله . . بينما يسبح الملائكة بحمد الله ويقدسون له ، ورغم ذلك تجاوزهم اختيار الله . .

ما هو السر فى هذا الأمر اذن ؟

ما الذى يملكه آدم ولا يملكه الملائكة ؟

ما الذى يعرفه آدم ولا يعرفه الملائكة ؟

ما الذى يزيد فيه آدم عن الملائكة رغم أنه خلق من طين الأرض . ؟

دارت هذه الأسئلة فى نفوس الملائكة ، ولهذا سارعوا بالسؤال . .

كتموا استشرافهم للخلافة فى الأرض .

وأبدوا حيرة عميقة لإسناد هذه الخلافة لآدم . . وينبغى هنا أن نصرف أذهاننا عن تصور سؤال الملائكة كإعتراض على أمر الله عز وجل أو مراجعته سبحانه ، فالملائكة خلق منزه عن الإعتراض . . إنما قادهم إلى السؤال أنهم - من بين مخلوقات الله - رمز النقاء والبراءة . . ومن حق البراءة أن تبدى دهشتها إزاء خليفة سيسفك الدماء . .

ولقد تصور الملائكة بفطرتهم البريئة أن التسبيح بحمد الله وتقديسه هو السر الأول فى الخلق ، وهو الغرض الأخير للوجود . .

وهذا الغرض متحقق بوجودهم هم . . فما هو السر فى أمر الله ؟

شاء الله تبارك وتعالى أن يطلع الملائكة على طرف من غيبه . .

شاء تعالى أن يخبرهم عن سر اختياره لآدم . . قال تعالى :

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)[1] .

يحدثنا الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة عن شأن من شئونه مع الملائكة . .

يحدثنا عن غيب لا ندرى كنهه أو كيفية وقوعه ، لا نعرف كيف سأل الملائكة ولا كيف أجاب الحق . . كل ما ندريه أن الله عز وجل لرحمته لم

---

(١) سورة البقرة آية ٣١ - ٣٣ .

يشأ أن يترك ملائكته فى حيرتهم ، فهداهم إلى سر آدم . . وأفهمهم أن خليفة الله فى الأرض يمتاز عن الملائكة بالعلم . . ويقل عنهم بقدرته على الخطأ . . ولسوف تتحقق حكمة الله فى عمارة الأرض واستعمارها من خلال هذا المخلوق الذى يزيد على الملائكة فى شىء ، وينقص عنهم فى شىء . .

ما الذى يزيده آدم على الملائكة ؟

بعبارة أخرى . . ما هو سر آدم ؟

(وعلم آدم الأسماء كلها)[1] .

جمع الله سر آدم وذريته فى هذه الكلمات الأربع . .

إن معنى تعليم الأسماء ينصرف إلى أكثر من مستوى . . إبتداء من القدرة على الرمز للأشياء بالأسماء . . وانتهاء بأسماء الله الحسنى . .

إن أول معنى لتعليم الأسماء ينصرف لهذه القدرة التى منحها الله لآدم . . وهى القدرة على استخدام الرموز . . أو القدرة على تسمية الأشياء بأسماء . . وبغير هذه القدرة تستحيل الحياة على الأرض واستعمارها . .

إن آدم يملك سرا يتمثل فى قدرته على التعبير باللغة والإشارة بها لشىء ، لا يهم ابتعاد الشىء أو قربه ، حضوره أو غيابه ، إن مجرد تسميته تكفى لاستحضاره فى الذهن فإذا هو حاضر . .

نحن نتحدث عن جبل . . أبسط من الذهاب إليه ذكر اسمه أو صفته . . هذا يكفى لحضوره رغم عدم حضوره . .

هذه القدرة على اللغة والنطق والكتابة وتسمية الأشياء . . هى امتياز خاص لهذا الخليفة الجديد الذى خلقه الله من طين الأرض ، وأسلمه مفاتيح بيته الجديد فى كوكب الأرض . .

أيضا ينصرف معنى الأشياء لمستوى أبعد من هذا . . ذلك مستوى المعرفة الإنسانية . . بكل ما تعنيه كلمة المعرفة من علوم انسانية أو طبيعية أو رياضية أو كيميائية .

لو تصورنا ـ مجرد تصور ـ أن الله تبارك وتعالى عرض على الملائكة الكرام صورة لشجرة وذرة وطائرة . . وسألهم عن أسماء هذه الأسماء ، فلم يعرف الملائكة العلاقة بين دفء الشمس وثمار الشجرة ، ولم يعرفوا تركيب

---

(١) سورة البقرة آية ٣١ .

الذرة ولا سر استخدامها فى الطب ، ولم يعرفوا كيف يمكن لمعدن أثقل من الهواء كالطائرة ان يطير فى الهواء . .

لو تصورنا هذا . . فكيف لهذا الجنس ببراءته البيضاء أن يعمر الأرض . .

لو تصورنا أن الله عز وجل أمر آدم أن ينبىء الملائكة بأسماء هؤلاء . . وتكلم آدم . . كلاما علمه الله له . .

لو تصورنا هذا لفهمنا ـ كبشر ـ سر إستخلاف آدم . . وهو نفسه السر الذى فهمته الملائكة . .

أيضا ينصرف معنى تعليم الأسماء الوارد فى الآية لذروة أخيرة . . نتحدث عن تعليم الإنسان أسماء الله الحسنى . . وانطباقها على مجالات الوجود الإنسانى . .

من أسماء الله تعالى الجبار . . كيف ينطبق الاسم إذا لم يخلق الله طاغية فى الأرض كفرعون لينطبق عليه عذاب الجبار يوم القيامة .

من أسماء الله تعالى الرحيم . . كيف ينطبق الاسم إذا لم يخلق الله نبيا فى الأرض كمحمد لينطبق عليه مجال اسم الرحيم ويكون رحمة للعالمين . .

حين تعلم آدم الأسماء كلها . . وانبأ الملائكة بها . .

حين وقع هذا ، أدرك الملائكة أن الله لم يشأ أن يعلمهم سر الأسماء . . واختار آدم لحمل هذا السر . .

حين وقع هذا ، فهم الملائكة سر اختيار آدم . . وفهم آدم حكمة اختياره . .

أدرك آدم أنه قد اختير خليفة لله فى الأرض . .

وقد كره بعض العلماء أن يقال عن بشر أنه خليفة الله ، وإحتجوا على ذلك بأن الذى يستخلف هو الذى يغيب أو يموت ، وتعالى الله على الغيبة وتعالى على الموت . . كما أنهم استندوا إلى كلام أبى بكر الذى نودى يوما « يا خليفة الله » فقال لست خليفة الله ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وأجاز بعض العلماء أن يقال عن بشر أنه خليفة الله ما دام قائما بأمر الله . .

ونحن مع الرأى الأخير لأكثر من سبب . .

الأول : وجود نص قرآنى صريح (**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة**)[1] .

الثانى : رفضنا تطبيق المنطق الإنسانى على الله أو أمر الله . . وإذا كان استخلاف الإنسان للإنسان يقع بسبب عجز الإنسان وحاجته إلى خليفة ، فإن استخلاف الله للإنسان قد وقع بسبب كمال الله المطلق ومشيئته النافذة وحاجة الإنسان إليه ، وإذا كان الاستخلاف البشرى يعنى التكليف بمهمة قد لا نكون حاضرين ساعة ادائها ، فإن الاستخلاف الالهى يعنى التكليف بمهمة تخضع لرقابة الله وتقع تحت سمعه وبصره سبحانه . .

واستخلاف البشر للبشر يعنى أن يكون الخليفة فى مركز النائب أو الوكيل .

أما استخلاف الله للبشر يعنى أن يكون الخليفة فى وضع العبد الطائع لا أكثر . .

وإذا كان استخلاف البشر للبشر يحمل معنى النيابة أو الوكالة . . فإن استخلاف الله للإنسان يعنى التكليف بحمل أمانة معينة . . ولا ينصرف مطلقا لمعنى النيابة أو الوكالة . .

يرى المفكر الإسلامى وأستاذ القانون عبد القادر عوده « ان الله قد أسكن عبيده الأرض وسخر لهم ما فى الكون منحة لهم ، وإذن فهو يعتبر أن ما فى أيدى هؤلاء العبيد من ملك الله إنما هو من الناحية الفقهية عارية ينتفع بها البشر ، والقيام على العارية فى فقه البشر نيابة ، وان كانت نيابة العبد عن ربه والمملوك عن مالكه . . وإذن فكل فرد من أفراد البشر يعتبر نائبا عن ربه جل شأنه ، وهكذا لا يكاد معنى استخلاف البشر فى الأرض لغة يختلف عنه فقها ، ونتيجة ذلك أن مركز المستخلفين فى الأرض هو مركز الخليفة أو النائب . وأن الخلافة أو النيابة هى عن الله جل شأنه » . وإذا كنا نتفق مع أستاذنا فى رأيه الخاص فى الملكية ، ونرى مثله أنها عارية ينتفع بها البشر وتؤول إلى الله وارث كل شيء ، إلا أننا لا نوافقه على أن مركز المستخلفين فى الأرض هو مركز النائب . . إنما يظل الخليفة فى مركز العبد المكلف

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

بحمل أمانة معينة ، لأن تطبيق مفهوم بشرى على أمر إلهى غير جائز . .
كما أن فكرة النيابة عن الله يمكن أن تقود فى مجال السياسة إلى ديكتاتورية يتهم معارضها بالكفر ، ولهذا نفضل تفسير الخلافة فى الأرض بأنها حمل لأمانة القيام بأمر الله ، وحمل لأمانة العلم بالأسماء . .

وهى كما نرى أمانة مزدوجة ، تعنى العلم البشرى ، وتعنى العلم بالله . .

تعنى العلم بأسماء الأشياء والعلوم ، وتعنى العلم بأسماء الله تعالى . .

وأى معرفة تفتقر إلى الأخرى تعنى أن الخلافة ناقصة . .

إن العالم الغربى مثلا قد تفوق فى معرفة الأسماء . . وملك ناصية العلم المادى . . وراح يشكل الحياة على هواه ، غير أن عدم اتصاله بالله قد جعل الإنسان فيه أقرب إلى الآلية والإنعزال والتعاسة . .

أما العالم الشرقى فقد تفوق فى مباحث الالهيات ، غير أن تخلفه فى ميدان العلوم المادية أوقعه فريسة لتأثير الغرب وتوجيهه .

وصار الإنسان فى الشرق ممزقا بين ثراء الماضى ومجده وبؤس الحاضر وشحوبه .

والحقيقة أن العلم بالمادة والعلم بخالق المادة جناحان لازمان للإنسان إذا أراد أن ينجو من الظلم والجهل . . قال تعالى : (**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا**)[1] .

إن النجاة من الظلم لا تقوم إلا إذا اتصل الإنسان بالله . .

والنجاة من الجهل تقتضى العلم بأسماء الأشياء . .

هذا ما نفهمه من مقولة أن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض . .

. . . .

على المستوى الفردى تعنى الخلافة القيام بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه . . كالعبادات المختلفة من صلاة وصوم وحج وزكاة . .

وعلى المستوى الاجتماعى تعنى الخلافة الحكم بما أنزل الله . . فتخضع المعاملات لأمر الله ونهيه . .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

وعلى المستوى الإنساني تعنى الخلافة اقامة علاقات الإنسان بالإنسان طبقا للمفاهيم الواردة فى القرآن . . (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)[1] . كما تخضع للمفاهيم الواردة فى السنة « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . .

وعلى المستوى الكونى تعنى الخلافة قيام الصلة بين الإنسان والكون ، على أساس من وحدة الهدف والمصير . . فالإنسان عائد إلى الله ، والكون عائد إلى الله . . والإنسان مخلوق مصيره الهلاك ، والكون مخلوق مصيره الفناء . . والله هو الذى يرث الكون والإنسان وكل ما خلق . .

وإذا كان الكون ينجو من الحساب لأنه مسخر محكوم لا يملك حريته أو إرادته ، فإن الإنسان لا ينجو من الحساب لأنه حر مختار . .

هذه بعض معانى استخلاف الإنسان فى الأرض .

ما هى شروط الخلافة فى الأرض ؟ ، ما هى أنواع الاستخلاف ؟ وهل هناك قانون يحكم هذا كله ؟

تتصل هذه الأسئلة اتصالا وثيقا بقضية التوحيد فى العقيدة الإسلامية . وأول شرط لاستخلاف البشر هو طاعتهم لله . .

إن الله حين أسكن آدم وزوجه الأرض حدثهما عن شروط الخلافة قال تعالى وهو يقص علينا نبأ هبوط آدم وحواء من الجنة : (**قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**)[2] .

نفهم من هذا أن اتباع هدى الله يعنى النجاة من الأحزان والخوف وإذن ، فقد قيدت الخلافة بشرط اتباع الهدى . .

نفهم من هذا أن الخلافة اختيار ، فهى صفة لا تثبت للإنسان بمجرد ميلاده كالآدمية أو العبودية . . وإنما تثبت له بطاعة الله والقيام بحق الأمانة التى كلفه الحق بها . وإذا كان الإنسان يولد عبدا لله ، سواء اعترف بهذا أو كابر ، فإن الإنسان لا يولد خليفة لله ، إنما يصير خليفة لله إذا أراد الخلافة وسعى لها سعيها وهو مؤمن .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٨ ، ٣٩ .

إن الملحدين والمنكرين والمشركين عبيد لله ، هو تعالى الذى خلقهم ، وهو سبحانه الذى يرثهم ، ينطبق على فرعون وصف العبودية رغم إدعائه الألوهية ، بمعنى أن انكار المنكرين لله لا يخرجهم من وصف أنهم عبيد تدق قلوبهم رغم إرادتهم ، ويجرى دمهم رغم عدم تحكمهم ، وتطيع خلاياهم خالقها بأسلوبها الخاص . .

العبودية قهر . .

والخلافة اختيار . .

ولا ينطبق وصف الخلافة إلا على الإنسان المسلم . . أى الإنسان الموحد . . ابتداء من خلق آدم حتى موت آخر أبنائه . . (**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**)[1] . .

وإذا جاز أن يقال عن الأنبياء والأولياء أنهم خلفاء الله ، فلا يجوز أن يقال عن الكافرين أو المنكرين أنهم خلفاء الله . .

ذلك أن الخلافة عن الله لا تطلق إلا على المسلمين .

والأصل فى الإنسان أنه يولد على الفطرة ، يولد على الإسلام ، وبعدها يفرض عليه الأبوان ديانتهما ، ثم يكبر الطفل ويصير من حقه أن ينظر فى الديانات حوله ويختار . .

من إختار الإسلام صار خليفة لله فى الأرض .

وهذا الوصف ليس شيئا هينا ، إن مكانة المسلم فى الوجود تشبه مكانة الشمس ، إذا غربت فى جهة ، طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة . .

يلاحظ إقبال أن الحكومات الشخصية المستبدة . والفلسفات الخاطئة ، والعقائد المحرفة ، تحرص كلها على الحط من قيمة الإنسان ، والإستهانة بقدره ، وقد ترتب على فساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية أن رسخ فى الناس مقت للحياة ، وجاء المتصوفون العجم ، فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء الذى تمثله الجَملة المأثورة فى الأدب الصوفى « موتوا قبل أن تموتوا » ، ونشأ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات وانحلال المجتمع وظلم الحكام أدب متشائم وشعر متشائم كشعر أبى العلاء المعرى فى عصره ، وبتضافر هذه العوامل فقد الناس الثقة فى نفوسهم ، والأمل فى مستقبلهم ، والرغبة فى حياتهم ،

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٥ .

وأصبح الإنسان فى هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال منكسر الخاطر ضعيف الإرادة محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوان على حريته ، ويحسد الجماد فى سلامته وهدوئه ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفا ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذى هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف الكنوز والقوى والمواهب التى أودعها الله فى باطنه ، ولا يعرف أنه قد خلق ليكون خليفة رب العالمين فى هذا العالم الفسيح ، ووصيا عليه . . فقد أخضع الله له الكون ، وما كان سجود الملائكة لأبى البشر إلا اشارة لهذا الخضوع .

ولقد كان للمسلم الشرقى أكبر نصيب فى هذا اليأس والتشاؤم ، وفى انكار الذات ، وفى الجهل بقيمته وكرامته ، فقد فقد السيادة والسيطرة فى بلاده ، ووطنه الإسلامى الكبير ، وخضع للنفوذ الغربى السياسى والاجتماعى ، وبهره بريق الحضارة الغربية ، فذاب أمامه كما تذوب الشمعة فى وهج الشمس . . وفقد الثقة بنفسه ومستقبله ، وقيمته وأهميته ، وأصبح أضعف نفسا وإرادة من معاصره الأوربى . . وجاءت النظم السياسية والفلسفات الاقتصادية والحكومات الشرقية فى آسيا وافريقيا ، وجاء الأدب الحديث والشعر المعاصر والصحافة والنقد فلم يضرب كل ذلك إلا على الوتر الواحد ، ولم تردد إلا نغمة واحدة ، كلها تتجاهل قيمة الإنسان المؤمن وقيمة الفرد المسلم ، وكلها تتناسى رسالته ، وقدرتها على التغيير ، وكلها تجهل مواهبه وطاقاته المطمورة ، وكلها تجهل قوة إيمانه التى تصنع العجائب .

ينشد محمد إقبال فى قصائده :

« عجبا لك أيها المسلم . . تجلت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك » .

« لماذا تنامين أيتها العين الساهرة المسئولة عن حراسة الضعفاء ومراقبة الإنسانية . لماذا تنامين » . .

« أعلم ان الوطن جسد من تراب ، والدين هو الروح ، ولا حياة للجسد إلا بإرتباطه بالروح . . إنهض أيها المسلم . . وفى إحدى يديك المصحف ، وفى الأخرى السيف . . فباجتماعهما تتحرر البشرية .

« أنت للناموس الأزلى حارس أمين . فلتكن لسيد الكون يسار ويمين » . .

يريد أن يقول : لتكن أداة فى يد القدرة الإلهية . .
هذه هى مكانة المسلم فى الوجود . .
وهذا هو مركز الخليفة فى الأرض . .

. . . .

يفرق العلماء بين نوعين من أنواع الاستخلاف . . الاستخلاف العام والاستخلاف الخاص ، أما الاستخلاف العام فهو استخلاف البشر فى الأرض باعتبارهم مستعمرين لها ومسلطين عليها كما قال تعالى : (**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**)[1] .

أما الاستخلاف الخاص فهو الاستخلاف فى الحكم ، سواء فى ذلك استخلاف الدول أو استخلاف الأفراد . . واستخلاف الدول يعنى الأخذ بأسباب التقدم والسيادة ، واستخلاف الأفراد يعنى تمكينهم من الحكم والسلطان . (**يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**)[2] .

وسنة الله جل شأنه فى استخلاف الدول والأفراد أن يستخلف الأمة ما دامت أهلا للاستخلاف . وأن يستخلف الأفراد ان كانوا أهلا لذلك . . وهو سبحانه يبتليهم جميعا فيما آتاهم .

(**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم**)[3] .

هكذا يستخلف الله الناس فى الأرض ، فان أقاموا على أمر الله فهم عند وعد الله لهم بالتمكين والعزة . . حتى إذا كفروا بأنعم الله وكذبوا بآياته وخرجوا على حدود رسله ، أخذهم الله بغتة أو تدريجا وهم لا يشعرون .

قال تعالى : (**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**)[4] .

. . . .

---

(١) سورة هود آية ٦١ .
(٢) سورة ص آية ٢٦ .
(٣) سورة الأنعام آية ١٦٥ .
(٤) سورة يونس آية ١٣ : ١٤ .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن الخروج على طاعة الله يعنى الخروج من شرف الخلافة . .

والخلافة عن الله هى شرف الإنسان الحقيقى . .

وربما فقد الإنسان هذه الصفة ، ولم يفقد صفة القوة أو السلطان أو البأس . .

غير أن القوة التى تبقى له تكون قوة بلا شرف . .

قوة عمياء لا تلبث أن تحطم نفسها على مذبح عبادة الذات أو عبادة الهوى أو عبادة الأوثان التى تمتلىء بها الحياة . .

يلفت الله تبارك وتعالى نظر الخلق إلى سننه الماضية فى الاستخلاف ويحدث عباده أنه يهلك الأمم بالذنوب رغم قوة هذه الأمم . .

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين)[1] .

يحدثنا الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم عن أخبار السابقين ، ويطلعنا على قانون الخلافة المطبق فى الأرض . . وهو قانون لا يفلت منه أحد . . ولا ينجو منه مخلوق . .

ينطبق القانون إذا انطبقت شروطه . .

لقد كذب قوم نوح نبيهم . . فأغرقهم الله فى الطوفان . .

وكذب قوم هود نبيهم فحدثهم عن استخلافهم بعد قوم نوح (**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح**)[2] .

فلما رفضوا إدراك هذه الحقيقة يئس هود من تكذيبهم وعنادهم وقال لهم (**ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا**)[3] .

وجاء صالح فراح يذكر قومه بأنهم خلفاء من بعد عاد ، وأن سنة الله تعالى فى الأرض لا تحابى أحدا ولا يفلت منها منكر أو مكذب .

وجاء موسى فشكا قومه له أنهم تعرضوا للإيذاء قبل أن يبعث اليهم وبعد

---

(١) سورة الأنعام آية ٦ .

(٢) سورة الأعراف آية ٦٩ .

(٣) سورة هود آية ٥٧ .

أن جاءهم . . فحدثهم موسى (**قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون**)[1] .

. . . .

هذه هى سنة الخلافة فى الأرض . .

وهذا هو قانونها الأعلى . .

من تجبر فى الأرض ، واستكبر على آيات الأنبياء ، ونسى نعمة الله عليه ، وجحد كما جحدت الأمم السابقة .

من فعل هذا إنسحب منه قانون الاستخلاف فأبيد . . ونحاه الموت من الحياة وطويت عليه الصفحة . .

يتم هذا كله بعدل الله . .

لا يظلم الله تبارك وتعالى أحدا ، إنما يظلم الناس أنفسهم . .

قال تعالى : (**وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون**)[2] .

. . . .

تأمل تعبير الحق عن الذين يتخذون من دون الله أولياء ويهدرون قانون الخلافة فى الأرض ، انهم يبنون على الأرض بيوتا كبيت العنكبوت .

ويتصورون أنهم يتحصنون وراء الخيوط الواهية . .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢٩ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٣٩ ـ ٤١ .

حكمـــة الله

تتجلى عظمة الله فى خلق الخلق . .

وتتجلى أيضا فى تركيب هؤلاء الخلق وأسلوب حياتهم وعيشهم .

يعيش الملائكة فى سلام دائم ، لا يعرفون إلا الله ، ولا يطيعون إلا الله ، يسبحون بحمده ويقدسون له ويعبدونه . . ينطبق عليهم مجال الرضا والقرب . .

ويعيش الشياطين فى جحيم دائم . . لقد خرجوا من رحمة الله ، طردوا من مجال الرحمة ، وانطبق عليهم مجال الغضب والبعد . .

أما الإنسان فيعيش فى صراع دائم . .

ومثلما اقتضت المشيئة الإلهية وجود النقاء والبراءة ممثلين فى الملائكة ، واقتضت وجود الشر المحض مجسدا فى الشياطين ، اقتضت المشيئة الإلهية أن يكون الإنسان تركيبا جديدا ، فهو بجسده الترابى وروحه الإلهى وعاء من لون عبقرى يقبل الخير والشر ، ويمتزج فيه الجمال بالقبح ، ويستطيع الصعود إلى مقام يباهى الله به ملائكته ، ويستطيع الهبوط إلى حضيض تتبرأ فيه الشياطين منه .

هكذا جاء خلق الإنسان . .

جاءت طبيعته مركبة معقدة غنية كطبيعة الأرض التى خلق منها . .

وجاء روحه سرا معجزا ، وجاء عقله معجزة لم يزل العلم يقف أمامها حائرا مكبلا بالدهشة . .

ورغم أننا فى النصف الأخير من القرن العشرين . .

رغم تقدم العلوم فى هذا القرن . . لم يزل عمل العقل الإنسانى سرا من أسرار الله عز وجل . . مازال العلم لا يدرى سر الطاقات المودعة فى عقل

الإنسان ، ومازال العلم يجهل سر تفوق العقل وتألقه ، أو سر انطفائه وموته . . وإذا كنا نجهل كثيرا من أسرار العقل ، فإننا ندرك أن العقل هو منحة الله تعالى للإنسان . . وهو أداة الإنسان الأولى فى الخلافة فى الأرض . . وهو مناط التكليف والمساءلة . .

وعقل الإنسان أداة رائعة الكمال بالنسبة للحياة على الأرض . .

غير أنه أداة عاجزة بالنسبة لغيب الله المجهول . .

بمعنى أن العقل يستطيع دراسة طبقات الأرض ، أو أنواع المعادن ، أو أشكال الطيور والحيوان . . وهو يستطيع الوصول لنتائج باهرة فى هذا كله ، غير أنه إذا ترك مجاله الطبيعى وراح يحاول البحث فى عالم الغيب كالملائكة أو الجن أو الجنة أو النار . . كان بحثه فى هذا المجال محفوفا بالمخاطر ، ومحكوما عليه بالاحباط . .

ولقد وفر الله تبارك وتعالى - رحمة منه - على العقل عبء البحث فى الإلهيات ، وحدثه عنها عن طريق الأنبياء والرسل . . وكان الحديث عنها موجزا وإن كان كافيا لمعرفة مصير الحياة الإنسانية ومآلها . .

غير أن العقل بأجنحته انطلق يحلق فى كل اتجاه . . ويغوص فى كل عمق . .

لم يترك سؤالا إلا سأله . .

ولا ترك منطقة لم يقتحمها . .

ولا ترك أسوارا محرمة إلا حام حولها . .

نظر العقل حوله فى الحياة فإذا الحياة تمتلىء بأحزان عميقة ، ويكشف نسيجها عن ظلم البشر للبشر ، رأى العقل أن الألم والأوجاع والماسى نسيج تغص به الأرض على رحابتها . .

وبدأ التساؤل :

لماذا خلق الله الإنسان ؟

لماذا خلق الله الألم . . ؟

لماذا سمح الله للشر أن يعترض طريق النوع الإنسانى ؟

لماذا خلق الله تعالى إبليس ؟

لماذا يتعذب المؤمنون ويستمتع اللاهون ؟

. . . .

خاض العقل البشرى مياه بحر كل موجة فيه تسبح فيها آلاف الأسماك ، على كل فم سؤال يقول لماذا . . أو كيف ؟ وغاية جهد الأسماك أن تتصور حكمة البحر وتقيسها على حكمة السمك . . وذلك جهد ضائع . .

. . . .

ما هى حكمة الله تبارك وتعالى من خلق الخلق وابتلائه ؟

إن الجواب يحتاج أن نسير خطوة بعد خطوة .

لو وقفت نملة تتفرج على عالم رياضى يحل مسألة رياضية ، ويكتب مئات الحروف فوق سبورة أمامه . .

هل تعرف النملة حكمة ما يفعله الإنسان ؟

وإذا كانت بعض الخلائق لا تستطيع إدراك حكمة الخلائق الأخرى ، لإختلافها فى رتبة الخليقة ، فكيف يدرك إنسان صنع من تراب وماء حكمة البارىء الجليل سبحانه . . ؟

كيف يدرك عبد يقف فى مقام العبودية ، حكمة الله تعالى وهى حكمة تخفى أسرارها وراء ملايين الأقنعة والرموز . . ولا يكشف عنها الخالق تباركت ذاته وتقدست اسماؤه . . إلا بقدر معلوم ؟

. . . .

واجه السؤال عن حكمة الله ملايين العقول .

وتقدمت أشجع العقول وراحت تصعد وتسجد وتقترب . .

منها ما احترق فى ساحات الدهشة ، ومنها ما انصهر فى جلال التحير ، وبقيت أسوار الإجابة أعلى من قدرة الأجنحة على التحليق .

لماذا خلق الله الألم الإنسانى ؟

نعرف أن الله خلق الإنسان وأهبطه إلى الأرض . . وكان هبوطه إليها هبوط كرامة لا هبوط اهانة . . لم يكن هبوط الإنسان إلى الأرض عقابا على خطيئته فى الجنة فحسب ، إنما كان مترتبا وكائنا فى علم الله من قبل أن يخلق الإنسان (**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة**)[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

هبط الإنسان إلى الأرض ، والأرض بطبيعتها وتكوينها مكان غير الجنة . .

الجنة هى السلام المطلق العظيم . . والأرض صراع لا يتوقف . . والألم نسيج من أنسجة الحياة على الأرض ، والحزن قانون من قوانين الوجود الإنسانى ، والموت وفقد الأحباب كأس لا تستعلى على إحتسائها شفة ، وليس هناك إنسان يخلو من هموم أو جراح أو ألم . .

ما هو السر وراء هذا كله . ؟

ما هى حكمة هذا كله . .

يوجه السؤال إلى رجال الشريعة فيجيبون بالآية الكريمة التى تقول :

(**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**)[1] .

نفهم من هذا أن كل ما يقع فى الحياة والموت بلاء يمتحن الله به عباده . . نفهم من هذا أن الألم الإنسانى بلاء يمتحن الله به عباده . .

وإذا كانت هذه الإجابة حقيقية وكافية لاقناع بعض العقول ، إلا أنها لا تمنع بعض العقول من أن تسأل :

ــــ ولماذا يمتحننا الله تعالى وهو يعلم النتيجة مقدما ؟

ان هذا السؤال يمكن الإجابة عنه بأسلوبين كلاهما صحيح .

يمكن أن نقول ان مقام العبودية لا يجيز لها أن تسأل جلال الألوهية .

والدليل على ذلك قوله تعالى (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)[2] .

والله تبارك وتعالى لا يسأل عما يفعل لسبب بديهى . أنه خالق الخلق ، ومالك الملك ، وصاحب الأمر والمشيئة ، وإذا كنا على المستوى البشرى لا نجيز سؤال بشر عن كيفية تصرفه فى ملكه ، فكيف نسأل رب العالمين عن أفعاله سبحانه فى خليقته .

نفس السؤال يمكن الإجابة عنه بأسلوب آخر . .

إن الله يمتحننا ـ وهو يعرف ما سنفعل ـ ولكننا ـ نحن ـ لا نعرف ماذا تكون النتيجة ، ومن حقنا أن نعرف . . وهذه المعرفة تترتب على الإبتلاء وتأتى كنتيجة من نتائجه . .

---

(١) سورة الملك آية ٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

ما هو موقف العقيدة الإسلامية من البلاء والألم والشر . . ؟
خلق الله تبارك وتعالى الألم كما خلق الفرح .
وخلق الله تبارك وتعالى الصحة كما خلق المرض .
وخلق الله تبارك وتعالى الخير كما خلق إبليس .
وكل شيء في الدنيا شاهد على إبداع البارىء وألوهيته .
إن الألم شاهد على قهره كما أن الفرح شاهد على وده . .
والمرض شاهد على جبروته كما أن الصحة شاهد على منته . .
والخير شاهد على رحمته كما أن الشر شاهد على حكمته . .
ما هي حكمة خلق إبليس . .
لماذا خلق الله تعالى إبليس . . وهو يعلم أنه سيعصي . . ويغوى ابن آدم ؟ . .
لماذا تركه الله عز وجل يعصاه ويأبى السجود لآدم ، وكان الحق يملك أن يحيله إلى تراب قبل أن يفتح فمه بالاعتراض على أمر الله .
هل يريد الله أن يقع في ملكه الشر ؟
نحب أن نميز هنا بين علم الله ، وإرادة الله . .

إن علم الله يستوعب كل شيء . . الخير والشر ، والحسن والسيء . أما إرادة الله فلا تشاء إلا الخير ، ولا تأمر إلا بالعدل والإحسان . ويفرق العلماء بين إرادة الله التخييرية ، وإرادة الله الحتمية . .

هناك أمور قضاها الله وأرادها على سبيل الحتم ، وصرح بذلك في كتابه العزيز ، مثال ذلك حركة الأفلاك والنجوم (**والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**)[1] .

إن جريان الشمس ودورانها إرادة حتمية قضاها الحق في كتاب الأزل ، وليس أمام الشمس فرصة واحدة للخطأ ، ولهذا لن يحاسب الله الشمس يوم القيامة ، ولن يوقفها بين يدي هيبته سبحانه لتسأل عن أخطائها ، لأنها لم تخطيء . . فقد قضاها الله وسواها وأجراها بحيث لا تخطيء . . وبذلك لم تعد للشمس حرية ولا عاد لها كيان مزدوج كالإنسان . .

---

(١) سورة يس آية ٣٨ .

أما إرادة الله التخييرية فمثالها قوله تعالى (**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانا**) [1] .

ولقد قضى الله وأمر ألا يعبد الناس غيره ، ورغم هذا القضاء فهناك من يعبد غير الله ، والفهم الصحيح لهذه الآية أن الله أمر بعبادته على سبيل التخيير ، من أراد أن يدخل فى الرحمة دخل ، ومن رفض فهو مسئول أمام خالقه يوم القيامة عن تمرده . .

ولقد كان رفض إبليس السجود لآدم وعصيانه أمر الخالق . . كان هذا الرفض داخلا فى علم الله . . وكانت إرادة الله بالنسبة لإبليس ارادة تخييرية . كان الله تبارك وتعالى يعلم أن إبليس سيرفض السجود لآدم . .

وكان إبليس يمارس حريته دون أن يعرف أن الله قد رتب عليها حكمته العليا فى إبتلاء الإنسان ونزوله إلى الأرض واستخلافه فيها .

أيضا ترتب خلق إبليس بصورته الجديدة على خلق آدم . .

وإذن . . فقد كان إبليس ينتظر خلق آدم ليكشف عن هويته ويعرف حقيقته ويبدأ وجوده كرمز للشر . . ويبدأ الإنسان صراعه معه ، ويكتشف حقيقته هو الآخر . . ولا شيء فى الكون يفتقر إلى الحكمة . .

حتى إبليس ينطوى ـ رغم سوئه ـ على حكمة تمحيص قلوب بنى آدم حتى ليشبه إبليس مرآة ينظر فيها الإنسان ليعرف ذاته ويكتشف حقيقته .

هذه هى الحكمة الظاهرة من خلق إبليس . .

فما هى الحكمة من خلق الألم الإنسانى فى الأرض ؟

تقوم العقيدة الإسلامية على أن الألم ضرورى للحياة هو والفرح سواء ، فهو السبيل الوحيد أمام الطفل لكى يولد ، وهو النار الهادئة التى ينضج فيها النوع الإنسانى جيلا بعد جيل . . وهو النار التى تنفصل بسببها الشوائب عن دهب الروح . .

ومن الناحية الفسيولوجية ، ينبه الألم إلى الأخطار التى تصيب جسد الإنسان ، ولو تصورنا أن مرضا أصاب الإنسان بغير ألم ، فهذا يعنى القضاء عليه دون أن يدرى ، نعرف أيضا أن شبح الألم يقف وراء كل إبداع إنسانى فى الآداب والفنون والعلوم . . لقد خلق الله تعالى الدنيا دارا

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٣ .

للابتلاء ، ولهذا جاءت ناقصة ، وكان سبحانه يعلم أنها ناقصة ، واقتضت مشيئته وحكمته أن تكون دارا للأحزان والآلام ، كما اقتضت مشيئته أن تكون مهمة الإنسان فيها بعد معرفة الأسماء هى استكمال نقصه وعلاج نقصها . .

ولو تصورنا أن الحياة تخلو من الألم والنقص ، لركدت أفكار النوع الإنسانى وجمدت الحياة فى مكانها دون تقدم . .

ولو أن الكاتب كان يصالح الحياة ويراها فى قمة كمالها لما تحرك للإبداع والتفكير . . ولو أن الفنان رأى الحياة فى ذروة إنسجامها لما تحرك لإنتاج الفن ، ولو كان العالم لا يسمع صوت الأوجاع ولا يعاين نقص الدنيا لما تحرك للكشف عن الدواء . .

وكل انجازات النوع الإنسانى على الأرض . . مدينة للألم بالوجود ، ومدينة للنقص بالإكتمال . .

وهكذا يتعرف الله بالعسل والصبر إلى خلقه . .

وعلى العبد المؤمن أن يشرب العسل ويتجرع المزارة ويزداد حبه لله فى الحالتين . .

يقول العارفون بالله . . بالبلاء تنضج الذات حتى ترفع الحجب التى تحجبها عن الله . .

أيضا يرى العارفون بالله أن الألم فى كل صوره على الأرض ليس غير رحمة تتنكر فى ثياب الشدة . . فالله تعالى لا يقدم لعباده إلا الخير . . وما نراه نحن غامضا أو عسيرا أو قاسيا أو مؤلما أو ظالما . . ليس كذلك فى حقيقته . .

يحكى الله تبارك وتعالى فى سورة الكهف قصة موسى مع عبد آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما . .

(قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال إنك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا)[1] .

---

(١) سورة الكهف آية ٦٦ ـ ٧٠ .

يعتقد بعض العلماء أن هذا العبد الذى آتاه الله من لدنه علما ، كان اسمه الخضر . . بينما أغفل السياق القرآنى اسمه لحكمة لا ندريها . .

إنطلق موسى مع الخضر يمشيان على ساحل البحر . .

موسى فى مقام التلقى . .

والعبد الربانى فى مقام الأستاذ . .

مرت سفينة فركبها الخضر وموسى ، أكرموهما فحملوهما بغير أجر . . فوجىء موسى حين رست السفينة وغادرها أصحابها وركابها ، فوجىء أن الخضر يتخلف فيها ، ولم يكد أصحاب السفينة يبتعدون حتى بدأ الخضر يخرق السفينة . . اقتلع لوحا من ألواحها وألقاه فى البحر فحملته الأمواج بعيدا . .

كان موسى يرقب تصرفات معلمه ويفكر . .

لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر . . أكرمونا ، وها هو الخضر يخرقها ويفسدها . .

كان التصرف من وجهة نظر موسى شرا محضا . . كان التصرف من وجهة النظر الإنسانية ايذاء غير مفهوم ولا مبرر له . .

ولم يطق موسى صبرا بطبيعته الإنسانية وغيرته على الحق . . حدث العبد قائلا : أخرقتها لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا إمرا .

وتحدث الخضر إلى موسى ، لفت نظره إلى عبث محاولة التعلم منه ، لأنه لن يستطيع الصبر عليه . . وإعتذر موسى بالنسيان ورجاه ألا يؤاخذه ولا يرهقه . . وعادا يسيران . . مر الاثنان على حديقة يلعب فيها بعض الصبيان . . حتى إذا تعبوا من اللعب انتحى كل واحد منهم ناحية واستسلم للنعاس . . فوجىء موسى أن العبد الربانى يقتل غلاما . . وأدهشت هذه الجريمة موسى أشد الدهشة . . وثار على الخضر يسأله ما الذنب الذى إرتكبه الغلام ليستحق القتل هكذا . . وعاود العبد الربانى تذكيره أنه لن يستطيع الصبر عليه . . واعتذر موسى بالنسيان ووعد أنه لن يسأل عن حكمة ما يقع أمامه . . واتفق الاثنان على أن أى سؤال بعد ذلك يعنى الفراق . .

ويمضى العبد ، ويمضى معه موسى . .

يدخلان قرية بخيلة ، لا يعرف موسى لماذا ذهبا إلى القرية ، ولا يعرف لماذا يبيتان فيها ، نفد ما معهما من الطعام ، وحاول الاثنان أن يأكلا من

طعام أهل القرية فأبوا أن يضيفوهما . . وجاء عليهما المساء ، وأوى الاثنان إلى خلاء فيه جدار يتهاوى إلى الحد الذى يهدد فيه بالإنهيار . . وفوجىء موسى بأن الرجل الصالح يقضى الليل كله فى إصلاح الجدار وبنائه من جديد . .

كان التصرف من وجهة نظر موسى عملا بلا معنى . . إن القرية بخيلة ، ولا يستحق من يعيشون فيها هذا العمل المجانى . . تحدث موسى للعبد الصالح قائلا :

● لو شئت لاتخذت عليه أجرا . .

وبهذه العبارة انتهت فترة مصاحبة موسى للعبد الصالح . .

لقد حذره من مغبة السؤال ، وأنذره أن يكون السؤال الثالث هو نهاية اللقاء . .

بعدها كشف العبد الربانى لموسى عن السر الذى غمض عليه وحيره ودفعه إلى الاسئلة . .

إن كل التصرفات التى أثارت موسى وحيرته كانت تنفيذا لإرادة عليا وكانت لهذه الإرادة حكمتها الخافية ، ورغم أن التصرفات الثلاثة كانت تشى بالقسوة الظاهرة « مثل خرق السفينة » أو تنبىء عن جريمة تقع على برىء « كقتل الغلام » أو تبدو بلا معنى « كأداء عمل مجانى لقوم بخلاء » . .

رغم أن التصرفات الثلاثة كانت تبدو بهذه القسوة ، إلا أن حقيقتها كانت هى الرحمة بعينها ، وهى اللطف بذاته . .

شرح العبد الربانى لموسى حكمة ما وقع امامه :

(فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا . قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرًا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ، قال : لو شئت لتخذت عليه أجرا . قال هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت

لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)[١] .

نريد أن نتوقف عند هذه القصة التى يقصها الله عز وجل علينا فى القرآن الكريم . .

ما هو مغزاها . .

ما الذى تعنيه . .

إن العبد الصالح يكشف لموسى (وهو نبى من أولى العزم الكبار) أن علمه البشرى محدود . . فالمصائب التى تقع على الأرض تخفى فى ردائها الأسود الكئيب رحمة عظمى . . إن أصحاب السفينة حين يكتشفون أن سفينتهم أغرقت ، سيعتبرون أن مصيبة قد حلت بهم ، بينما الحقيقة أن نعمة جاءتهم . . نعمة تنتظر كشف النقاب عن وجهها حين تنشب الحرب ويصادر الملك كل السفن الموجودة غصبا ، ثم يفلت هذه السفينة لأنها تالفة ومعيبة ، وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو ، فلا يموتون جوعا ، بل يثرون على العكس . . لأن هذه السفينة ستصير هى السفينة الوحيدة التى تعمل فى هذا الخط .

أيضا سيعتبر والد الطفل المقتول وأمه أن كارثة دهمتهما بقتل وحيدهما الصغير البرىء . . غير أن موته يمثل بالنسبة إليهما رحمة عظمى . فإن الله سيعطيهما بدلا منه غلاما يرعاهما فى الشيخوخة ولا يرهقهما طغيانا ، وكفرا كالغلام المقتول . .

أما التصرف الثالث الذى بدا لموسى مفتقرا إلى المعنى ، فقد كشف العبد الصالح عن حكمته فإذا هو ملىء بالمعانى .

وهكذا يلفت العبد الصالح نظر موسى إلى أن النعمة تختفى فى ثياب

---

(١) سورة الكهف آية ٧١ ـ ٨٢ .

المحنة ، وترتدى الرحمة قناع الكارثة ، ويختلف ظاهر الأشياء عن باطنها .

وهذا ما يرد الله عز وجل أن يحدثنا عنه بهذه القصة . .

يجب ألا يتجهم قلبنا لما تزخر به الحياة من آلام ومصائب وشرور . . فلعل يد الرحمة الخالقة تخفى سرها من اللطف والإنقاذ والإيناس وراء أقنعة الحزن والآلام والموت . .

. . . .

ما هو العلم الذى أوتيه موسى ؟

وما هو العلم الذى أوتيه الخضر . . ؟

إن علم موسى كان هو علم البشر العقلى ، مضافا إليه علم النبوة . ورغم هذا فقد وقف علم موسى محكوما بالدهشة أمام علم الخضر . . ذلك ان الخضر كان يملك علما ليس هو العلم التجريبى البشرى ، وليس هو علم الأنبياء . . إنما كان يعرف جزءا انكشف له من حكمة الله سبحانه . .

(فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما) .

إن علم العبد كان من لدن الله الحكيم الرحيم .

كيف ينظر العارفون بالله إلى قضية الألم وعلاقته بحكمة الله ؟

يرى العارفون بالله ان هناك نوعين من الألم . .

ألم البعد عن الله . . وهذا هو الألم الحقيقى . .

وسائر الآلام الأخرى . . وهذه ليست غير صور لا نعرف حقيقتها . .

لقد خلق الله الإنسان بنفخة من روحه : **(فإذا سويته ونفخت فيه من روحى)**[2] .

ومجىء الإنسان إلى الدنيا وارتداؤه ثياب الجسد الترابية نوع من أنواع البعد عن الله ، وليست الحياة غير رحلة ، يعود منها الإنسان إلى الله . . أو يزيد فيها إبتعاده عن الله . . والبعد عن الله هو ألم الآلام الأكبر عند العارفين بالله . .

---

(١) سورة الكهف آية ٦٥ .

(٢) سورة الحجر آية ٢٩ .

لهذا السبب ، يبدأ شاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومى كتابه « المثنوى » بالحديث عن سبب الآلام ومصدر الأوجاع الأولى ، وذلك ألم الناى حين اقتطع من شجرته وابتعد عنها ونأى ، وصار قصبة يتموج غناؤها بحنين يذوب شوقا للانسجام مع الأصل والأنس به . . تقول الأبيات الأربعة الأولى من كتاب المثنوى :

استمع للناى كيف يقص حكايته
إنه يشكو آلام الفراق قائلا :
إننى منذ قطعت من منبت الغاب
والناس رجالا ونساء يبكون لبكائى
اننى انشد صدرا مزقه الفراق
حتى أشرح له ألم الاشتياق
فكل إنسان أقام بعيدا عن أصله
يظل يبحث عن زمان وصله

هذا هو الألم الأكبر فى رأى جلال الدين الرومى وهو يعتقد أن الألم ضرورى للحياة كالفرح سواء بسواء ولجلال الدين ٥٣ بيتا من الشعر يتحدث فيها عن قصة رمزية تحمل هذا الاسم « كيف ازعج أمير رجلا نائما كانت أفعى قد دخلت فى فمه » . ومن خلال القصة الرمزية يقول لنا الرومى رأيه فى حكمة الله وتصوره لسر وجود الألم الإنسانى فى الحياة . . يقول الرومى : أن أحد الأمراء الحكماء كان يسير فوق صهوة جواده فمر بالقرب من أفعى كانت تدخل فى فم رجل نائم ، وقد أبصر ذلك الراكب الأفعى ، فسارع إليها ليفزعها ، لكن الفرصة أفلتت ، ولما كان لهذا الرجل مدد كبير من عقله ، فإنه ضرب النائم ضربات موجعة بالدبوس ، واستيقظ النائم مفزوعا وجرى لإحدى الأشجار وكان قد تساقط من الشجرة تفاح كثير ، وتعفن التفاح وصار عطنا ، فقال الأمير للرجل :

ـــ كل من هذا يا من تعلقت بالآلام . .

وراح الرجل يأكل وكلما تباطأ فى الأكل ضربه الأمير بسوطه ، وجرى الرجل وكان يسقط على وجهه وينهض ويأكل التفاح الفاسد بالأمر ، وخلال هذا كله كان يبكى ويتألم ويناشد الأمير أن يتركه . .

لم يعبأ الأمير بتوسلات الرجل ، وراح يجره ويضطره إلى الجرى والأكل والجرى حتى كادت روح الرجل تزهق ، فمن ضربات الدبوس ، ومن خوف ذلك الفارس المنطلق كالريح ومن امتلاء الرجل بالطعام والنعاس والارهاق والجراح ، تخلت أمعاؤه عما طعم وخرجت منه المآكل ، رديئها وطيبها ، وقفزت الأفعى خارجة منه مع ما خرج ، فحينما رأى أن تلك الأفعى قد خرجت من جوفه ، سجد أمام ذلك الطبيب الفعال ، وراح يثنى عليه ويحمده :

* بوركت تلك الساعة التى رأيتك فيها . . لقد كنت ميتا ووهبت لى الحياة . .

* لقد كنت لى طالبا كما تفعل الأمهات ، وكنت أنا هاربا منك كما تفعل الحمير . .

* فالحمار يدفعه الغباء للفرار من صاحبه ، وصاحبه يدفعه كرم العنصر إلى اقتفاء أثره ، وهو لا يطلبه من أجل نفع أو ضرر ، لكنه يطلبه حتى لا يمزقه ذئب أو وحش كاسر .

وبنهاية القصة ، ندرك أن الفارس هنا رمز لحكمة الله الغامضة التى تؤدى إلى نجاة الإنسان وخلاصه . . لقد تعلق الإنسان بالآلام . ودخلت جوفه وسوسات الشيطان التى حملتها الأفعى ، ولا خلاص له إلا بالألم حتى يطرد من جوفه الشرور . . وإذن فقد كانت كل ضربة من ضربات الفارس . . حبا يتنكر فى ثياب الشدة . . كانت تصرفات الفارس حبا خالصا صافيا يساق بلا انتظار لفائدة أو حمد . . وكذلك ينظر العارفون بالله إلى الآلام وحكمة البارئ .

يعرفون أن الألم سر من أسرار الحياة . . وعظمة الإنسان تتجلى حين يحارب الألم ويقف ضده إذا كان ذلك فى إستطاعته أو قدرته . .

فإذا كان الأمر فوق طاقة القدرة وجب التسليم بحكمة لا ندريها وإن علمها الله . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من شوكة تصيب المؤمن إلا يكفر الله بها خطاياه ، أو يرفع بها درجاته » .

رؤيـــة الله

بعين البصر فحسب . .

وبأنوار العقل وحدها . .

تستحيل رؤية الله تبارك وتعالى فى الأرض . .

لا يصمد الجسد البشرى لنور الله عز وجل ، ولا يتماسك أمام جلاله وكبريائه . .

تقوم العقيدة الإسلامية على هذه الحقيقة . .

ويحدثنا القرآن الكريم أن كل محاولات البشر التى تستهدف رؤية الله عز وجل . . أو رؤية القدرة الخالقة وهى تعمل ، قد اصطدمت بالمستحيل . .

يقص الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز قصة نبيين أحبا الله ، وطلب أحدهما رؤيته ، وطلب الثانى رؤية سر اسلوبه سبحانه فى الخلق .

كان موسى هو النبى الذى طلب الرؤية . .

وكان ابراهيم هو النبى الذى طلب رؤية إحياء الموتى . .

قال موسى : رب أرنى أنظر إليك . . وقال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى . .

كان جواب الحق عز وجل عن سؤال موسى : لن ترانى .

وكان جوابه عن سؤال ابراهيم : أو لم تؤمن ؟

وكان المعنى فى الحالتين استحالة الرؤية على الأرض . . لجلال الله وعجز البشر . . ولأن الله عز وجل (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)[1] .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

لا نعرف أي مشاعر كانت تجيش في قلب موسى حين سأل ربه الرؤية . .

يحدثنا الله أن طلب الرؤية جاء من موسى بعد كلام الله عز وجل له :

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك)[1] .

ونحن نعرف من القرآن الكريم أن الله تعالى لا يكلم أحدا إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى ما يشاء بإذنه . .

يقول تعالى : **(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء)**[2] .

نعرف أيضا من القرآن الكريم أن الله كلم موسى تكليما **(وكلم الله موسى تكليما)**[3] .

نفهم من هذه الآيات جميعا أن الله لم يكن يكلم موسى عن طريق رسول أو عن طريق الوحى ، إنما كلمة مباشرة من وراء حجاب . .

وإندفع موسى كعاشق لله فطلب رفع الحجاب . . كان المفروض وموسى نبى من أولى العزم الكبار أن يعرف أن رؤية المخلوق لله مستحيلة ، كان المفروض أن يعرف أن أحدا لا يصمد لنور الحق إذا تجلى ، كان المفروض أن يعرف أن الله لا تحيطه الأنظار ولا تحده الجهات ولا تدركه الأبصار ولا تسعه أقطار السماوات والأرض . . الله أكبر من كل شيء . .

كان المفروض أن يعرف موسى هذا كله ، وكان موسى يعرف هذا كله ، ولكن حبه العظيم لله دفعه إلى تجاوز منطق العقل والأعصاب ، فطلب الرؤية ، طلبها باندفاعة عاشق عظيم سأل المحال ناسيا أنه محال . . ورده الله تعالى إلى حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية برفق وحب . .

(قال : لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى)[4] .

لو أن الله عز وجل قال لن ترانى ولم يزد عليها شيئا ، لكان هذا عدلا

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(٢) سورة الشورى آية ٥١ .

(٣) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

منه سبحانه ، لأن المفروض على النبى أن يعرف أن جلال الألوهية يتعالى على نظر المخلوقات . ويتعالى على عجز حواسهم وانحصارها . . غير أن الله عز وجل أدرك موسى برحمته ، وبدأه بالحب والرأفة ، فنبهه إلى أن الرؤية مستحيلة ، وساق إليه الدليل على استحالتها ، فحدثه أن الجبل وهو أقوى الخلائق . . إذا استطاع أن يحتمل تجلى الجلال عليه ، وإذا استطاع أن يستقر فى مكانه ، فسوف يمكن لموسى أن يرى .

(فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)[1] .

حين تجلى الله عز وجل على الجبل . . سجد الجبل لهيبة الله . .

إندك الجبل العظيم وزايل مكانه . . هوت صخوره وتهاوت ترابا يعفر جبينه فى تراب الذل لله . .

وصعق موسى من الصدمة . .

كان موسى ينظر إلى الجبل . . وفوجىء أنه يتلاشى أمام عينيه . .

وخر موسى صعقا . . قال بعض العلماء أن الصعق هو الموت . .

وقال البعض أنه الإغماء . . ومهما يكن من أمر فإن الله أمر موسى أن يفيق ، فلما عاد إلى وعيه ، عاد إليه وعيه بحقيقة ألوهية الخالق ، وعجز الخلائق . .

(فلما أفاق قال سبحانك)

تنزيه لله أن يراه أحد من خلقه وهو فى ثياب الجسد الإنسانية الهشة . .

تنزيه لله . . وتقديس لعزته وكبريائه أن يحصره مكان أو يحده زمن .

(تبت إليك) .

تاب موسى من إجترائه على طلب الرؤية . .

تاب من نسيانه حقيقة أن أحدا لا يصمد لنور الله سبحانه .

تاب من إغفاله أنه يجب تنزيه الله عن المكانية المحدودة التى لا بد منها لحدوث الرؤية . .

بعد توبة موسى وعودته إلى الحق . . حدثه الله عز وجل . .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

(قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)[1] .

يمتن الله على موسى ، ويحدثه أنه اختاره على الناس نبيا ، وكرمه برسالاته وكلامه . . وأن على موسى أن يقنع بهذا ويكون من الشاكرين ، وعليه أن يقف فى مقام العبودية . .

لا يتجاوزه بطلب الرؤية من جلال الألوهية . .

. . . .

وإذن لا يرى الله تعالى فى الأرض مخلوق . .

رغم أن وجود الله هو الوجود الحقيقى ، وبقية الكائنات تستمد وجودها من أمره . .

رغم هذا . . احتجب الحق عن عباده بجلاله . . وصار الايمان به ايمانا بالغيب . .

ومثلما لا يمكن للمخلوق أن يرى الخالق . . كذلك لا يمكن للمخلوق ان يرى القدرة الخالقة وهى تعمل . .

سأل ابراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى . .

قال تعالى : **(وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم)[2] .**

يحدثنا الله إن ابراهيم أراد أن يرى يوما يد الجلال الخالق وهى تعمل ، أراد أن يرى بعث الموتى ويشهد قيامة الحياة من الموت . .

إن الموت عدم أو صورة للعدم ، والحياة وجود أو صورة للوجود . . كيف يتحول الموت إلى حياة ، وكيف يصير العدم وجودا . .

كان ابراهيم عليه السلام يريد أن يرى النشأة الأخرى . . وكان يريد أن يرى معجزة يوم القيامة . . وكان يريد أن يعاين يد القدرة الجليلة وهى تعمل وتخلق وتبدع . . بايجاز . . كان يريد أن يرى السر . .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

سأله الله تعالى (أو لم تؤمن ؟)
وكان الله عز وجل أعلم بايمان ابراهيم من ابراهيم نفسه . .
كان الله عز وجل يعلم أن حب ابراهيم لله هو الذى دفعه لهذا الطلب ، كان ابراهيم يريد طمأنينة القلب ، وهى شىء لا يسأله غير كبار المحبين . .
كان يريد أن يرى سرا من أسرار الله . .
كان يريد أن يشاهد السر . . فأطلعه الله على الكلمة التى تبعث الموتى ، ولم يطلعه على السر . . أمره أن يذبح أربعة من الطير ويوزع اشلاءها على الجبال ثم يقف فى مكانه ويدعوها بأمر الله فتجىء إليه ساعية . . وتهرع نحوه مستيقظة من الموت عائدة إلى الحياة . .
وإذن فقد أطلعه الله على الكلمة التى تبعث الموتى من صورة العدم ، ولكنه لم يطلعه على أسلوب البعث وكيفيته وسره . .
ذلك سر من أسراره سبحانه . .
سر خبأه عن عيون المحبين . . مثلما إحتجبت ذاته عن عيون العابدين .

لا يطيق جسد ابراهيم الإنسانى أن يحتمل النظر إلى جلال السر الإلهى فى البعث ، كما لا يطيق جسد موسى الإنسانى أن يحتمل جلال رؤية الله عز وجل . .
يتعالى الله على إدراك الأبصار . .
ويتعالى الله عن رؤية أسراره وهى تعمل . .
هذه الحقيقة كانت جزءا من وعى آخر الأنبياء .
كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس حبا لله ، ورغم أنه كان أول المسلمين وأكملهم ، وكان آخر الأنبياء وأكرمهم . . إلا أنه عرف مقام الألوهية وموضع العبودية ، فلم يسأل ربه الرؤية . . ولا سأل أن يرى السر ، ولأنه لم يسأل . . فقد أجيب لأكثر مما سأل . . وأطلعه الله على عديد من آياتَ الله الكبرى فى ليلة الإسراء والمعراج .
(لقد رأى من آيات ربه الكبرى)[1] .

---

(١) سورة النجم آية ١٨ .

وجمهور العلماء على أن الرسول لم ير الله عز وجل بعين البصر . .
وقد سئلت السيدة عائشة عمن يقولون أن رسول الله رأى الله فقالت إن هذا إفتراء . . والنص القرآنى يقول أن الرسول رأى من آيات ربه الكبرى ، أما الله عز وجل . .

فذات تباركت وتعالت على الإنحصار . .
وتقدست وتنزهت عن إدراك الأبصار . .

. . . .

إذا كانت رؤية الحق عز وجل بعين البصر مستحيلة . . فإن رؤيته بعين البصيرة جائزة . .

والقلب أشرف من العينين لأنه يستطيع رؤية الله عز وجل . . لا بمعنى الرؤية التى تعاين ، وإنما بمعنى القدرة على استحضار عظمة الله وجلاله . . هى رؤيا مجازية إذن . .

والله أكبر من الرؤية بعين البصر . . والله أكبر من الرؤية بعين القلب . . وقديما فرق القشيرى بين المشاهدة والمعاينة . . والمشاهدة عند العارفين هى الرؤية بالبصيرة ، أما المعاينة فهى الرؤية بالبصر . . وهذه الأخيرة لا تجوز فى الدنيا . .

. . . .

بقى أن نسأل . .
ألا يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة . .
يحدثنا الله عن أعظم نعيم أعده لعباده الذين يدخلون الجنة . .
يقول تعالى (**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**)[1] .
فسر القشيرى هذه الآية بأن الوجوه مشرقة لأنها رائية لله . .

قال إن النظر المقرون (بـ إلى) مضافا إلى الوجوه لا يكون إلا الرؤية ، وكأن القشيرى أحس بالرهبة وعدم معرفته كيف يكون ذلك فقال « يخلق الله الرؤية فى وجوههم فى الجنة على غير العادة ، فالوجوه ناظرة إلى الله ، والعين من جملة الوجه ، فالعين فى الوجه تنظر ، والوجه لا ينظر ، كما أن النهر لا يجرى ، والماء فى النهر يجرى » .

---

(١) سورة القيامة آية ٢٢ ـ ٢٣ .

يريد القشيرى أن يقول أن الله يخلق الناس خلقا اخر فى الجنة . . ويخلق فيهم القدرة على احتمال نور الجلال الأعلى . . ويقول أنهم فى رؤيتهم لا يحتاجون إلى تقليب حدقة ، أو تحديق مقلة فى جهة ، بل يرونه بلا كيفية . . يريد القشيرى أن ينزه الله عن الانحصار ، ويقدسه عن إدراك الأبصار .

ورد فى الحديث القدسى الشهير قوله تعالى : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » . .

شــــئون الله

الزمان كان خاليا من الزمان . .

والمكان كان خاليا من المكان . .

والكون كله ظلمة . . ضباب ولا ضباب . نجوم ولا نجوم . شمس ولا شمس . .

أرض ولا أرض . . حياة ولا حياة . .

كان الكون لغزا من المياه الممتدة . .

مياه لا يسبح فيها شيء ، ولا يتحرك داخلها شيء ، مياه تخلو من الموج والزبد ولا تعرف الملح . . مياه لا هواء فوقها ولا سماء لها غير بدايات عرشه سبحانه . .

مياه ساجدة خاشعة وسط خلاء عظيم .

أتسأل كيف تسجد المياه ؟

ذلك سر من أسراره هو . . وأنت تسألنى أنا ، فلماذا لا تسأله هو . . ؟ . أسجد واقترب واسأله كما تحب يجبك . ستعرف أن المياه كانت ساجدة لأنها تحمل عرشه هو .

(وكان عرشه على الماء)[1] .

كان هنا تعود إلى زمن كان قبل أن يولد الزمان .

زمن كان خاليا من الزمان .

فى هذا الزمن العريق الممتد فى القدم ، وقبل هذا الزمن المجهول الغامض الذى أسدل الله عليه أستار السر . . كان الله ولا شيء معه . .

كان سبحانه وتعالى قبل خلق العرش والماء والكرسى والكون والنجوم والسماء والأرض . .

---

(١) سورة هود آية ٧ .

ثم اصدر الله تبارك وتعالى أمره إلى الكون أن يكون . . حضورا من العدم . طائعا أو مكرها ، هنالك سجد الكون بين يدى الطاعة . . وولد الحب يومذاك . .

(ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)[1] .

لا تجيء الأشياء طائعة إلا إذا كانت عاشقة ، ولم يكن جل شأنه فى حاجة لأن يأمر بأكثر من حرفين . . كن . .

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون)[2] .

كان الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور أمر الحق فيه . .

حين تجلى الله تعالى على العدم بكلمة من حرفين ولد العدم فى صورة الوجود . . استحى العدم من حرفين قالهما الله فصار وجودا . .

حين كلم الله تعالى العدم ، أصاب العدم هذا العشق الذى يدفع الكائنات دفعا إلى الوجود . . أتسأل كيف نزلت الروح من الأعالى إلى الأرض ، وكيف دخل القفص ذلك الطائر الذى لا حدود له . .

لقد تلا عليها الحق كلمات كما يقول جلال الدين الرومى . . حين يتحدث الله إلى العدم الذى لا عين له ولا أذن ، يصبح مواجا بالحركة . . وبكلمات الله تنطلق المعدومات مسرعة الخطى نحو الوجود .

لقد همس الحق فى أذن الوردة من قبل أن تخلق الوردة فجعلها تبتسم بالعطر .

وتحدث إلى الحجر فجعل منه عقيق المنجم ، وتلا آية على الجسم فأصبح روحا ، وكلم الشمس فأضاءت بالإشراق . ثم عاد وألقى فى سمعها بكلمة رهيبة فوقع على وجه الشمس مائة كسوف .

أى قول ألقاه الحق فى سمع السحاب ، فصب من أعينه الدموع . وما الذى تلاه الحق على مسمع الأرض حتى صارت مراقبة ولزمت الصمت . وكل من كان مبلبل الفكر فى تردده فقد ألقى الحق فى أذنه لغزا معمى . حتى يجعله أسير ظنين : أأعمل بما قاله لى أم أعمل بضده .

---

(١) سورة فصلت آية ١١ .

(٢) سورة يس آية ٨٢ ـ ٨٣ .

ومن الحق أن يرجح لديه أحد الجانبين . . تماما مثلما رجح لدى آدم أن يأكل من الشجرة المحرمة ظنا بأنه سيخلد فى الجنة إلى جوار الله تعالى .

. . . .

قبل الخلق كان لله شئون .

وبعد الخلق كان لله شئون . .

وبعد أن يبيد الخلق فسيكون لله شئون . .

وهو سبحانه وتعالى القائل (**كل يوم هو فى شأن**)[1] .

ونحن لا نعرف ما المقصود بكلمة « كل يوم » . . لا نعرف بعقولنا البشرية أى يوم يقصد الله عز وجل . . نحن نحسب أيامنا بدورة الأرض حول الشمس . . أما أيام الله تعالى فأجل من أن يعرفها العقل البشرى أو يقيسها . .

وللبارىء الخالق شئون لا ندريها . . وإن كنا نحس ببعض منها فى حياتنا اليومية على الأرض ، الوقت مثلا شأن من شئون الله ، والكون شأن من شئون الله ، والحياة والموت على الأرض شأنان من شئون الله . . وكل جلال فى الكون أو خير هو شأن من شئون الله . . الزمان نفسه هو الاستمرار والتوالى المتجدد لشئون البارى عز وجل ، ولله تعالى كما يقول العلماء شأنان معروفان هما : الرحمة والقهر . . أو هما : الجمال والجلال فى إصطلاح الصوفية . . فالرحمة هى شأن الجمال ، والقهر هو شأن الجلال . . وهما ينعكسان على صفحة الزمان .

. . . .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (**كل يوم هو فى شأن**) فقال « من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين » ويحدثنا القرآن الكريم عن طرف من شئون الله التى تتصل بحياتنا (**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب**)[1]

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٩ .

نفهم من الآية الكريمة بعضا من شئون الله . . وندرك كيف يهيمن الحق على كل شيء ويسير كل شيء . . ابتداء من هبة الملك والعزة ، وانتهاء بتصوير الخلق في الأرحام والتحكم في نوع الخليقة .

(هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم)[٢] . .

(يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور)[٣] .

إذا كانت شئون الله تعالى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة . . فإن السؤال والدعاء شأنان من شئونه سبحانه . .

(يسأله من فى السماوات والأرض . كل يوم هو فى شأن)[٤] .

فسرها ابن قيم الجوزية بقوله :

يغفر الله ذنبا ، ويفرج كربا ، ويكشف غما ، وينصر مظلوما ، ويأخذ ظالما ، ويفك عانيا ، ويغنى فقيرا ، ويجبر كسيرا ، ويشفى مريضا ، ويقيل عثرة ، ويستر عورة ، ويعز ذليلا ، ويذل عزيزا ، ويعطى سائلا ، ويذهب بدولة ، ويأتى بأخرى ، ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواما ويضع آخرين ، ويسوق المقادير التى قدرها قبل خلق السماوات والأرض ، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ، ولا يتأخر شيء منها عن موعده ، فكل شيء أحصاه فى كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه . . وهو المتصرف فى الممالك كلها . .

تصرف ملك قادر قاهر . . رحيم عادل . .

. . . .

سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٦ .

(٣) سورة الشورى آية ٤٩ .

(٤) سورة الرحمن آية ٢٩ .

صـــفات الله

للغيب أسوار وأستار . .

ومفاتيح الغيب عند الله وحده . .

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)[1] .

تأمل إعجاز النص القرآنى فى الدلالة على شدة الخفاء وإحكام الحراسة . . لم يقل النص أن عنده الغيب لا يعلمه إلا هو ، وإنما أضاف إلى خفاء الغيب خفاء المفاتيح التى تؤدى إليه . .

نحن أمام غيب أخفاه الله عن الخلق ، وأخفى مفاتيحه هى الأخرى عنده فلا يعلمها إلا هو **(ويعلم ما فى البر والبحر)**[2] .

يهيمن علمه سبحانه على كل ما يدب على البر أو يعيش فوقه ، وكل ما يسبح فى البحر أو يتنفس فى مياهه ، كل الخلائق ابتداء من الخلايا الوحيدة وانتهاء بالانسان . . كلها تدخل تحت مظلة العلم الإلهى الذى لا يغيب عنه شىء .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها)[3] .

ها هو الخريف ينصب خيمته على الأرض . . الرياح الباردة تهب ، ودم الربيع الأخضر ينسحب من عروق الشجر ، ويوما بعد يوم يزحف صدأ الصفرة وذبول النهاية . . ويثقل وزن الورقة رغم خفته على العنق الذى يوصلها بالغصن الأم ، وتتغضن عروق الورقة وتجف داخلها العصارة ، وتجىء النهاية أخيرا . .

يكفى مرور عصفور خائف . . تكفى هبة من الهواء . . أو تكفى جاذبية الأرض نفسها لتهوى الورقة . . تتهادى برفق على أكف الهواء حتى

(١ ، ٢ ، ٣) سورة الأنعام آية ٥٩ .

تصل إلى الأرض . . يعلم الله بسقوط هذه الورقة . . يعلم بسقوط اوراق الشجر فى قارات الدنيا جميعا . . يعلم ما الذى نقصته الشجرة حين فقدت إحدى أوراقها ، ويعلم ما الذى ستزيده الأرض حين تتحول الورقة إلى تراب . . يعلم مصيرها فى الأرض بعد ذلك ، هل تكون غصنا جديدا فى شجرة ، أو ورقة فى زهرة ، أو جزءا من تراب . . يعلم الله هذا كله قبل أن يقع . .

لماذا . . ما هى أهمية سقوط ورقة ذابلة منتهية ؟

نحن لا ندرى لماذا ، ولا نعرف سر أهمية هذا الحادث المتكرر . . كل ما نعرفه أن الآية ترسم لنا صورة لعلم الله الشامل المهيمن الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . . حتى موت أوراق الشجر فى الخريف يهيمن عليه علم الله . .

(ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)[1] .

لا شىء يفلت من علمه أو يخرج عن حكمه أو يدركه النسيان . .

كل شىء مسجل فى كتاب . . وكل شىء يعلمه الله . .

ذلك أن العلم . . صفة من صفات الله عز وجل . .

تحدثنا العقيدة الإسلامية فى القرآن الكريم عن صفات الله الواجب لكماله ، وهى صفات العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام .

ومن المعروف أن تعبير « صفات الله » لم يذكر فى القرآن ولا فى الحديث الصحيح ، ولا عرف استخدامه عن أحد من الصحابة والتابعين . إنما ورد فى الرد على إنكار المنكرين وإلحادهم قوله تعالى **(سبحان ربك رب العزة عما يصفون)**[2] .

قبل أن ندخل فى حديث الصفات ، نحب أن نلفت النظر إلى أن صفات الله تبارك وتعالى أعظم من أن تحصى ، وحقيقتها فوق إدراك العقول ، وإن كان القرآن قد حدثنا عن بعض صفات الله ، فإنه لم يحدثنا عن كل صفاته ، مثلما أن القرآن الكريم وهو كلمات الله . . ليس كل كلماته . .

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٩ .

(٢) سورة الصافات آية ١٨٠ .

ومن البديهى أن لله عز وجل صفات تتصل بغيرنا من العوالم والخلائق ، وسوف لا ندرى عنها شيئا لو حدثنا القرآن عنها ، ومن هنا جاء السكوت عما لا ندريه . . وجاء الحديث عما يمكن لنا فهمه على قدر طاقة العقول . .

وإذن يورد القرآن الكريم أهم الصفات التى ينبغى على المسلم أن يعرفها عن ربه . .

. . . .

وجود الله تبارك وتعالى صفة أولى ، وهى من البداهة بحيث تدركها الفطرة بغير علم ولا فلسفة ، أو إثبات أو مشقة . . ويثبت القرآن الكريم وجود الله تعالى بآلاف الأدلة .

(الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها)[1] .

(وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا)[2] .

(وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة)[3] .

(وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار)[4] .

تنبىء كل هذه الآيات بوجود الله تبارك وتعالى ، وتستدل عليه بما ترى من شئونه فى حكم هذا الكون . .

يحدثنا القرآن الكريم أن الأزلية والخلود صفتان من صفات المولى عز وجل .

(هو الأول والآخر)[5] .

لم يكن قبله قبل ، ولا يكون بعده بعد . . يرث كل شىء لأنه الأول والآخر . . ويموت كل شىء ويبقى هو سبحانه .

(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام)[6] .

نعرف من القرآن الكريم أن لله عز وجل ذاتا تخالف الحوادث . . بمعنى أن المخلوقات الحادثة تجىء من وجود سابق ، أو تجىء من تزاوج بين ذكر وأنثى ، أما الحق عز وجل فيتعالى على القوانين الحاكمة لمخلوقاته . .

---

(١) سورة الرعد آية ٢ .
(٢) سورة الرعد آية ٣ .
(٣) سورة المؤمنون آية ٧٨ .
(٤) سورة المؤمنون آية ٨٠ .
(٥) سورة الحديد آية ٣ .
(٦) سورة الرحمن آية ٢٦ ؛ ٢٧ .

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1] .

نعرف من العقيدة الإسلامية قيام الله تبارك وتعالى بنفسه ، واستغنائه عن خلقه واحتياجهم إليه **(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد)**[2] .

تحدثنا العقيدة الإسلامية عن وحدانية الله تعالى :

(وقال الله : لا تتخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون)[3] .

(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم)[4] .

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون)[5] .

تحدثنا العقيدة الإسلامية عن قدرة الله تعالى ، وترينا أن هذه القدرة الخالقة وراء كل ما تراه من صور الخلق . .

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير)[6] .

نعرف من القرآن الكريم أن إرادة الله فوق كل إرادة ، وأن مشيئته تعلو كل مشيئة . . **(وما تشاءون إلا أن يشاء الله)**[7] كما نعرف أن علم الله تعالى يسع كل شيء ويحيط بكل شيء **(يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور)**[8] .

يحدثنا القرآن أن الله تبارك وتعالى يتصف بالحياة الكاملة التى تستمد منها كل أنواع الحياة ، وتقوم بحكم كل أنواع الحياة **(الله لا إله إلا هو الحى القيوم)**[9] .

---

(١) سورة الشورى آية ١١ .
(٢) سورة فاطر آية ١٥ .
(٣) سورة النحل آية ٥١ .
(٤) سورة المائدة آية ٧٣ .
(٥) سورة الأنبياء آية ٢٢ .
(٦) سورة النور آية ٤٥ .
(٧) سورة الانسان آية ٣٠ .
(٨) سورة التغابن آية ٤ .
(٩) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

كما يحدثنا الله أنه هو السميع البصير (إن الله هو السميع البصير)[1] .

وأنه يتصف بصفة الكلام (وكلم الله موسى تكليما)[2] .

. . . .

تحدثنا العقيدة الإسلامية أن صفات الله تبارك وتعالى هى كمال مطلق لا يتناهى . .

سبحانه لا نحصى ثناء عليه . هو كما أثنى على نفسه . .

وهناك أمر خطير تنبه إليه العقيدة الإسلامية ، ويجب أن يفطن إليه المؤمن ، وهذا الأمر هو أن المعنى المقصود باللفظ فى صفات الله تبارك وتعالى يختلف اختلافا كاملا عن المعنى الذى نقصده بهذا اللفظ إذا صرفناه لصفات المخلوقين . بمعنى أننا إذا قلنا أن الله أعلم ، أو قلنا أن العلم صفة من صفات الله تعالى ، وقلنا أن فلان عالم ، أو العلم صفة لفلان من الناس . . إذا قلنا هذا وجب أن نفهم أن المقصود بعلم الله ، شىء يختلف كل الاختلاف عن المقصود بعلم الناس . .

علم الإنسان مكتسب . . ومخلوق . . ومحدود وناقص . . وله بداية وله نهاية . . علم الإنسان يعتمد على التجربة واستقراء الظواهر والنظر والتحليل . وعلم الله قديم وأزلى . . ومطلق وكامل . . وليس له ابتداء وليس له انتهاء . . وهو علم لا يأخذ منه البشر إلا بمقدار ما يأخذه طير غمس منقاره فى مياه البحر ، وإذن لا يعد علم المخلوقين إلى جواره شيئا ، وكذلك الحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والقدرة ، والإرادة . . إذا وصفنا الله عز وجل بشىء من هذه الصفات ، وجب أن نفهم أن المعنى ليس هو المعنى البشرى المتعارف عليه بيننا . .

إن الله سبحانه وتعالى

(ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير)[3] .

. . . .

يتفق علماء المسلمين جميعا على هذه الحقيقة . . أن الله ليس كمثله شىء . . غير أن الخلاف نشب حول تفسير بعض آيات الصفات .

---

(١) سورة غافر آية ٢٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

فقد وردت فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة أحاديث يوهم ظاهرها مشابهة الحق تبارك وتعالى لخلقه فى صفاتهم . .

وهذه هى الآيات المتشابهة كما سماها القرآن :

قال تعالى : (**هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب**)(1) .

وقد اختلف فهم العلماء لهذه الآية ذاتها ، فهم بعضهم أنها أمر بعدم التأويل ، وفهم بعضهم أنها أمر بالتأويل بشرط الرسوخ فى العلم .

وقال الفريق الأول أن من الأدب الوقوف عند ظاهر النصوص وتفويض علمها إلى الله ، وكان هذا رأى السلف ، وقال علماء الخلف أن القرآن نزل على العقل البشرى ، والعقل الإنسانى مكلف بالمعرفة والفهم ، مأمور بهما ، والتأويل بغرض التنزيه واجب .

. . . .

ما هى آيات الصفات ؟

أحيانا يذكر القرآن الكريم آية يتحدث فيها عن وجه الله أو يد الله أو نفسه سبحانه ، وأحيانا تتحدث الآيات أن الرحمن على العرش استوى ، وأحيانا تذكر أنه القاهر فوق عباده . . أو أنه فى السماء . .

يقول تعالى : (**كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام**) (2) .

ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ الوجه مضافا إلى الله عز وجل .

يقول تعالى : (**وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى**)(3) .

ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ العين مضافا إلى الله عز وجل .

ويقول تعالى (**يد الله فوق أيديهم**)(4) .

---

(1) سورة آل عمران آية ٧ .

(2) سورة الرحمن آية ٢٦ - ٢٧ .

(3) سورة طه آية ٣٩ .

(4) سورة الفتح آية ١٠ .

وقال تعالى : (**بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**)[1] .

ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ اليد مضافا إلى الله عز وجل .

يقول تعالى : (**ويحذركم الله نفسه**)[2] .

ويقول تعالى : (**تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك**)[3] .

ومثل ذلك كل آية ورد فيها لفظ النفس مضافا إلى الله سبحانه .

قال تعالى (**الرحمن على العرش استوى**)[4] .

فأثبتت الآية له الاستواء على العرش . .

قال تعالى (**وهو القاهر فوق عباده**)[5] .

مما يؤخذ منه نسبة الجهة لله تبارك وتعالى . .

من آيات الصفات ما يوحى بشبهة الحركة والانتقال فى المكان والتحيز فى جهة كقوله تعالى (**وجاء ربك والملك صفا صفا**)[6] .

وإلى جوار هذه الآيات ، أوردت السنة النبوية الفاظا كالتى وردت فى الآية السابقة . . ومثال ذلك حديث النزول .

« ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » .

. . . .

هذه نماذج لآيات الصفات ، كيف فهمتها الفرق الإسلامية القديمة . . وما هو الفهم اللائق بجلال الله فيها ؟

فى البداية .

يجب أن نفهم أن أى تجسيم لله أو أى تشبيه له . . يخرج بصاحبه من ظلال العقيدة الإسلامية ، كما أن أى تعطيل للصفات بحيث ننكرها تماما يخرج بالمنكرين من ظلال العقيدة . .

وإذن فان الأخذ بظاهر الآيات واعتقاد أن لله وجها كوجوه الخلق ، أو يدا كأيديهم ، يؤدى بصاحبه إلى وثنية جديدة تقف ضدها عقيدة الإسلام ،

---

(١) سورة المائدة آية ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣٠ .

(٣) سورة المائدة آية ١١٦ .

(٤) سورة طه آية ٥ .

(٥) سورة الأنعام آية ٦١ .

(٦) سورة الفجر آية ٢٢ .

كما أن انكار الصفات ومدلولاتها هو لون من ألوان التحريف فى العقيدة الإسلامية ، وهو وثنية جديدة يقف ضدها الإسلام . .

ما هو فهم علماء السلف والخلف لهذه الآيات والأحاديث ؟

عبثا نبحث عن ظل لهذه القضية فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عصر الخلفاء الراشدين ، فقد كانت هذه العصور هى قمة بناء الدولة الإسلامية ، ولم يكن المسلمون الأوائل يتكلمون فى العقائد ويتناظرون فيها ، وإنما كانوا يجاهدون فى سبيل الله وينشرون الإسلام فى الأرض . كانوا مسلمين عمليين ، وكانوا مؤمنين بحق ، وكان موقف السلف هو الايمان بهذه الآيات والأحاديث وتصديقها كما وردت . . كانوا يثبتون ما أثبته الله لنفسه . . كاليد والعين والإستواء ، وكانوا يتركون بيان المقصود منها لله عز وجل . . فهو سبحانه الذى يعلم المعنى الحقيقى المقصود .

سئل مالك بن أنس « الرحمن على العرش إستوى » . كيف إستوى ؟ .

قال « الإستواء معروف ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » ثم أمر بالسائل فأخرج .

وسأل أحمد بن حنبل ، أبا عبدالله المحدث عن أحاديث الصفات ، مثل « ان الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا » قال أبو عبد الله : نؤمن بها ونصدق بها ولا نسأل عن الكيفية والمعنى ، لا نرد منها شيئا ، ونعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق إذا كان بأسانيد صحاح ، ولا نرد على الله قوله ، ولا يوصف الله تبارك وتعالى بأكثر مما وصف به نفسه ، بلا حد ولا غاية ، ليس كمثله شىء .

وقال أبو عبد الله « ما وصف الله به نفسه أو سماه على لسان رسوله سميناه كما سماه ، ولم نتكلف منه صفة ما سواه ، لا هذا ولا هذا . . لا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف » .

. . . .

كان السلف كما ترى يرون الوقوف عند النصوص ، ولا يسمحون لأنفسهم بتأويلها ، لأنهم يرون أن معرفة صفات الله وذاته فوق إدراك العقل البشرى ، وقد فهموا أن العقل لا يملك من القدرات ما يستطيع به إدراك الكيفية أو الكنه ، فتحاشوا السؤال بما . . وكيف . .

وقالوا : إذا عجزنا فى أنفسنا عن « ما » دائما وعن « كيف » كثيرا . فكيف نستطيع أن نجيب « بما » و « كيف » فى ذات الله وصفاته . . ؟

وما دام الأمر كذلك ، فنحن نؤمن بما جاء . . كما جاء . .

هذا هو موقف السلف رضوان الله عليهم . . موقف التسليم والتفويض لله . آمنوا بالآيات كما وردت ، وتركوا المقصود منها لله عز وجل ، واعتقدوا تنزيه الله تعالى عن المشابهة لخلقه .

أما موقف الخلف فقد اختلف ، إذ أنهم تقدموا بعقولهم فى هذا المجال . . قالوا إننا نقطع بأن معانى ألفاظ هذه الآيات لا يراد بها ظواهرها ، لقد نزل القرآن بلغة العرب ، ونزل بلسان عربى مبين ، وللعرب تشبيهات ومجازات ، وليس هناك ما يمنع من تأويل هذه الآيات وتنزيه الله . .

وإذن فان قوله تعالى : (**يد الله فوق أيديهم**) يعنى أن قدرته تعالى تحفظ قرار المؤمنين بمبايعة الرسول ، يقول العرب أن البلدة فى يد الأمير ويكون الأمير مسافرا أو مقطوع اليد ، والقول كناية عن تبعية البلدة للأمير ، وليس المعنى أنه يمسكها فى يده . .

يقول أبو الفرج بن الجوزى الحنبلى « ويبقى وجه ربك » معناها ويبقى ربك ، أما « يريدون وجهه » فهى بمعنى يريدونه . . وقال الضحاك وأبو عبيدة « كل شيء هالك إلا وجهه » يعنى إلا هو .

ويرى ابن الجوزى أن مذهب السلف لم يكن أخذ هذه الآيات على ظاهرها ، لأن الأخذ بظاهرها فيه تجسيم وتشبيه ، إنما كان مذهب السلف هو السكوت تماما عن البحث فيها ، وهذا ما نعتقده .

ويقول فخر الدين الرازى « وإعلم أن نصوص القرآن لا يمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه . . الأول أن ظاهر قوله تعالى (**ولتصنع على عينى**) يقتضى أن يكون موسى عليه السلام مستقرا على تلك العين ملتصقا بها مستعليا عليها ، وذلك لا يقوله عاقل ، والثانى أن قوله تعالى (**واصنع الفلك بأعيننا**) يقتضى أن يكون آلة تلك الصنع هى العين ، وهذا ما لا يقوله عاقل . . فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل . . فيصبح معنى هذه الألفاظ هو شدة العناية والحراسة .

وقال حجة الاسلام الغزالى فى تفسيره لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » قال : لو فتشنا عن

قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع ، فعلمنا أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا فى تفهم تمام الإقتدار . .

. . . .

هذا هو موقف الخلف من آيات الصفات . موقف استخدام العقل وتأويلها بما يفيد تنزيه الله عن مشابهة غيره . .

ورغم أن السلف والخلف كانا يهدفان لتنزيه الله عز وجل . . رغم إتفاق الفريقين على أن ظاهر النصوص غير مراد فى حق الله تعالى ، رغم معرفة كل من الفريقين أن اللغة إشارة إنسانية إلى شىء ، والله ليس كمثله شىء ، وبالتالى فان تعبيرات اللغة فى حقه لا تعنى ما تعنيه فى حق البشر ، رغم هذا كله اختلف الفريقان . يقول كتاب العقائد لشهيد الإسلام حسن البنا : « اتفق السلف والخلف على أصل التأويل ، وانحصر الخلاف بينهما فى أن الخلف زادوا تحديد المعنى المراد حسبما ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك ، حفظا لعقائد العوام من شبهة التشبيه ، وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتا . . ونحن نعتقد أن رأى السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعانى إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالإتباع ، حسما لمادة التأويل والتعطيل ، ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق . . ولا تستدعى هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديما وحديثا . وصدر الإسلام أوسع من هذا كله ، وقد لجأ أشد الناس تمسكا برأى السلف إلى التأويل فى عدة مواطن ، مثل الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، من ذلك تأويله لحديث « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه » ، والخلاصة أن السلف والخلف قد إتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق ، وهو تأويل فى الجملة ، وإتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز ، فإنحصر الخلاف فى تأويل الألفاظ بما يجوز فى الشرع ، وهو هين كما ترى ، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم ، وأهم ما يجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن هو توحيد الصفوف وجمع الكلمة » . .

. . . .

توحى الكلمات الأخيرة باشفاق المفكر الإسلامى على الأمة أن تختلف

كما اختلفت فى الزمان القديم . .

ولقد كان للاختلاف أسباب سياسية فى الأعم الأغلب . .

وهذه الأسباب زالت بزوال الأيام وهلاك المتصارعين ، ولم يبق لنا غير أسلوبين من أساليب النظر لآيات الصفات . .

ونحن نرى أن هدف السلف والخلف كان تنزيه الله تبارك وتعالى ، وإذن فقد كان كلاهما على حق . .

اختلفت مستويات النظر إلى الآيات . . واختلف فهمها تبعا لذلك وكان هدف المستويات جميعا واحد ، هو إثبات أن الله ليس كمثله شىء . . لا نريد أن نحكم لفرقة على فرقة . . فقد سقطت القضية بالتقادم ، ولا نحب أن نتهم فرقة لحساب فرقة . . لأن الإسلام دين تجميع لا دين تفريق . .

كانت نوايا الفريقين إثبات التنزيه . . وكان كلاهما على حق . . فقد اختار إحدهما طريق التسليم وسلك الثانى طريق العقل ، وإذن فإن الاختلاف ـ فى حدوده الضيقة هذه ـ من دلائل رحمة الله بعباده ، فقد ألزمهم بآيات معينة . . ولم يلزمهم بفهم معين . .

ومن حق من يطمئن قلبه للتسليم كالسلف أن يسلم . .

ومن حق من يطمئن عقله للتأويل كالخلف أن يؤول . .

هذا كله حق إذا وقع بين العلماء ولم يتجاوزهم إلى العامة وكان هدفه هو التنزيه . .

الباطل أن يتهم أحد الفريقين الآخر بالخروج من الدين كما حدث قديما . . أو نستخدم العنف كأداة للإقناع كما يحدثنا التاريخ .

صدر الإسلام أوسع من هذا كله .

يرينا التاريخ الإسلامى أن الفكرة التى تدثرت بالصمت البحت على فم ابن حنبل . . كانت أقوى من كل سيوف المأمون والدولة العباسية . .

مرة أخرى . .

صدر الإسلام أوسع من هذا كله . .

ويعتبر رأى الإمام محمد عبده ـ الذى أورده فى رسالة التوحيد ـ رأيا له أهميته فى هذا المجال ، لقد بدأ بذكر الحديث المنسوب إلى رسول الله : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » فقال : إن لم يصح هذا الحديث ، فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه » .

يرى الإمام أنه : إذا قدرنا عقل البشر حق قدره ،وجدنا غاية ما ينتهى إلى كماله ، إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها . . وأما الوصول إلى كنه حقيقة ما ، فمما لا تبلغه قوة العقل البشرى . .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله - إن كان سليما - إنما هى تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به ، وإدراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب . فالاشتغال بالاكتناه ، إضاعة للوقت وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه .

يكفينا من العلم بصفات الله أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك ، فهو مما يستأثر هو بعلمه ، ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، وأما كيفية الإتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها . . وما علينا إلا الوقوف عند . . ما تبلغه عقولنا . .

علم الكلام

تقوم العقيدة الإسلامية على دعوة العقل للحضور ولفت انتباهه لما يدور حوله أو يجرى داخله ، وتستنكر أن يقدم الإنسان أفكار أسلافه ويؤخر عقله .

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون)[1] .

أيضا ينهض التكليف على العقل ، وحكم فاقد العقل أنه غير مكلف ولا مأمور بشيء ولا مسئول عن شيء . .

وإذا كان القرآن قد أعلى من شأن العقل فى عقيدة الإسلام ، وجعله أداة للخلافة فى الأرض ، وتحقيق أمر الله فيها ، فإنه لم يجعل له الوصاية على القلب أو الروح ، ولم يجعله بديلا عن الوجدان أو المشاعر ، ولم يسمح له أن يكون حكما نهائيا فى أمور الغيب أو العالم الآخر . . فهذه مناطق لا يمكن استكشافها بأنوار العقل وحده . .

ظل الأمر بهذا التوازن المدهش طوال عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وما تبعه من عصور راشدة ، لم يكن التوحيد أيامها علما نظريا يتناوله المسلمون بالبحث والمناظرات والجدل والفلسفة . .

كان الأمر أبسط من هذا وأعمق وأشد فعالية . .

كان التوحيد استمرارا متجددا لبناء مجتمع الموحدين ودولتهم ، وكان التوحيد هو أخلاق القرآن وقد تحولت إلى رجال يسيرون على الأرض ، ولم يكن أحد من المسلمين العرب يتوقف عند المشاكل التى ستثور فيما بعد ، أو تلفت إنتباهه القضايا التى لم ينكشف عنها ستار الغيب .

---

(١) سورة الزخرف آية ٢٢ .

ومرت أيام الله . . بكل ما يخبئه الحق فيها من إمتحانات ثقيلة ، وقد بدأت هذه الإمتحانات غداة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير أن يحدد من يخلفه بعده ، واختلف المهاجرون والأنصار فأسرع عمر يبايع صاحب رسول الله فى الغار ، أبا بكر الصديق ، واعتبر هذا التصرف تجاوزا ـ رغم حسن الإختيار ـ لأن المسلمين لم يستشاروا فيمن يكون خليفة . واتبع أبو بكر طريقة ثانية . فعهد بالخلافة إلى عمر واتبع عمر طريقه ثالثة ، فعهد إلى ستة من ذوى الحكمة والرأى باختيار خليفته ، وأختير عثمان بن عفان ، وكان عثمان بن عفان هو سيد أكبر دولة فى الأرض ، ورغم هذا لم يكن فى بيته سلاح يدفع به عن نفسه المهاجمين ، وفى يوم الجمعة ١٧ يونيو سنة ٦٥٦ ميلادية ، اقتحم الثائرون بيت عثمان وقتلوه وهو جالس يقرأ القرآن ، وسالت دماء الخليفة على نسخة القرآن التى كان يقرأ فيها ، واصطبغ القميص بدمه ، وتداعت الأحداث وبدأت الفتنة الكبرى . . وصار قميص عثمان كافيا لإثارة الهموم وتحريك المطالبين بثأره ، ونجح معاوية بن أبى سفيان فى استغلاله قميص عثمان فبويع بالخلافة رسميا بعد أربع سنوات من استشهاد عثمان ، ووقعت فى هذه السنوات محن ثقيلة .

كان على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قد أمسى هو الشخصية الأولى بين المسلمين بعد وفاة عثمان ، وبايعه الناس بالخلافة فى مسجد المدينة ، ولكن عائشة رضى الله تعالى عنها دعت المؤمنين ـ وكانت فى مكة ـ إلى الثأر لمقتل عثمان ، ووقفت ضد على ، ومرت الأيام فإذا عائشة وعلى بن أبى طالب يلتقيان فى معركة . .

وكان الموقف باعثا على الدهشة العميقة . .

وجهان من وجوه المسلمين لا يشك أحد فى ايمانهما . . يقفان معا موقف الصراع ، انتصر على فى الصراع ثم فوجىء بأن معاوية بن أبى سفيان ، رأس البيت الأموى وأمير سورية ، يرتدى قميص عثمان ويطالب بدمه ويتهمه بأنه كان وراء قتله . . كانت براءة على بن أبى طالب أرفع من أن تلتفت إلى التهمة ، وتداعت الأحداث فالتقى جيش على بن أبى طالب بجيش معاوية فى واقعة صفين . . وقبل على التحكيم ، وخرج عليه الخوارج لأنه نزل على قرار هيئة من البشر ، بينما الحكم لله وحده . .

بعد ذلك قتل على كرم الله وجهه فى مسجد الكوفة ، بعد سلسلة من

الخيانات الموجهة ضده . .

وهكذا أسفر الصراع بين على . . بكل تقواه وعلمه وورعه ، ومعاوية بكل دهائه ودنيويته وأطماعه ، أسفر الصراع عن فوز الأكثر دهاء ودنيوية .

فى هذه الظروف كلها . . ولدت كلمة الاعتزال والمعتزلة . .

حين بدأت المحنة ووقع القتال بين على وعائشة ، وعلى ومعاوية إعتزل حكماء المسلمين هذا الصراع كله . . . لم ينغمسوا فى حرب الجمل ولم يستدرجوا لواقعة صفين . .

كان معتزلة ذلك الزمان القديم يرون أن الحق لم ينكشف فى أحد الجانبين انكشافا يرجحه على الجانب الآخر ، وربما كانوا يرون أن الحق مع أحد الجانبين بدرجة أكبر من الجانب الثانى ، وكانوا يعرفون أن عليا وعائشة مؤمنين ، فكرهوا أن يدخلوا فى القتال بين مؤمنين . .

مهما يكن من أمر فقد ولدت كلمة الاعتزال فى ذلك العصر ، وسمى هؤلاء الحكماء بالمعتزلة . . بعد مائة عام عاد الاسم إلى الظهور بظهور المعتزلة الذين خلقوا علم الكلام فى الإسلام . .

ما هو المقصود بعلم الكلام ؟ ما هى أهميته وأسباب نشوئه وأهدافه ؟

من هم المعتزلة ؟ كيف ظهروا على مسرح التاريخ الإسلامى وكيف أسدل عليهم الستار ؟

. . . .

علم الكلام هو علم التوحيد . . وهو علم يبحث فيما ينبغى أن يعرفه المسلم عن الله وأسمائه وصفاته ، ويبحث فى الأنبياء والرسل والرسالات ، ويبحث فى القضاء والقدر والايمان والحساب ، هو علم موضوعه أصول الدين وعقائده ، وهدفه حراسة العقيدة الإسلامية من غارات الفكر الوثنى عليها . .

والعلم بوضعه هذا من أخطر العلوم الإسلامية . . غير أنه أخطأ فى بداية حياته عدة أخطاء كانت كافية لذهاب دولته . .

هل كان من الخير أن ينشأ علم الكلام فى الإسلام ؟

يرى الأستاذ يحيى هاشم حسن فرغل فى رسالته التى حصل بها على درجة الماجستير « أن علم الكلام قام بهدف دفاعى جليل وخطير ، هو

المحافظة على عقائد المسلمين ، وكان عليه أن يصد أعتى أعداء الإسلام ، وأخطرهم ، وأقواهم سلاحا . .

وإن المرء ليكاد يؤخذ من هول تصوره ، لما كان يمكن أن يحدث لو أن هجوم العقائد المغيرة وجد بين المسلمين فراغا أو التقى فيهم بالمواقف السلبية . .

وكان لهذا العلم ، إلى جوار هدفه الدفاعي دور ايجابي يتعلق بتفهم مسائل العقيدة كما وردت في الكتاب والسنة . . وصحيح أن المنهج الذي عولج به هذا العلم مؤخرا كان غريبا على روح القرآن والسنة ، وصحيح أن هذا العلم كان سببا في احداث المذاهب وترسيخ التفرقة واثارة الشبهات واحياء الجدل ، إلا أن له غاية جليلة ينبغي الالتفات إليها ، هي قيادة مسيرة الحضارة الإسلامية في طريقها » .أ هـ .

والحق أن علم الكلام نشأ لأسباب عديدة . .

كانت حروب التحرير الإسلامية قد شقت طريقها في قلب العالم القديم مثل سكين يشق قطعة من الزبد ، لم يكد يمضي عام واحد على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى كان جنوب العراق قد فتح ، بعده بثلاث سنوات فتحت دمشق واندحر الفرس في القادسية ، بعد سبع سنوات فتحت مصر ، بعد مصر بعام تهاوت فارس ، بعد ١٥ عاما ، استسلمت طرابلس الغرب ، بعد ١٧ عاما احتلت قبرص ، بعد ٣٨ عاما من وفاة الرسول فتحت أفريقيا على يد عقبة بن نافع ، وفي خلال أعوام قصيرة فتحت القسطنطينية والأندلس والسند ، ولم يكد القرن الأول يمضي على انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، حتى كانت القوتان العظميان في الأرض قد خضعتا للإسلام ، وفتحت ممالك الأرض العامرة أبوابها لرايات التوحيد . وترامت الديار الإسلامية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وكانت السرعة التي تم بها فتح هذه الدول دليلا على قدرة التوحيد على تغيير الحياة والمجتمعات .

وكان من آثار هذه الفتوح أن دخلت في الإسلام أمم وأجناس وأفكار وثقافات وفلسفات جديدة ، واختلط الفرس بالروم بالسريان بالمجوس بالعرب ، وأسلم كثير من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية ، أسلموا ورؤوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ، لم يزد عليهم إلا النطق بالشهادتين ، وسرعان ما أثاروا في الإسلام نفس المسائل التي كانت تثار في أديانهم .

وكانت هذه الأديان قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ، ونظمت طرق بحثها وتعمقت فى ذلك كثيرا ، وبدأ الهجوم على الإسلام من داخله ، بدأت اثارة الشكوك حوله ، ولم يكن فى استطاعة الإسلام أن يضرب الأفكار المثارة بالسيف ، وإلا فقد ميزة من أخطر ميزاته ، وهى سماحه بالحرية وتسامحه الفكرى إنما أضطر العلماء أن يتصدوا بالفكرة للفكرة . .

وكان هذا من أسباب نشأة علم الكلام . . إلى جوار أسباب عديدة أخرى كالسياسة والصراع بين الفرق وإمتزاج الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى . .

وحين ظهر المعتزلة على مسرح الحوادث . . كانوا قد درسوا الفرق الأجنبية وأقوالها وحججها وكانوامطلعين على أقوال الخصوم وأدلتهم ، وكانوا مسلحين بالفلسفة اليونانية والمنطق واللاهوت ، وهكذا قرأ النظام ارسطو ورد عليه . . واستخدم كثير من المعتزلة تعبيرات الفلاسفة . . وكانوا يمثلون فكرا متقدما فى زمانهم ، رغم ذلك صنفهم كثير من علماء الزمان القديم مع أهل البدع والخارجين على الإسلام .

يقول الإمام الموفق ابن قدامه المقدسى . . فى رسالته لمعة الاعتقاد .

« من السنة هجران أهل البدع ومباينتهم وترك الجدال والخصومات فى الدين ، وترك النظر فى كتب المبتدعة ، والإصغاء إلى كلامهم ، وكل محدثة فى الدين بدعة ، وكل متسم بغير الإسلام والسنة مبتدع كالرافضة والجهمية والخوارج والقدرية والمرجئة والمعتزلة والكرامية والكلابية ونظائرهم ، فهذه فرق الضلال وطوائف البدع أعاذنا الله منها »[1] .

---

(١) أما الرافضة فقد جاءوا إلى زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وطلبوا منه أن يتبرأ من أبى بكر وعمر حتى يكونوا معه ، فقال بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما . فقالوا إذا نرفضك ، فرفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضة أما الجهمية فينتسبون إلى جهم بن صفوان ؛ وهم من الجبرية الخالصة ، الذين وافقوا المعتزلة على نفى صفات الله الأزلية وزادوا عليهم .

أما الخوارج فهم الذين خرجوا على سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وقالوا « لا حكم إلا لله » فقال : كلمة حق يراد بها باطل . . والخوارج لا يطيعون السلطان من أئمة المسلمين .

أما القدرية فقد لقبوا بذلك لأسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم كل دور للقدر فيها ، وهذا يقتضى إثبات خالق لأفعال العباد غير الله .

هذا رأى عالم من القدماء . . وهو رأى يضع المعتزلة مع أعدى أعدائهم فى سلة واحدة ، كانوا يقولون بحرية الإنسان وإرادته الكاملة ، فساواهم العلماء بمن يقول بانعدام إرادة الإنسان مطلقا . .

ولعل الإمام ابن قدامة لم ينظر فى كلام المعتزلة إلا وهو ضيق الصدر ، لعله نظر فى الآثار التى نجمت عن كلامهم أكثر مما نظر فى كلامهم ، وقد كانت آثارا تعسة حقا .

وفى المحدثين من يغض الطرف عن آثار كلامهم ، وينظر فيما قالوه وحده . . فيراه خيرا كله . . كالدكتور محمد عمارة فى تحقيقه لرسائل العدل والتوحيد . . يقول : « فالمعتزلة ، أهل العدل والتوحيد ، مثلا ، هم أكثر المدارس الفكرية تعبيرا عن أصالة الشخصية العربية الإسلامية ، فهم الذين استخدموا المنهج العقلى فى البحث ، دون أن يكونوا أسرى الفكر اليونانى ، ودون أن ينفصلوا عن قضايا العقيدة التى كانت تزخر بها المجتمعات العربية الإسلامية فى عصورهم ، والذين كانوا رجال فكر وسياسة وثورات وعلم وهندسة وزهد . . هذه المدرسة لا تزال آثارها حبيسة المخطوطات موزعة فى مختلف المكتبات ، على الرغم من قلة هذه النصوص التى بقيت لأهل الإعتزال ، حيث أن الجانب الأكبر من آثارهم قد أبيد بفعل أعدائهم منذ قرون » .

. . . .

أنت ترى كيف يختلف العلماء حول المعتزلة ، والحق أن المعتزلة لم يكونوا ابتداعا بحتا وشرا محضا كما يرى الإمام ابن قدامة ، ولم يكونوا خيرا بحتا كما يرى د . محمد عمارة .

= أما المرجئة فأصناف : صنف منهم يقولون لا يضر مع الايمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم المراد هنا .

أما المعتزلة فهم نشأوا من فريق فى جيش على واعتزلوا السياسة ؛ وقيل سموا بذلك لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصرى وعلى رأسهم واصل بن عطاء ، وكان غالب بدعتهم وظلالهم من الكلام والفلسفة .

أما الكرامية فأصحاب أبى عبد الله بن محمد بن كرام ، وكان ممن يثبت الصفات إلا أنه ينتهى إلى التجسيم والتشبيه .

أما الكلابية فينتسبون إلى عبد الله بن سعيد بن كلاب البصرى ، وهو متكلم ، وهو رأس الطائفة الكلابية ، وكانت بينه وبين المعتزلة مناظرات .

كان المعتزلة كبشر مزيجا من الخير والشر ، كانوا مفكرين من طراز عقلى جرىء ، كانوا فرسان الجناح العقلى فى الإسلام . .

لكن غلوهم فى العقل أفسد كل شىء . .

جاءت النتائج شبيهة بالغلو فى الخرافة . .

وقد دخل المعتزلة مسرح التاريخ الإسلامى بشكل بالغ الجسارة . .

انهم يدافعون عن الإسلام فى الفصل الأول . . يتحدثون كثيرا عن الحرية التى منحها الله لعباده حتى صاروا يخلقون أفعالهم . .

غير أنهم فى الفصل الأخير يخبئون السيوف فى عباءاتهم توطئة لذبح هذه الحرية التى منحها الله لعباده ، ولقد صدرت منهم فى البداية مئات الكلمات الطيبة ، وأهدر قيمتها الفكرية التماع الضوء على سيوف القهر والإلزام .

ولقد ارتكب المعتزلة عشرات الأخطاء التى ولدت كلها من خطأ رئيسى واحد . . هو الافتتان بالعقل . .

رأى المعتزلة أن العقول خلقت للمعرفة . . نحن نعرف الله والنبى بالعقل ، وإذن يجىء العقل قبل كل شىء ، ويملك العقل النظر فى كل شىء ، ويستطيع حل جميع المعضلات ، بل ان مهمة العقل أن ينظر فى كل شىء ، ويناقش كل شىء ، ويستكشف كل شىء .

كان تفكير المعتزلة تفكيرا حادا يتسم بالجرأة ، وكان فيهم تعصب أساء إلى دعوتهم ، وعنف أفقدهم عطف الناس ، وكانت فيهم جرأة على الحقيقة ، وهذه حسنة من حسناتهم ، غير أن جرأتهم امتدت إلى الناس ، ثم ما لبثت أن اجترأت على الله عز وجل . . فحاولوا قياسه . . سبحانه على القوانين البشرية . .

وحين قاومهم العلماء رفعوا سيوفهم وقتلوا من تختلف وجهات نظره عن وجهة نظرهم . .

وانتهى بهم الأمر إلى أن صرخوا على العقل أن يعد سفينته للإبحار فى محيط الألوهية الجليل . .

كانت رحلة بلا عودة . .

وغابت السفينة فى غياهب الموج . .

وتحطمت سفينة الإعتزال ، وذهب المعتزلة إلى غير رجعة ، وأضيف ذهابهم فى الحساب النهائى لقائمة الخسائر التى لحقت بالمسلمين ، فقد كانوا يستطيعون إضافة الكثير للفكر الإسلامى ، لو أنهم ساروا بعقولهم فى الطريق الصحيح الذى خلقت له ، وهو طريق العلوم البشرية ، لا طريق علم الكلام . .

أو لو أنهم ساروا فى علمهم هذا سيرته الطبيعية داخل قاعات الدرس ولم يخرجوا به إلى الناس ويحاولون فرضه على العامة . .

ان الغوص فى أعماق الأشياء جزء من مهمة العقل الإنسانى ورسالته ، ولكن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، والخوض فى ذاته وصفاته وأفعاله ومشيئته بالعقل وحده ، لا يقود إلى شيء . . ان مقام البشرية هو العلم البشرى . . هذا مقام العقل ومجاله ، ووقوف الإنسان عند حدوده ذكاء ونضج ، ولو أننا تصورنا النتائج التى يفيد منها المسلمون من عقول المعتزلة الجريئة لو أنها انصرفت إلى الطب والفقه والهندسة والفلك بدل انصرافها للصفات وأفعال الله وخلق القرآن . . لو تصورنا التقدم الذى كان متاحا بهذه الإمكانيات ، وكيف ذهب هذا كله إلى حيث لا يفيد منه أحد ، بل أهدر هذا كله فيما يعود بالضرر العام . .

لو تصورنا هذا لأدركنا مدى الخسارة . ..

ينتقد الدكتور أحمد أمين أصول المعتزلة ويحللها فيعترف بما لهم من فضل ، ويقر بما أحدثوا من آثام . . يقول : « ان التاريخ الإسلامى لم يشهد قبل المعتزلة هذا القول الشامل الفلسفى فى الله وصفاته وأفعاله ، مع البراهين العقلية ، والحجج النقلية ، كما شهده فى المعتزلة ، وقد كانت نظرتهم فى توحيد الله نظرة فى غاية السمو والرفعة ، فطبقوا قوله تعالى : (**ليس كمثله شيء**) أبدع تطبيق ، وفصلوه خير تفصيل ، وحاربوا كل المذاهب التى تلتصق بالتجسيم والتشبيه . . كما وقفوا أمام مشكلة المثوبة والعقوبة فرأوا أن ذلك لا يكون له معنى إلا بتقرير حرية الإرادة فى الإنسان . . وأنه خلق أعماله نفسه ، وان فى امكانه أن يفعل الشيء وألا يفعل ، فإذا فعل بإرادته وترك بإرادته ، كانت مثوبته أو عقوبته عادلة ومعقولة ، أما إذا كان الله يخلق الإنسان ويضطره إلى العمل على نحو

خاص ، فيضطر المطيع إلى الطاعة ، والعاصى إلى العصيان ، ثم يعاقب هذا ويثيب هذا ، فليس من العدالة فى شىء .

ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا فى قياس الله على الإنسان ، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله - مثلا - بالعدل كما يتصوره الإنسان ، وكما هو نظام دنيوى ، وفاتهم أن معنى العدل - حتى فى الدنيا - معنى نسبى يتغير تصوره بتغير الزمان ، وإن ما كان عدلا فى القرون الوسطى يعد ظلما الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيا إلى عالم الله . . » . أ هـ .

. . . .

ما هى أصول المعتزلة ؟

يقوم الإعتزال على خمسة أصول (★) القول بالتوحيد ، (★) القول بالعدل ، (★) القول بالوعد والوعيد ، (★) القول بالمنزلة بين المنزلتين ، (★) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أول أصل من أصول المعتزلة هو التوحيد ، وقد ذهبوا فى تفسيره لأعماق بعيدة ، وبلغوا فى تحليله وفلسفته أقصى حد ، فهم يرون كمسلمين أن الله ليس كمثله شىء ، وكان كثير من علماء المسلمين يومئذ يؤمنون بالتنزيه إيمانا مجملا ويمسكون عن الكلام فى الآيات المتشابهة ، أما المعتزلة فقالوا أننا نستمسك بآيات التنزيه ونتعرض للآيات الأخرى ونتأولها تأويلا يتفق والتنزيه ، ولا نعكس ، لأن الإسلام دين توحيد وتنزيه . .

وصحيح أن المسلمين جميعا يقولون بالتوحيد والتنزيه ، ولكن المعتزلة يضيفون بعدا فلسفيا بالحديث عن النتائج التى تلزم القول بالتوحيد ، وعندهم أن من هذه النتائج أن يكون الله أزليا بذاته ، أما صفاته تعالى فليس لها استقلال عن الذات ، بمعنى أن علم الله ليس صفة منفصلة عن الذات الالهية ، فهو عالم بتلك الذات الالهية نفسها ، لا بوقوف صفة العلم وحدها ، ولم يكن هذا اللون من الكلام - الذى يستخدم أدوات المنطق والفلسفة اليونانية مستساغا أو مفهوما عند الكافة ، فعارضه السلفيون وقالوا أن المعتزلة يعطلون صفات الله ولهذا سموهم بالمعطلة .

نظر المعتزلة للآيات المتشابهة الواردة فى الصفات كاليد والعين ، وأولوا

المعانى بالقدرة والرعاية ، مضيا مع التنزيه إلى نهايته . . أيضا توقف المعتزلة عند وصف كلام الله ، وتساءلوا هل هو أزلى كالله أو حادث ومخلوق ، واعتقدوا أنه مخلوق ، وعارض المحدثون وقالوا ان القرآن كلام الله تعالى ، لا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، فإثارة هذه المسألة بدعة لم يقلها النبى ولا صحابته ، فلا نتابعكم فى السير فيها . هذا أول أصل من أصول المعتزلة . . قولهم بالتوحيد بأبعاده الفلسفية الجديدة ، أما الأصل الثانى فقولهم بالعدل الإلهى ، فهم لا يتصورون العدل الإلهى إلا إذا كان الإنسان صاحب إرادة حرة قادرة على الفعل ، ولهذا وقف المعتزلة فى صف الحرية الإنسانية ، وجادلوا القائلين بالجبر وفندوا أقوالهم ، وعلى رأسهم جهم بن صفوان ، كانوا يعارضون أن يكون الإنسان كالريشة فى مهب الريح ، أو كالخشبة بين يدى الأمواج .

أما الأصل الثالث فقولهم بالوعد و الوعيد ، والمقصود بالوعد أن يثاب من خرج من الدنيا على طاعة وتوبة ، ومعنى التوحيد أن يعاقب من خرج من الدنيا من غير توبة ، فهم يربطون الثواب والعقاب بالأعمال ربطا حتما ، وغلا بعضهم فى التعبير فقالوا : يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة ، إشار إلى اعتقادهم أن ثواب الطاعات وعقاب المعاصى قانون حتمى التزم الله تعالى به .

وقد تفرع عن هذا الأصل ، القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو القول فى مؤمن ارتكب كبيرة من الكبائر ، ان رأى المعتزلة أنه لا يظل مؤمنا ، ولا يصير كافرا ، فهو فى منزلة بين المنزلتين : الكفر والإيمان ، ولقد كان هذا نقطة البدء للمذهب المعتزلى كله ، ذلك أن القتال بين على ومعاوية أثار فى أذهان الناس قضية هامة ، ان « عليا » يقاتل دفاعا عن الإسلام ، ومعاوية يقاتل - كما يزعم - دفاعا عن الإسلام ، ومحال أن يكون الطرفان المتقاتلان على صواب ، لا بد أن يكون أحدهما على الأقل مخطئا ، هذا الخطأ قد أودى بأرواح مئات الضحايا من خيرة الناس ، ما هو الحكم فيمن يثبت أنه هو المخطىء ؟

هل يكفر أم لا . . قال الخوارج أنه يكفر ، وقال المرجئة بتأجيل الحكم إلى يوم الحساب . فلما عرض الأمر على مجلس الحسن البصرى ، وكان

واصل بن عطاء بين الحاضرين فأفتى بأن مرتكب الكبيرة يقع فى منزلة بين المنزلتين (يقصد الإيمان والكفر) ، ولم يرض شيخه الحسن البصرى عن هذه الفتوى ، فترك واصل مجلسه وجلس بعيدا عنه فى المسجد . . قال الحسن البصرى :

اعتزلنا واصل . .

وكان اعتزاله هذا بداية الإعتزال والمعتزلة .

أخيرا يجىء الأصل الخامس من أصولهم ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويرى المعتزلة أن هذا الأمر ليس جملة تقال بالفهم ، وإنما هو سلوك يجب على المؤمنين أن يسلكوه ، بمعنى التدخل للنهى عن المنكر بالقوة ، وحمل الناس بالقوة على ما يرونه واجب الإتباع ، وهذا هو تصورهم للجهاد فى سبيل الله . .

هذه صورة سريعة لما أراده المعتزلة للناس من مبادىء الفكر والعمل . . ورغم أن جزءا من كلام المعتزلة كان دفاعا عن التوحيد والتنزيه ، وكان يثبت لله تعالى الخير وينسب الشر للإنسان ، وكان يرى أن الإنسان حر ومختار وفاعل ، وهذا كله صواب وخير . .

غير أنهم بدأوا الشر يوم أفلت منهم قياد العقول ، ولم يعد فيهم من يستطيع كبح جماحها . . وكان هذا يوم ابتدعوا بدعتهم فى القول بخلق القرآن ، وحاولوا فرض رأيهم على الناس بقوة السيف .

. . . .

ظهر القول بخلق القرآن فى آخر الدولة الأموية على لسان الجعد ابن رهم ، معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . . ولم يكن هذا القول بلا أصل ، فأصله البعيد يرجع لطالوت بن أعصم اليهودى .

منشأ الفكرة كما ترى هم اليهود . . ونحن نعلم كيف كاد اليهود للإسلام ، ووضعوا فى السنة مئات الأحاديث المكذوبة ، واحتالوا على القرآن فلم يستطيعوا الإضافة إليه أو التبديل فيه ، فتساءلوا هل هو قديم أم مخلوق ، وذهبوا إلى أنه مخلوق . . وورثت المعتزلة هذا القول عن الجعد والجهم . . ولسنا نعرف ، هل وقع المعتزلة فى الفخ دون ادراك ؟ أو ورثوا هذا القول كما يرث المقاتل سلاحا من أسلحة خصمه فى حرب مستمرة ، فيستخدم السلاح دون أن يدرك خطره على عقيدته . . لا نعرف الحقيقة فى هذا كله

لأن نواياهم ملك لله وحده هو المطلع عليها . . كل ما نعرفه أنهم أخطأوا خطأهم البالغ حين ذهبوا إلى القول بكفر من يخالفهم فى الرأى ، وظلت المسألة تنمو ويدور حولها الجدل ، وتتسع فيها الأقوال ، وتؤلف فيها الكتب حتى جاء عصر المأمون .

وكانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى تركز فيها الاعتزال فى عصره ، وولدت المحنة على يديه سنة ٢١٨ هجرية ، واستمرت ستة عشر عاما كاملة ، وبعدها رحم الله وانتهت المحنة .

بدأت المحنة برسالة من المأمون بن الرشيد العباسى إلى والى بغداد ، يخبره فيها أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة أهل جهالة بالله وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايمان به ، والسر فى ذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وما أنزل من القرآن . . فاعتقدوا أن القرآن قديم أزلى لم يخلقه الله ، مع أن الله يقول فى كتابه (انا جعلناه قرآنا عربيا) وكل ما جعله الله فقد خلقه . . قال تعالى : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) فأخبر أنه قصص لأمور حادثة ، وإذن فهو حادث ، بعد هذه المقدمة أخبر المأمون والى بغداد أن هناك من يقول بقدم القرآن ، وهؤلاء شر الأمة ، ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد . .

بعد ذلك أصدر المأمون أمره إلى الوالى أن يجمع القضاة ويقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ويبدأ امتحانهم فيما يقولون .

رأى المأمون ان واجبه تصحيح عقائد الناس الفاسدة ، بوصفه خليفة للمسلمين ، كان المأمون معتزليا ، فقرر امتحان العلماء فى مذهبه ، من أقره أجازه المأمون ، ومن خالفه فصله من منصبه .

وبدأت أغرب فتنة فى تاريخ الإسلام .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى : « احتضنت الدولة العباسية الكبرى فى عهد ملك من أقوى ملوكها ، وأعظمهم شأنا وسلطانا ، عقيدة لا يفهمها العامة ، ولا يوافق عليها جمهور العلماء ، ولا يستسيغها الشعب ، وفرضتها على الجمهور ، وجعلتها فارقا بين الكفر والإيمان ، والشرك والتوحيد ، وأمرت بإقصاء كل من لا يدين بها أو يخالفها ، وامتحانه وتعذيبه ، فكانت محنة عظيمة على الأمة ، وفكرة فلسفية ضاق عنها تفكير العامة ، وضاقت بها نفوسهم ، لأنها تطلب مستوى علميا راقيا ، وإلماما بالفلسفة وذكاء ،

والذين يملكون هذه الأدوات لم يزالوا ولا يزالون قلة بين الشعوب ، ويعجبنى فى ذلك ما قاله الأستاذ أحمد أمين ، وهو يذكر غلطة المعتزلة وبلاهتهم ، على ذكائهم ، فى هذا الشأن : « كان عقل المعتزلة عقلا حادا جافا فلسفيا ، وأضعف نقطة فيه أنه اراد أن يفرض على العامة فرضا ، واراد أن تكون الأمة فلاسفة تعرف الجوهر والعرض ، والكمية والكيفية ، والمحدود واللا محدود ، والوحدة والتعدد والمكان والجهة ، وإلى الآن لم يخلق الله أمة كلها فلاسفة على هذا النمط ، ولا أدرى إذا كان ذلك فى مصلحة الإنسانية أو لا » . .

. . . .

يسخر الأستاذ أحمد أمين من المعتزلة بعبارته الأخيرة ، ولقد كان محقا فى سخريته ، من تناقضات المعتزلة أن عقلهم رغم إيمانه بالحرية ، كان متعصبا غاية التعصب ، فلم يفهم إلا حريته وحده ، ولم ير إلا رأيه فحسب ، وكل من يخالفه الرأى خرج من حظيرة العقيدة الإسلامية بقرار أميرى يصدره أمير المؤمنين . .

وتطورت المحنة . . بعد خطاب المأمون الأول عاد يرسل خطابه الثانى طالبا فيه سبعة من أهل السنة ليمتحنهم بنفسه . . وكان السبعة يقولون بأزلية القرآن ويشنعون على المأمون ، وحضر العلماء فامتحنهم المأمون وسط جو من الإرهاب فقالوا ان القرآن مخلوق . . ويبدو أنهم لجأوا إلى ما يعرف فى الإسلام باسم التقية . . بمعنى أنهم اتقوا سخط الخليفة ووافقوا على ما يقول رغم ثبات قلوبهم على الإيمان . .

وقوى جانب الحكومة بعد هذا الحادث ، وحزن أهل السنة كما حزن العامة . . وعاد المأمون يتجرأ فأرسل خطابا ثالثا لوالى بغداد ، أعلن فيه أنه مسئول عن رعيته ، مسئول عن توحيدهم ، والقول بقدم القرآن شبه إشراك ، فيجب أن يحارب كما يحارب الشرك . . وهكذا أصدر الخليفة أمره بقتل مخالفيه فى عقيدته . . واستند للفكرة التالية :

ان القول بقدم القرآن يضاهى قول النصارى فى ادعائهم أن عيسى ابن مريم غير مخلوق . .

ان عيسى مخلوق ومحدث . . وكذلك القرآن . .

وبصدور هذا الأمر الأميرى تهيأ مسرح الحوادث لاستقبال كثير من الدماء التى سوف تجريها سيوف الخليفة المسلولة . .

وتهيأ المسرح لاستقبال البطل الذى يستطيع تحدى الحكومة والانتصار لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وكانت الحكومة تفرض الاعتزال ، والشعب كله بعلمائه يقف ضده .

وجاء دور امتحان أحمد بن حنبل . .

سأله والى بغداد إسحاق بن ابراهيم : ما تقول فى القرآن .

قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله .

سأله إسحق : أمخلوق هو ؟

قال أحمد بن حنبل : هو كلام الله لا أزيد عليها.

قال اسحق : ما معنى أنه تعالى سميع بصير .

قال أحمد : هو كما وصف نفسه . .

قال إسحق : فما معناه .

قال أحمد بن حنبل : لا أدرى . . هو كما وصف نفسه . .

حرر إسحق بن ابراهيم محضرا بجميع أقوال الممتحنين ومن بينهم أحمد بن حنبل وأرسلها إلى المأمون ، فثارت ثائرته وجن جنونه ، ان العلماء جميعا يقولون أن القرآن كلام الله ، وفيهم من يصرح بأنه مجعول لقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآنا عربيا) ورغم تصريحه بأنه مجعول ، إلا أنه يرفض أن يقول أنه مخلوق . . وطارت رسالة من المأمون إلى والى بغداد أن يقبض على العلماء ويمتحنهم . . فإذا لم يرجعوا ويتوبوا فليرسل إليه المعاندين ، وسيحملهم جميعا على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا بالله . .

وقبضت سلطات بغداد على ثلاثين عالما وقاضيا ومحدثا وفقيها . . وأعاد الوالى امتحانهم بعد أن قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، وكان السيف يومض وراء كل كلمة من كلماته . . وأقروا جميعا بأن القرآن مخلوق إلا أربعة . . أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريرى ، ومحمد بن نوح ، فأمر بهم الوالى فقيدوا فى الحديد ، فلما أصبحوا أعاد عليهم امتحانهم فأعترف سجادة بخلق القرآن فأخلى سبيله ، وبعد يوم أجاب القواريرى فأطلقه ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، وصدرت الأوامر بحملهما معا إلى الخليفة بعد شدهما فى الحديد . .

ومات المأمون وأحمد بن حنبل فى طريقه إليه ، فأعادتهما السلطات إلى بغداد . .

ومات محمد بن نوح وهو عائد من بغداد ، وانتقلت الخلافة إلى المعتصم شقيق المأمون .

وتركزت رياسة المعارضين فى أحمد بن حنبل . .

كان الموقف يوحى بالرهبة . .

رجل واحد يقف أمام أقوى دولة فى الأرض .

كان المعتصم رجلا عسكريا صرفته الشئون العسكرية عن الانغماس فى علم الكلام ، وكان يغالب سأمه وهو يستمع لجدلهم الفلسفى المعقد ، ولكنه ورث عن أخيه المأمون وصية بأن يستكمل سيرته فى الدفاع عن رأى المعتزلة ، والاستماع إلى رأى أحمد بن أبى دؤاد زعيمهم ، وامتحان ابن حنبل حتى يقر بأن القرآن مخلوق . .

. . . .

جلس المعتصم فى قصره وحوله رؤوس المعتزلة وزعيمهم . . وكبار قواد الجيش من خراسان . .

جلس المعتصم مطرقا عليه إمارات التفكير . . ثم رفع رأسه لأحمد بن أبى دؤاد وسأله : هيه يا ابن أبى دؤاد . . أما زلت مصرا على رأيك فى محنة هذا الرجل . .

كان الرجل الذى يشير إليه الخليفة هو الإمام الممتحن أحمد بن حنبل . وكان قد صار أقوى شخصية فى الدولة . .

كما يمثل بشخصه وحده . . كل قوى المعارضة فى الدولة .

قال زعيم المعتزلة : إنه ضال مضل مبتدع . . وإن ضلالته تلقى رواجا بين العامة . .

قال معتزلى آخر : يا أمير المؤمنين . . إن ما يذيعه ابن حنبل فى الناس كفر صراح ، اقتله يا أمير المؤمنين ودمه فى رقابنا .

قال المعتصم : وكيف نقتله وقد بلغنى أن الناس قد ملأوا الطرق والميادين ووقفوا بأبواب الشوارع وأخذوا أسلحتهم وهم يقولون : ان أحمد بن حنبل يفتن اليوم ، وقد علموا أننا أحضرناه من سجنه ببغداد إلى هنا . .

كان الخليفة محقا فى إعتراضه . . كان الناس جميعا قد أخذوا صف

ابن حنبل ، وكانت هذه هزيمة للدولة والنظام الحاكم والفكر المعتزلى كله . .
وهب المعتزلة يدافعون عن وجوب تصفية ابن حنبل . .

قال أحدهم : متى كان عوام الناس يا أمير المؤمنين حكما فيما لا يفهمون . . ان هذا أدعى إلى أن تعالجه قبل أن يستفحل أمره . .

قال آخر : لو مد الله فى عمر الخليفة المأمون أياما قليلة لقتله . . ولكنه مات قبل أن يصل هذا الضال المضل إلى عسكره . .

قال المعتصم : قد أوصانى أمير المؤمنين المأمون أن أقمع رجال البدعة ولا سيما ابن حنبل ، ولكنى أخشى الفساد . والناس اليوم فى هرج ومرج وكأنما استعدوا للفتنة والهياج .

قال المعتزلة : لا يخشى بأس العوام إلا إذا كان زمامهم بيد رجل يدبر أمرهم ، وهذا الرجل فى أيدينا الآن ، وهو فى أيدينا منذ ثمانية وعشرين شهرا . .

تمتم المعتصم : ما أسرع ما تمر الأيام . .

كان واضحا أن المعتصم يساق كارها إلى امتحان ابن حنبل ، مضيا مع سياسة الدولة ، وخضوعا لاعتبارات الكبرياء ، فلم يكن ممكنا أن يتراجع الآن بعد كل الشوط الذى قطعه ، وراح المعتزلة يحرضونه على قتل ابن حنبل . . حدثوه كيف دعا ابن حنبل على المأمون . .

كان ابن حنبل فى طريقه إلى المأمون حين جاءه أحد خدم المأمون وقال له : ان أمير المؤمنين سل سيفا لم يسله قبل ذلك ، وأنه أقسم بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لم تجبه إلى خلق القرآن ليقتلنك بهذا السيف .

سمع ابن حنبل عبارة الرجل وجثا على ركبتيه ورفع رأسه إلى السماء وقال : يا سيدى . غر هذا الفاجر حلمك حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل . . اللهم أكفنا مؤنته .

استمع المعتصم إلى حديث المعتزلة وقال :

بلغنى ذلك . وعلمت أن الناس يتحدثون بها فى الأسواق ويقولون ان أحمد ابن حنبل دعا بها فى أول الليل ، فما جاء الثلث الأخير حتى أتاه من يبشره بأن أمير المؤمنين قد مات . . وهم يعتبرون ذلك من كرامة أحمد ابن حنبل على الله . .

قال المعتزلة : هذا من الشواهد الناطقة بسذاجة العوام وعدم تمحصيهم وسرعة قبولهم للخرافة والجهل ، ألم نكن معك وهو يسلم روحه قبل العصر ، لقد مات أمير المؤمنين قبل أن يدعو ابن حنبل عليه . . ولكن جهل العوام سول لهم أن يتخذوا مما حدث كرامة لابن حنبل .

قال المعتصم : إنهم يقولون ان الله ألهمه الدعاء بعد موت المأمون ، فدعا به ، فأتاه الخبر بما دعا ليكون ذلك تأييدا وتثبيتا ، فالكرامة فى أن الله ألهمه الدعاء لا فى أنه أمات المأمون استجابة له .

قال المعتزلة : ان عقول العوام يا أمير المؤمنين لا تطيق مثل هذا ولا تعيه . . هذا كلام يدسه رؤوس البدعة ويروجونه بين الناس سعيا إلى الفتنة . .

تساءل المعتصم عمن يسعى إلى الفتنة وقد عادت لأنفه رائحة الخطر . . وحدثه المعتزلة أن هذا كلام الذين امتحنوا وأقروا بخلق القرآن ، وقد سقطوا فى أعين الناس . .

حدثوه أن ملكه أثبت من أن تؤثر فيه هيجة الغوغاء أو العامة . . حدثوه أن أحمد بن حنبل سيق من بغداد إلى طرطوس مثقلا بأغلال الحديد محمولا على جمل مهين فى حالة زرية على أعين الناس ، فما إجترأ أحد على اختطافه أو حل وثاقه أو الغضب له . وقد قطع به حراسه الطريق من بغداد إلى طرطوس ، فلم يكن هناك إلا عدد قليل من الناس يتأمل هذا المشهد ، وكان الناس جميعا صامتين . . ومن تكلم لا يزيد على أن يقول له « الثبات يا أحمد . . الجنة تنتظرك يا أحمد » . .

وفى بعض مراحل الطريق . . نزل الجند يستريحون مع أحمد بن حنبل ، فجاء رجل يقول : أيكم أحمد بن حنبل . فأشاروا إليه . .

فقال « يا هذا ، إن الله قد رضيك له وافدا . فانظر لا يكون وفودك على المسلمين وفودا مشئوما . واعلم أن الناس إنما ينتظرون قولك ليقولوا بعدك . واعلم انما هو الموت والجنة » . .

أفهم المعتزله المعتصم أن عوام الناس لا يوصون هذا الرجل بأكثر من أن يمد رقبته للسياف ليدخل الجنة . . ومن كان هذا شأنهم فإن القوة والشغب والثورة على السلطان أشياء لن تخطر لهم ببال . .

واطمأن المعتصم إلى ضعف العامة وعجزهم وأمر أن يحضروا إليه ابن حنبل ليمتحنه بنفسه .

دخل أحمد بن حنبل . . شيخ مديد القامة أسمر الوجه ، قد قوسه مر السنين والحاح المحن وتعاقب السفرات الطوال سيرا على القدم ، يجلله مشيب وقور ، ويسطع من وجهه ورع صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به . .

ألقى أحمد بن حنبل السلام على الخليفة فأمره أن يدنو ، فدنا وهو يرسف فى أربعة أغلال من الحديد الثقيل .

وتحدث ابن حنبل إلى المعتصم . . سأله : إلى أى شىء دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

قال أمير المؤمنين : إنه دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله . .

قال ابن حنبل أنه يشهد بذلك ، وأضاف يقول :

ان هؤلاء (مشيرا إلى المعتزلة) يدعوننى أن أقول أن القرآن مخلوق ، وهو شىء لا أجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . يا أمير المؤمنين : « حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة قال حدثنى أبو حمزة ، قال سمعت ابن عباس يقول : ان وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالايمان بالله ، فقال أتدرون ما الايمان بالله . قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا الخمس من المغنم . . » . فهذا ما يرويه جدك ابن عباس ـ عن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعلم الناس الايمان ، وليس فيه شىء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن .

اهتز المعتصم ـ ثوانى قليلة ـ لهذا الإسلام الصافى المتحدر من فم ابن حنبل . .

قال المعتصم : إنى لم آمر فيك بشىء ، ولولا أنى وجدتك فى يد من كان قبلى ما تعرضت لك .

لم تلبث لحظات الضعف هذه أن فسحت الطريق لكبرياء المعتصم . . وهكذا أمر بامتحان ابن حنبل . . وبدأت مناقشته وجداله . .

سأله المعتزلة : ماذا تقول فى القرآن .

قال : القران كلام الله تعالى .
قالوا : أمخلوق أم قديم .
قال : هو كلام الله تعالى . .

قال المعتزلة : ان الله يقول « خالق كل شيء » والقران شيء ، فهو إذن مخلوق .

قال ابن حنبل : هذه الآية عامة أريد بها التخصيص لا العموم كقوله تعالى عن الريح التى أهلك بها قوم هود « تدمر كل شيء بأمر ربها » فهل دمرت كل شيء حقا أو أنها لم تدمر إلا ما أراد الله . .

قال أحد المعتزلة : يقول الله تعالى « وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون » فهل يكون محدثا إلا المخلوق .

قال أحمد بن حنبل : الذكر الذى هو القرآن جاء فى قوله سبحانه « والقرآن ذى الذكر » فهو هنا معرف بالألف واللام ، وفى الآية الأولى بدون ألف ولام . . فهذه غير تلك .

قال أحد المعتزلة : ان عمران بن حصين يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « ان الله خلق الذكر » . .

قال أحمد بن حنبل : أخطأت ، الرواية الصحيحة أن الله كتب الذكر .

قال أحد المعتزلة : يروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسى » ، وهذا صريح فى أن آية الكرسى مخلوقة ، وهى من القرآن .

قال أحمد بن حنبل : لا أجد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخلق وقع على آية الكرسى . ان الحديث صريح فى أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن .

واستمر الجدال واستمرت المناظرة . . وعجز المعتزلة رغم كثرتهم أن يثنوا ابن حنبل عن رأيه . . ظل يقول أن القرآن كلام الله . . ولا يزيد عليها . . قاوم قولهم أنه مخلوق ، ولم يقل أنه أزلي . .

كان أحمد بن حنبل يتحرج من القول فى القرآن بما لم يقله الله عز وجل . .

وكان قد قرر ألا يتزحزح عن موقفه قيد شعره . . يحكى الإمام أحمد ابن حنبل ما وقع له أيام المعتصم فيقول : « أخرجت ، وجيء بدابة فحملت

عليها وعلى القيود ، وما معى أحد يمسكنى ، فكدت غير مرة أن أخر على وجهى لثقل القيود ، فجىء بى إلى دار المعتصم . فأدخلت حجرة وأغلق الباب على ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى البيت سراج ، فأردت أن أتمسح للصلاة ، فمددت يدى فإذا أنا بإناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأت وصليت ، فلما كان من الغد راح المعتصم يقول لى : يا أحمد ، والله انى عليك لشفيق ، وانى لأشفق عليك كشفقتى على هرون ابنى . . ما تقول ؟ . فأقول أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله » .

يحكى أحمد بن حنبل ما وقع له فى الليلة الثالثة . . ظلوا يناظرونه ويجادلونه ويمتحنون فيه أسابيع كاملة ، ثم أمروا به فأدخل فى تلك الليلة للمرة الثالثة على المعتصم . . دخل ابن حنبل فإذا قصر الخليفة غاص بالجند وقد استلوا سيوفهم ، وبالجلادين وهم يقفون بالسياط . . وجعلوا ينقلونه من حجرة إلى حجرة ، حتى ينخلع قلبه وأخيرا أوقفوه أمام المعتصم ، وراحوا يناظرونه ويجادلونه وهو يجيبهم ويعلو صوته على أصواتهم حتى صرخ الخليفة : اسحبوه واخلعوه . .

صدر أمر الخليفة باحضار الجلادين . . ودخلوا وهم يمسكون السياط فى أيديهم ، فامتحنها المعصتم وقال : ائتونى بغيرها . .

لم تعجبه السياط ، وجىء بغيرها . . وخلعوا قميص ابن حنبل وتقدم أول جلاد وانهال عليه يضربه سوطين . . والخليفة يأمره . . شد . . وتعاقب الجلادون على ابن حنبل ، كل واحد يضربه سوطين ويجىء غيره . . فلما ضرب تسعة عشر سوطا قام إليه الخليفة يسأله :

ــــ يا أحمد علام تقتل نفسك . .

وجعل أحد الجند ينخسه بسيفه وهو يقول :

ــــ الخليفة على رأسك قائم . . وعلماء الأمة حولك وتريد أن تغلب هؤلاء كلهم وحدك . .

وجعل بعضهم يقول : اقتله يا أمير المؤمنين ودمه فى عنقى . .

ووسط هذا الهول كله لم يزد أحمد ابن حنبل على قوله :

ــــ اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أقول به . . وعاد الخليفة يصرخ على الجلادين أن يشدوا عليه . .

وعادوا يجلدونه بالسياط . . حتى أغمى عليه . . وطرحوه على الأرض وساروا فوقه باقدامهم ودمه يسيل . .

يحكى أحمد ابن حنبل ما وقع له فيقول : « جعل الجلاد يتقدم ويضربنى سوطين ويتنحى ، والمعتصم فى خلال ذلك يقول : شد . . قطع الله يدك . . حتى ذهب عقلى . فأفقت بعد ذلك فإذا الحديد قد أطلق عنى . . وكان جسدى يشخب دما ، وأتونى بسويق وقالوا لى : اشرب . . فقلت لا أفطر ، ثم جىء بى إلى دار اسحق بن ابراهيم فحضرت صلاة الظهر ، فتقدم ابن سماعه فصلى ، فلما انفتل من الصلاة قال لى : صليت والدم يسيل من ثوبك . . فقلت . . قد صلى عمر وجرحه يشخب دما » . .

. . . .

لم تفلح سياط المعتصم ولا سيوفه أن تزحزح ابن حنبل عن موقفه ، فشل التلويح بالمجد كما فشلت القوة فى تحريكه شعرة واحدة عن موقفه . . . وبعد ثلاث سنوات تقريبا من القبض عليه وتعذيبه واهانته وضربه . . أفرج عنه . . وخرج ابن حنبل كما يخرج الذهب حين يدخل النار ، واعترف معاصروه بأن دفاعه عن الإسلام والقرآن كان عظيما ، وأنه سد ثغرة كادت تحدث فى الإسلام ، وقرنوا ذكره بذكر أبى بكر الصديق . . وقال عنه على بن المدينى أمام الحديث وأحد شيوخ البخارى « أن الله أعز هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة » . .

انتهى الصراع بين المعتزلة وأهل الحديث بهزيمة المعتزلة . . وقد أخطأ المعتزلة فى رأى العلماء خطأين ، أولهما محاولة اشراك العامة فى هذه المسائل ، وهى مسائل يتوه فيها العلماء والفلاسفة ، فكيف يتقبل عقل العامة هذه المباحث عن صفات الله ، وهل هى عين الذات أوغير الذات ؟ . . لقد قبل النبى صلى الله عليه وسلم من الجارية أن تعتقد أن الله فى السماء وان تشير نحو السماء ، لأن عقلها لا يسمح لها بأكثر من ذلك ، ولم يحاول تفهيمها أنه ليس فى مكان . . الخطأ الثانى الذى ارتكبه المعتزلة كان حملهم الحكومة على أن تتدخل بالسلطان والسيوف والسياط والجنود والجلادين فى هذه المسألة . . وكان تصرفهم هذا جهلا بنفسية الشعوب ، فقد وقف الشعب كله وراء ابن حنبل ، وكره الناس المعتزلة كراهية شديدة ، ان الناس يكرهون السلطة حين تنحاز إلى رأى وتحاول فرضه . .

وظهر أهل الحديث ، والدولة كلها تقف ضدهم ، والعذاب يوقع عليهم ، وفضيلة التضحية تظهر من جانبهم . .

وانتصر حزب المحافظين فى الإسلام على حزب الأحرار كما يرى الأستاذ أحمد أمين ، أو انتصر الجناح السلفى على الجناح العقلى . . وكانت نتيجة المحنة أن كره الناس المعتزلة وعلم الكلام ، ونكلوا بعد ذلك بعلمائهم وأحرقوا كتبهم وردوا إليهم الصاع صاعين . .

ودفن علم الكلام فى بطون الكتب القديمة وكف عن أن يكون علما متجددا . .

وانفرد المحدثون بعلم الكلام . . انفردوا بالتقليد وتكرار ما قيل . . وإذا الكتب الصادرة فى هذا العلم من مؤلفين متعددين تكاد تكون نسخا مكررة من كتابين قديمين أو ثلاثة كتب .

وصحيح أن موقف ابن حنبل كان سدا منيعا فى اتجاه المسلمين إلى التفكير الفلسفى المتهور الذى لو سيطر على الأمة لانقطعت صلتها بمنابع الدين وعقائد الموحدين ، ولخضعت للفلسفات وأصبحت عرضة لبدع الآراء المحدثة وترف القياسات المستنبطة . .

هذا كله صحيح . .

ولكن المحنة أوقفت فى نفس الوقت نمو علم الكلام . . وعطلت نمو الجناح العقلى فى المسلمين . .

وفى رأينا أن خطأ المعتزلة الأساسى يكمن فى أن منهج المتكلمين لم يكن قرآنيا . .

كان لعلماء الكلام منهج خاص يخالف منهج القرآن الكريم والحديث الشريف كما يخالف من جهة أخرى منهج الفلاسفة . . ونحن نعتقد أن هذا الانفراد بمنهج غير قرآنى ، فى مناقشة شىء يتصل بعقائد التوحيد فى القرآن . . نرى أن هذا المنهج هو المسئول عن فشل هذا العلم وذهاب دولته . .

وكل ما فعلته المحنة ، أنها عجلت بهذه الهزيمة . .

ذلك ان دراسة أى ظاهرة قرآنية بمنهج غير قرآنى ، لن تؤدى لنتيجة . .

ربما أثمرت هذه الدراسة بلبلة العقائد المستقرة فى نفوس الناس ، وربما

كانت الثمار فتنة مريرة يذهب ضحيتها المئات كما حدث فى التاريخ . . غير أنها لن تثمر الحقيقة التى يقدمها القرآن بمنهجه . . إلا إذا عولج القرآن بمنهج قرآنى .

قام منهج القرآن فى الدعوة على أساس لا مثيل له هو مخاطبة الفطرة والعقل بعمق وبساطة ، وجاءت آياته معجزة بمستوياتها المختلفة وقدرتها على الإيحاء بمعان تزيد كلما زاد علم المتأمل فيها ، ان نظرة العامى إلى قوله تعالى : (**فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق**)[1] ، هذه النظرة تثير إيمانا ساذجا بعظمة القدرة . كما أن نظرة عالم الحياة إلى منشأ الإنسان تثير حيرته وإعجابه . .

هناك أيضا قوله تعالى (**فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم**)[2] ، هذا القول يثير فى البدوى إحساسا بأن النجوم بعيدة هناك . . وعلى قدر بعدها يعرف عظمة القسم الالهى . .

نفس هذا القول يتسع إذا تأمله عالم فى الفلك . . ان معرفة الأبعاد السحيقة بين النجوم والنجوم ، خليقة أن تهز عالم الفلك لهذا القسم الذى ردده القرآن منذ أربعة عشر قرنا . . حين كان علم الفلك لا يعرف شيئا عن مواقع النجوم ، ولم يكتشف بعد حقيقة حجم الكون . .

هذا المنهج القرآنى يؤثر فى العامى والعالم ، فى المفكر وغير المفكر ، فى الفيلسوف وغير الفيلسوف ، فى المثقف وغير المثقف . . يصلح هذا المنهج للتأثير فى الناس كافة . . لأنه يخاطب الفطرة كما يخاطب الوجدان وكما يخاطب العقل . . وتكتسب الآية الوحدة أكثر من عمق فى المعنى كلما زاد حظ الناظر فيها من العلم . .

أما علم الكلام فأعطى العقل حريته فى البحث والنظر ، ورآه سيدا تجب طاعته . . ومد نطاق سيادته على كل أرض وسماء ، بما فى ذلك سماء العقائد . . وتجاهل فى نفس الوقت منطقة الوجدان ومنطق الشعور . . . وليس العقل وحده ـ فى ميدان الغيب ـ هو السفينة الناجية .

---

(١) سورة الطارق آية ٥ ، ٦ .

(٢) سورة الواقعة آية ٧٥ ، ٧٦ .

أسـماء الله الحسـنى

كان المشركون من العرب فى جاهليتهم يسمون آلهتهم بأسماء يشتقونها من أسماء الله سبحانه ، كاللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقد حذر الله تبارك وتعالى من اجترائهم على اسمائه وسماه إلحادا فيها . . قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)[1] .

ومثلما وردت الإشارة لأسماء الله الحسنى فى الكتاب العزيز ، ورد النص عليها فى أحاديث الرسول . .

قال صلى الله عليه وسلم « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » . .

وفى رواية أخرى أنه قال « من حفظها دخل الجنة » . .

(هو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الرشيذ الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور) . .

. . . .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٠ .

لماذا يحدثنا الله تبارك وتعالى عن أسمائه الحسنى ؟
ان الإجابة على هذا السؤال أمر يتصل اتصالا وثيقا بحقيقة التوحيد فى العقيدة الإسلامية . .

. . . .

اسماء الله الحسنى هى الحقيقة المطلقة ، لأن الله تعالى هو الحقيقة المطلقة . وما عدا الأسماء صور تظهر وتختفى ، وتوجد وتهلك .

كل ما فى الكون صور تخضع لما تخضع له الصور . . الحقيقة الباقية هى أسماؤه الحسنى . . وسر كونها الحقيقة أنها تشير إلى جلاله وترمز لعزته . وإذا كان الله تبارك وتعالى قد احتجب بذاته المقدسة عن أنظار الخلق ، فقد اقتضت رحمته أن يكشف اسماءه الحسنى للناس وأن يدلنا على طريق الدعاء بها ، قال تعالى : (**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**) .

بهذه الآية الكريمة . . لا يعود الإنسان وحيدا على الأرض . . لا يعود غريبا فى هذا الكون . . لقد سخر الله له الكون وجعل بيته الأرض . . والأرض بالنسبة للإنسان مكان هائل الحجم ، وإن كانت بالنسبة إلى الكون ذرة متناهية فى الصغر ، ولو تصورنا أن الإنسان ، بضعفه أمام قوى الكائنات الأخرى وبغربته وسط أنواع الحياة ، لو تصورنا الإنسان يعيش على الأرض بغير أن يعرف أسماء خالقه ، وبغير أن يقدر على الإتصال به ، وبغير أن يستطيع دعوته وسؤاله ، أى عذاب كانت تصيره الحياة . .

نستطيع أن نفهم إذن مدى الإكرام الذى منحه الله للإنسان حين حدثه عن أسمائه ، لقد أشفق الله على عباده فحدثهم عن أسمائه ، وجعلها طريقا لدعوته ، ألا ترى أن الإنسان يلتفت إذا ناداه باسمه أحد ، إن رحمة الله تبارك وتعالى تسرع لمن يناديه سبحانه بأسمائه .
يقول الحديث الصحيح أن من حفظ الأسماء أو أحصاها دخل الجنة .
ما هو المقصود بحفظ الأسماء واحصائها ؟
نريد أن نستبعد من الحفظ معنى التلقين الذى صارت إليه حضارتنا حين أخلدت إلى الأرض ، ونريد أن نستبعد معنى الصم والاستذكار عن ظهر قلب ، ونريد أيضا أن نستبعد من الإحصاء معنى العد . . يقول الله

تبارك وتعالى (لقد أحصاهم وعدهم عدا)[1] فالإحصاء غير العد . . الإحصاء معنى أكبر من العد . . هو معرفة أشمل من معرفة العدد . .

المقصود من حفظ الأسماء هو حفظ أمانتها . . هو حمل أمانتها وعدم تضييعها . . والمقصود من احصاء الأسماء هو شهود حقيقتها . . والأسماء الحسنى بوصفها المثل الأعلى والحقيقة المطلقة . . هى هدف المسلمّ فى حياته على الأرض .

وبقدر ما يحمل المسلم من أسماء الله الحسنى ، يكون حظه من التوحيد .

وقد أدرك العلماء هذه الحقيقة قديما ، أفضل من ادراكنا لها اليوم .

منذ ٩٠٠ عام على التقريب ، كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزالى كتابه « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » ، وقد لاحظ حجة الإسلام هذه الصلة بين أسماء الله الحسنى ، وأخلاق المسلم ، فكتب فى نهاية شرحه لكل أسم ، تنبيها يقول فيه « وحظ العبد من هذا الإسم أن يكون كذا وكذا » . .

وهذا هو الإتجاه الذى نعتقد أن العقيدة الإسلامية تؤيده . .

قارن هذا الفهم الصحيح ، بما أشار إليه الأستاذ حسن البنا فى كتابه « العقائد » من فهم بعض المعاصرين لخواص الأسماء . .

« يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواصا تتعلق به ، وقد يتغالى البعض فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادما روحانيا يخدم من يواظب على الذكر به ، والذى أعلمه فى هذا ، وفوق كل ذى علم عليم ، ان أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة لها فضل على سائر الكلام ، وفيها بركة ، وفى ذكرها ثواب عظيم ، وان الإنسان إذا واظب على ذكر الله تعالى طهرت نفسه ، وصفت روحه ، ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى ، أما ما زاد عن ذلك فلم يرد فى كتاب ولا سنة ، وقد نهينا عن الغلو فى دين الله تعالى ، والزيادة فيه ، وحسبنا الاقتصار على ما ورد » .

---

(١) سورة مريم آية ٩٤ .

يشير الأستاذ البنا بكلماته السابقة إلى غلو بعض المسلمين فى النظر لخواص الأسماء . . لقد تحول الفهم القديم الصحيح للأسماء ، إلى محاولة البعض أن يستخدمها فى السحر أو الإتصال بعالم الروح ، وهذه المحاولة تخرج بصاحبها من خيمة الإيمان .

ذلك ان السحر فى القرآن الكريم كفر بصريح النص . . يقول الله تعالى : (**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر**)[1] .

وإذا كانت هذه الآيات قد نزلت فى اليهود ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وحكم الآية واضح فى أن السحر كفر ، وهذا الحكم عام ينطبق على كل زمان ومكان ، ولا يختص بأمة دون أمة ، أو عصر دون عصر . .

. . . .

الفهم الصحيح للأسماء الحسنى هو حمل أمانتها .

وحمل الأمانة يقتضى المعرفة ، والمعرفة طريق إلى التعلق والتخلق . .

وبقدر ما يتعلق المسلم بأسماء الله ، وبقدر ما يأخذ من اخلاقها يكون قد أخذ من التوحيد .

يتفق العلماء على أن من اسمائه تعالى ما لا يجوز اطلاقه على غيره سبحانه . . كالله والرحمن . . كما لا يجوز التخلق بهذين الأسمين ، وإنما يجوز التعلق بهما ، ومن أسمائه تعالى ما يجوز للمسلم أن يأخذ من أخلاقها كالرحيم والكريم . . ومن الأسماء ما يباح ذكره وحده كالعظيم والشكور ، ومن الأسماء ما لا يباح ذكره وحده كالمميت والضار ، فلا يقال يا مميت يا ضار ، وإنما يقال يا محيى يا مميت ، يا نافع يا ضار ، تأدبا فى حقه تعالى ، وتفاديا من ايهام ما لا يليق بجلاله سبحانه .

من المتفق عليه أيضا أن ما نعرفه نحن كبشر من أسماء الله تعالى ، ليس هو كل أسماء الله تعالى ، فإن لله عز وجل أسماء لا يعلمها إلا هو . . اسماء استأثر بها فى علم الغيب وحده . .

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ .

من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو الله بقوله « اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وذهاب همى وجلاء حزنى » . .

وقد فهم العلماء من هذا الحديث أن لله تعالى أسماء لم يطلع عليها أحدا من خلقه . .

. . . .

أول ما نعرفه من أسماء الله الحسنى . . هو الله . قال تعالى : (وما من إله إلا الله)[1] .

و(الله) فى العقيدة الإسلامية هو اسم رب العالمين سبحانه . . وهو اسم لمن انفرد بالوجود الحقيقى ، وهو أعظم الأسماء التسعة والتسعين ، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها ، أما سائر الأسماء فتدل على معان منفردة كالعلم والقدرة ، وهو أخص الأسماء فلا يطلق على غيره سبحانه ، لا من باب الحقيقة ولا من باب المجاز . . واسم الله أشهر الأسماء ، وهو المستغنى عن التعريف بغيره ، فنحن ننسب غيره من الأسماء إليه ، ولا ننسبه إلى الأسماء ، فنقول ان الصبور والرحيم والشكور من أسماء الله ، ولا يقال أن الله من أسماء الصبور أو الرحيم .

وقد اختلف العلماء هل الاسم مشتق أم لا . .

قيل أنه مشتق من اله . . أى المتأله المتعالى الذى لا يحكمه أحد ويحكم كل أحد . . وقيل أنه مشتق من الوله . . أى الذى يتوله فى حبه أهل محبته . . وقيل أنه مشتق من الهوية ، إذ يشير كل ما فى الكون إليه . . فلا إله إلا هو . . وفى العلماء من يعتقد أن كل ما ذكر فى اشتقاقه وتصريفه تعسف وتكلف كالإمام الغزالى . .

ويرى بعض العارفين أن كل اسم من اسمائه تعالى يصلح للتخلق به إلا هذا الاسم . . فإنه يصلح للتعلق دون التخلق . .

ما هو حظ العبد من اسم الله . .

أجاب حجة الإسلام بقوله « ينبغى أن يكون حظ العبد من هذا الاسم هو

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٢ .

التأله . . ومعنى ذلك أن يكون العبد مستغرق القلب والهمة بالله تعالى . . لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا اياه » . .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أصدق بيت قالته العرب قول لبيد : إلا كل شيء ما خلا الله باطل » .

الرحمـن الرحـيم

قال تعالى : (وإلٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[1] .

الرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة فى الأصل رقة فى القلب تؤدى إلى الإحسان والتفضل ، ولاستحالة هذا المعنى فى حقه تعالى ، يراد بها غايتها ، وهى توصيل الخير والثواب ودفع الشر والبلاء . . ويرى الشيخ حسنين مخلوف أن الرحمن عند أكثر العلماء أبلغ من الرحيم ، يقول الأثر الكريم « يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة » ورحمته تعالى فى الدنيا تشمل المؤمن وغير المؤمن ، والصالح وغير الصالح ، أما رحمته فى الآخرة فتختص بالمؤمنين ، ومرتبة الرحمة هى أعلى المراتب ، وقد وصف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[2] ، ويجوز أن يسمى العبد رحيما ، ولا يجوز أن يطلق اسم الرحمن على أحد من الخلق ، وقد فهم الإمام الغزالى من ذلك ، أن الرحمن ينطوى على نوع من الرحمة هو أبعد من استطاعة العباد ، وهو ما يتعلق بسعادة الآخرة ورحمته سبحانه فيها .

حظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى طريق الله ، بالنصح الرفيق والتلطف ، وبأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الايذاء ، أما حظ العبد من اسم الرحيم فيكون بأن لا يدع فقيرا فى جواره وبلده إلا قام بتعهده ودفع فقره إما بماله أو بجاهه أو السعى فى حقه ، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن حتى كأنه مشترك معه فى فقره وحاجته . .

نريد أن يتوقف القارىء قليلا عند كلمات الإمام الغزالى الأخيرة ، وهى كلمات كتبت من ٩٠٠ عام ، ولكنها فى اعتقادنا تعبر عن أدق فهم وأكمله

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

للعقيدة الإسلامية ، وهى عقيدة كان الأساس فيها هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبغير عطاء الأنصار الكريم ، لم يكن ممكنا أن تنجح الدولة الإسلامية وتبلغ أسماعنا الدعوة . . حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة التى أصبحت بوصوله هى المدينة المنورة ، آخى بين المهاجرين والأنصار . . كان نصيب الأنصارى سعد بن الربيع ، أحد أغنياء المدينة ، أن يحظى بأخوة عبد الرحمن بن عوف المهاجر . . قال الأنصارى للمهاجر : أنا أكثر الأنصار مالا ، وقد قسمت مالى نصفين لك أطيبهما ، ولى امرأتان فانظر أيتهما تعجبك كى أطلقها فتتزوجها . .

ويرفض عبد الرحمن بن عوف برفق ويقول : بارك الله لك فى أهلك ومالك . أين سوقكم ؟ . . ويخرج إلى السوق ليعمل ويأكل من كدح يديه ، ويتصدق على فقراء المدينة رغم فقره . .

وبعد معركة حنين ، قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم على الجند ، ولم يعط الأنصار شيئا . . وقال قائل منهم : لقى والله رسول الله قومه . . ومشى سعد بن عباده إلى رسول الله فأخبره أن الأنصار غاضبون ، سأله الرسول : فيم ؟

قال سعد : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ، ولم يكن لهم من ذلك شيء .

وأمره رسول الله أن يجمع الأنصار ، ثم ينبئه بذلك ، وخرج إليهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضالين فهداكم الله ، وفقراء فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم .

صمت الأنصار . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا تجيبون يا معشر الأنصار . .

قالوا : وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك . . ألمن لله ورسوله .

قال رسول الله : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا مطاردا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفا فأمناك ، ومخذولا فنصرناك .

قالوا : المن لله ورسوله . .

قال رسول الله : أغضبتم يا معشر الأنصار لمال أعطيته قوما لأحببهم فى الايمان ، وتركتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام . . أفلا ترضون

يا معشر الأنصار ان يذهب الناس إلى رحلهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا طريقا وسلكت الأنصار طريقا لسلكت طريق الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . . اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

ويبكى القوم حتى تبتل لحاهم ويقولون : رضينا بالله ربا ورسوله قسما . .

كان الأنصار مثلا أعلى فى الرحمة ، لأنهم كانوا مثلا أعلى فى العطاء ، ولهذا دعا لهم رسول الله بالرحمة ، والرحمة صفة من صفات اسمه تعالى . .

المسلم الحقيقى فى الدنيا ، هو من يجىء إليها ليعطى لا ليأخذ . .

هذه نظرة العقيدة الإسلامية للعطاء . . هو جزء من التوحيد فى هذه العقيدة . .

المـــلك

قال تعالى فى سورة المؤمنون (**فتعالى الله الملك الحق**)[1] .

والملك هو المستغنى عن غيره ، وقد احتاج إليه غيره ، وهو المالك لكل الخلائق والأكوان ، وهو المتصرف فى كل الخلائق والأكوان وهو ذو الملك والسلطان . . وفى عباد الله على الأرض ملوك ، غير أن الملك فى حقهم مستمد من الله ، مؤقت بزمن هو زمن الحياة على الأرض ، أما معنى الملك فى حقه تبارك وتعالى فهوالملك الدائم الذى لا يعارضه أحد ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولا يجرؤ عليه أحد . والله تعالى هو (**ملك الناس إله الناس**) ، والله تعالى هو (**مالك يوم الدين**) والله تعالى هو (**مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء**)[2] والله تعالى هو ذو الملكوت (**فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء**)[3] والملكوت مبالغة فى المالك . . الملكوت بمعنى الملك المطلق المتعالى على مفاهيم البشر عن الملك . ما هو حظ العبد من هذا الاسم . . يرى الغزالى أن العبد لا يتصور فيه أن يكون ملكا مطلقا ،

---

(١) سورة المؤمنون آية ١١٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٣) سورة يس آية ٨٣ .

بمعنى الاستغناء عن كل شيء ، فالعبد لا يزال فقيرا إلى الله محتاجا إلى الناس . ورغم هذا ، فإن لكل عبد مملكته الخاصة ، قلبه وقالبه . . مملكة جنوده فيها هم الشهوة والغضب والهوى ، ورعيته لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه ، فإذا ملك العبد مملكته ولم تملكه هى ، وإذا أطاعته ولم يطعها ، فقد نال درجة الملك فى عالمه .

قال أحد الأمراء لأحد العارفين : سلنى حاجتك .

قال العارف : كيف ولى عبدان هما سيداك . .

قال الأمير : ومن هما .

قال العارف : الحرص والهوى . . فقد غلبتهما وغلباك . .

وسأل تلميذ شيخه قال : أوصنى .

قال له : كن ملكا فى الدنيا تكن ملكا فى الآخرة .

قال : كيف .

قال : الملك فى الدنيا من يقطع طمعه وشهوته فيها .

القــدوس

قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس)[1] .

القدوس هو المنزه عن كل وصف يدركه حس ، أو يتصوره خيال ، أو يسبق إليه وهم ، أو يختلج به ضمير ، أو يقضى به تفكير .

الله منزه عن كل صفة تنطبق على الخلق . . أعظم أوصاف الكمال الإنسانى تعتبر فى حق الله تبارك وتعالى اساءة أدب ، لأنه أعظم منها بغير حدود .

والقدوس والتقديس والقدس من معانى الطهارة . . قص الله علينا ما قالته الملائكة (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)[2] أى نطهر أنفسنا لك .

حظ العبد من هذا الاسم أن يطهر نفسه بالتوبة ، ويطهر ارادته بالعمل ، ويطهر ماله بالزكاة والصدقة ، ويطهر قلبه من كل ما سوى الله .

---

(١) سورة الحشر آية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

الســـلام

سمى الله تعالى نفسه السلام ، لسلامته مما يلحق المخلوقين من تغيير أو تأثر أو نقص أو فناء ، وهو السلام بمعنى أن كل سلام فى الكون يستمد منه ويعتمد عليه ويرجع إليه .

والله ذو السلام بمعنى واهب السلام لعباده ، ومن آداب من عرف ان الله هو السلام أن يسلم الناس من لسانه ويده ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . .

حظ العبد من هذا الاسم أن يعرف أن الله هو السلام ، وأن رسالته هى الإسلام ، وأن أسمه المسلم . .

المـــؤمن

المؤمن عند الغزالى هو الذى يستمد منه الأمن ، ويرى الرازى أن أصله من الأمان ، فهو الذى أعطى عباده الأمان لأنه العادل فى حكمه ، الرحيم فى قضائه .

حظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الخلق كلهم جانبه ، ويرجو كل خائف الاحتماء به لدفع الهلاك عن نفسه فى دينه ودنياه .

المهيـــمن

الهيمنة هى الرقابة المحكمة . والمهيمن هو الرقيب على كل شيء ، الحافظ لكل شيء ، والله هو القائم على خلقه ، بإطلاعه عليهم ، وحفظه لهم ، واستيلائه عليهم . . والله هو المهيمن على كل أمر من أمور الخلائق ، وعلى كل سر من أسرار الناس . .

حظ العبد من اسم المهيمن أن يراقب سره وعلانيته فيجعلهما لله .

العـــزيز

اسم مشتق من العزة ، بمعنى القوة التى لا تنال ، يقول تعالى : (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا)[1] وبهذه الآية يتحدد مصدر العزة ، وعلى من يريدها أن يستمد من المصدر الوحيد ، والله هو العزيز بمعنى أن الله هو

---

(١) سورة فاطر آية ١٠ .

الغالب ، وبمعنى أنه المتعالى عن المثيل ، وبمعنى أنه الذى تشتد الحاجة إليه ولا يحتاج لأحد .

حظ العبد من هذا الإسم أن يحتاج إليه العباد فى أمور الدنيا بالعون والعمل ، وفى أمور الآخرة بالنصيحة والاخلاص .

الجبـــار

سمى الله تعالى نفسه الجبار لأنه ارتفع عن أن يتناوله أحد أو يدركه أحد ، والجبار هو الذى تنفذ مشيئته على سبيل الاجبار فى كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذى لا يخرج أحد من قبضته ، وتقصر الأيدى دون حمى حضرته . . ومن المكروه أن يطلق هذا الاسم على أحد من الخلق ، فهو فى حق الخلق ذم ، وفى حق الخالق ارتفاع وعلو . . وحظ العبد من هذا الاسم كما يقول الغزالى أن يرتفع العبد عن الاتباع وينال درجة الاستتباع ، ويتفرد بصلاحه بحيث يجبر الخلق على الاقتداء به والاستفادة منه ومتابعته ، فيستفيد الخلق ولا يستفيد .

المتــكبر

قال تعالى فى سورة الحشر (**هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون**) .

من معانى المتكبر بلوغ ذروة الكبرياء والعظمة ، ومن معانيه التعالى عن صفات المخلوقات ، ومن معانيه من يرى الكل صغيرا بالاضافة إلى ذاته ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يكون زاهدا فى الدنيا متكبرا عليها ، راغبا فى الله وحده .

الخالق البـارىء المصـور

الله تعالى هو خالق الخلق من عدم ، وهو مقدر الأشياء طبقا لعلمه وحكمته . . يقول تعالى : (**إنا كل شىء خلقناه بقدر**)[1] .

والخلق هو الابداع والانشاء من عدم ، أما البارىء فتعنى ايجاد الأشياء

---

(١) سورة القمر آية ٤٩ .

بريئه من التفاوت ، أو تعنى ايجاد الأشياء وتركيبها فى إطار من الانسجام الذى يمكن لها فيه أن تعيش ، أما المصور فتعنى خلق صورة لكل مخلوق فى الخلق . . صورة يحملها الانسان أو الحيوان أو النبات ، ولا يملك لها إختيارا ولا ردا . .

لا نعرف ماذا يكون حظ العبد من هذه الأسماء الثلاثة ، فإن الخلق والبرء والتصوير أمور لا تتصور فى حق العبد إلا على سبيل المجاز . . فهى ممتنعة على العباد بمعناها الحقيقى ، أما الآداب والفنون فهى لون من ألوان الخلق الذى يعتمد على تجربة الفنان والحياة ، والفنان والحياة جميعا من مخلوقات الله .

الغفـــار

الغفار هو الذى أسدل ستره على ذنوب العباد فى الدنيا ، وهو الذى يتجاوز عن عقوبتها فى الآخرة ، وهو الذى يغفر لعباده إذا تابوا ، وهو الذى يعود إلى المغفرة لو أساءوا وتابوا . . وهو الذى لا يمل من المغفرة مادام العبد لا يمل من التوبة . .

قال تعالى : **(وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)**[1] .

والله تعالى : هو الغفور **(إن ربنا لغفور شكور)**[2] .

والله تعالى : هو **(غافر الذنب وقابل التوب)**[3] .

والغافر هو الذى يغفر الذنوب .

والغفور هو الذى يغفر الذنوب كثيرا .

والغفار أبلغ وأشمل وأعم ، لأنه الدائم المغفرة . .

حظ العبد من هذا الاسم أن ينظر إلى الأشياء فلا يرى ما فيها من قبح وإنما يرى ما فيها من جمال . . روى عن عيسى عليه السلام أنه مر مع الحواريين على كلب ميت قد تصاعدت رائحته . .

قال الحواريون : ما أسوأ رائحته . .

---

(١) سورة طه آية ٨٢ .
(٢) سورة فاطر آية ٣٤ .
(٣) سورة غافر آية ٣ .

قال عيسى : ما أحسن بياض أسنانه .
يريد أن يعلمهم رؤية الجمال حتى داخل القبح .

القــهــار

هو الذى يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه ، فيقهرهم بالألم والاذلال والموت ، وكل ما فى الوجود مقهور لله بمعنى أنه مسخر تحت قهره وقدرته ، عاجز كل العجز فى قبضته . . وقد اختلف العلماء فى معنى القهار ، هل هو من صفات الذات أو صفات الفعل ، ومهما يكن من أمر فإن القهار أعم وأشمل من القاهر ، وهو مبالغة فى القاهر .

حظ العبد من هذا الاسم أن يقهر اعداءه ، وأولهم نفسه التى هى بين جنبيه . . فيقهر شهواتها وحظوظها التى يمكن أن تضله . . ومن أمات شهواته فى حياته ، عاش فى مماته . . وارفع درجة من درجات قهر النفس على الحق ، هى الموت فى سبيل الله ، قال تعالى : (**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**)[1]

الــوهـــاب

الهبة هى العطاء الذى لا ينتظر المقابل ، والهبة عند البشر مقيدة بأغراض النفس ودوافع المصلحة ، محكومة أصلا بثراء الواهب وقدرة خزائنه ، أما عند الله تعالى فهى تتعالى على أغراض النفس والانحصار والنفاد ، الله هو الذى يهب المستحق وغير المستحق ، ويهب المؤمن والملحد ، ويهب الصالح والفاسد ، ويهب نعما لا يمكن احصاؤها وان أمكن عدها . قال تعالى : (**وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها**)[2] .

والعد هو ذكر الأرقام أما الاحصاء فمعرفة أسرارها أيضا ، تقوم العقيدة الإسلامية على أن الوهاب بحق هو الله . . فخزائنه سبحانه بلا نهاية ولا حد ، (**أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب**)[3] .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩ .
(٢) سورة النحل آية ١٨ .
(٣) سورة ص آية ٩ .

حظ العبد من هذا الاسم أن يهب من ماله وعلمه ، غير منتظر لثناء الخلق ، منتظرا وجه الله عز وجل .

الـــــرزاق

هو الذى تولى خلق الأرزاق ، وتكفل بتوصيلها إلى أفواه المخلوقات وخلايا الأجساد ، وكل ما على الأرض من مخلوقات ، تحتاج إلى الطعام لتعيش ، والله هو خالق الطعام ، وكل ما على الأرض يستمد طاقته من الشمس ، والله هو خالق الشمس ، وكل الآلهة البشرية التى صنعتها أوهام البشر لم تزعم لنفسها أنها ترزق أحدا ، **(هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو)**[1] .

ورزق الله تعالى لعباده آلاف الأنواع ، هناك رزق الدنيا ورزق الآخرة ، ورزق الأبدان ورزق العقول ورزق القلوب ورزق الأرواح .

ليس للعبد حظ فى اسم الرزاق ، فالله وحده هو الرازق والرزاق ، ومتى عرف العبد أن الله وحده هو الرزاق ، لم ينتظر الرزق من غيره ، ولم يتوكل فيه إلا عليه . .

سئل حاتم الأصم من أين يأكل ؟ قال : من خزائنه ! فقال السائل : أيلقى عليك الخبز من السماء ، قال حاتم : لو لم تكن الأرض ملكه لكان يلقيه من السماء .

الفتـــاح

هو الذى يفتح على عباده أسرار الكون والحياة ، وهو الذى يفتح مغاليق العلوم والفنون ، وهو الذى يفتح خزائن الرزق بأنواعه ، وهو الذى يفتح فى الأرواح نوافذ على الأسماء الحسنى والصفات . . وهو الحاكم بين الخلائق لأن الفتاح مبالغة فى الفتح والفتح هو الحكم . .

حظ العبد من هذا الاسم أن يحس بالعطش إلى فتح الله عليه فى دينه ودنياه .

---

(١) سورة فاطر آية ٣ .

العـــليم

العليم هو الذى وسع علمه كل شىء ، وأحاط علمه بكل شىء ، ولم يفلت من علمه شىء ، وكل ما على الأرض من علم وعلماء ، هو خلق من خلق الله تعالى ، أوجدهم ابتداء ويسرهم للعلم انتهاء ، واحتفظ بحقيقة العلم لنفسه سبحانه ، وأعطى خلقه قدرا متفاوتا يتطورون فيه ويكتسبونه . .

والفرق بين علم الله تعالى وما سواه من العلم ، أن علم البشر مستفاد من الأشياء ، أما علم الله تعالى فغير مستفاد من الأشياء ، إنما وجدت الأشياء بحقيقتها هذه ، لأن علم الله هو الذى أوجدها هكذا . .

القـابض الباســط

يقبض الله تعالى أرواح الخلائق عند موتها ، ويبسط أرواح خلقه الجديد فى الأرحام ، ويفيض الصدقات من الأغنياء ، ويبسط الحماية للضعفاء ، هو القابض للرزق حتى لا يبقى طاقة ، وهو الباسط للرزق حتى لا تبقى فاقة ، وهو القابض على أعنة القلوب بالحزن والاستيحاش ، وهو الباسط بألوان الكشف والفرح . . وهو القابض على ناصية العباد بالأمر والحكم ، وهو الباسط لهم وقتا من الحياة يبتليهم فيه ، وبعدها يرجعون إليه . قال تعالى : **(والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون)**[1] .

يرى بعض العارفين أن القبض والبسط شأنان من شئون الله يتصلان بالجلال والجمال ، فالقبض جلال والبسط جمال . . إذا قبض الله قلب عبد أحس العبد بالجلال ، وإذا بسط الله قلب عبد أحس بالجمال .

حظ العبد من هذا الاسم أن يبسط قلبه للحق ويقبضه عن الباطل .

يفضل العلماء أن يذكر هذان الاسمان وما يماثلهما معا ، فلا يقال القابض فقط ولا الباسط فقط . وإنما يقال القابض الباسط .

الخـافض الـرافع

يخفض الله أقدار الأمم التى تخرج عن طاعته ، ويرفع أقدار الذين يقيمون حكمه فى الأرض ، ويعرفون للخلافة حقها عليهم ، والله هو الخافض

---

(١) سورة البقرة ٢٤٥ .

لمن يعصاه ، الرافع لمن يؤمن به ويطيعه ، ويوم القيامة يتبدى جلال هذين الأسمين . .

يقول تعالى : (**إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة**)[1] أى أن الواقعة تخفض المنكرين والعصاة ، وترفع المؤمنين والتقاه . .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يرفع الحق ويخفض الباطل .

المعـــز المـــذل

إذا أعز الله عبدا كان هذا بفضل رحمته ، وإذا أذل الله عبدا كان هذا بقضائه وعدله ، وقيم العز والذل فى الدنيا مقلوبة وليست هى الحقيقة ، لأن الناس تنسب العز إلى الغنى وتجعل الفقر ذلا . . وكل القيم المقلوبة على الأرض مآلها إلى التصحيح يوم القيامة . . ويوم القيامة يعز الله برحمته من يستحق العزة ، ويذل الله بحكمته وعدله من يستحق الذل . . (**وتعز من تشاء وتذل من تشاء**)[2]

حظ العبد من هذين الاسمين أن يعز الحق ويذل الباطل ، وبغير هذا الجهد الإنسانى تتحول الحياة إلى غابة هدفها المال والمتعة ، وترتفع قيمة الثراء على قيمة العلم والعمل ، وينزل الناس عن أخلاقهم ، ويتخففون من فضائلهم مسايرة للعرف العام . . ويفسد جو الحياة فيفسد الإنسان . .

الســـميع البصـــير

قال تعالى : (**ليس كمثله شئ وهو السميع البصير**)[3] .

بهذا التنزيه أثبت الله تعالى لنفسه صفة السمع والبصر ، وسمى نفسه السميع البصير فلا صوت يخرج عن سمعه ، ولا شئ يند عن بصره ، والله تعالى يسمع ويرى (**قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى**)[4] وإذا كان قانون الخلائق أن تسمع باذانها وترى بانطباع الصور فى عيونها ، فإن الله تبارك وتعالى على قوانين الخلائق .

---

(١) سورة الواقعة آية ١ - ٣ .

(٢) سورة آل عمران آية ٢٦ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

(٤) سورة طه آية ٤٦ .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يعرف أنه مسئول عن سمعه وبصره (إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا)[1] ، وان يعرف أنه بمسمع من الله ومرأى منه سبحانه فيخجل من عصيانه ويقهر النفس على طاعته .

الحـكم العـدل

الله هو الحكم العدل ، وهو الحاكم الذى لا راد لقضائه ولا معقب على حكمه ، وهو أحكم الحاكمين وخير الحاكمين ، والعدل إسم من أسمائه تعالى وصفة من صفاته سبحانه ، قال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)[2] ، والعدل هو المساواة فى المكافأة . إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، والإحسان هو مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه .

تقول العقيدة الإسلامية أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، وجزاء السيئة سيئة مثلها ، أما الحسنة فيحاسب عليها العبد أضعافا مضاعفة . . وليس وراء هذا العدل والرحمة عدل أو رحمة .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يحكم بين الناس بالعدل ، وأن يحكم نفسه بصرامة . .

اللطـيف الخبـير

يطلق وصف اللطف فى حق العباد على عذوبة الشخصية وحسن الأفعال ، أما الله تعالى فينصرف المعنى فى حقه إلى الخلق أولا . . وإلى الإحسان ثانيا ، وإلى استعلائه على ادراك الأبصار قبل هذا وذاك .

قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير)[3] .

ان خضرة الأرض ، وهى حياة من خلق الله ، قد وصفت باللطف ضمنا ، وكان السر فيها هو اللطيف الخبير .

وقال تعالى على لسان يوسف (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن

---

(١) سورة الاسراء آية ٣٦ .

(٢) سورة النحل آية ٩٠ .

(٣) سورة الحج آية ٦٣ .

وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ان ربى لطيف لما يشاء)[1] .

يشير يوسف عليه السلام إلى قصة القائه فى البئر ، ويرى أن عذابه الظاهر كان لطفا خفيا من الله شاء به الخير ليوسف ، وشاء به تحقيق أمره فيه .

من معانى اللطيف التعالى على ادراك الحواس ، لقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)[2] .

ويقرن الله تعالى بين اللطيف والخبير . . فاللطيف هو العليم بدقائق الأمور وغوامضها وخفاياها ، والعلم إذا أضيفت إليه خفايا الباطن سمى خبرة ، والله هو اللطيف الخبير بإطلاق وكمال . .

حظ العبد من هذين الاسمين أن يتلطف بعباد الله فلا يرون منه إلا الخير ، وأن يكون العبد خبيرا بما يجرى فى عالمه ، سواء فى ذلك عالمه القلبى أو عالمه كفرد فى مجتمع .

الحـــليم

لا حدود لحلم الله عز وجل ، فهو سبحانه الذى يسرع بالخير ويبطىء بالعقوبة ، لعل الإنسان يتوب ويرجع ، وهو سبحانه الذى لا يحمله الغضب على سرعة الإنتقام ، وإنما يمد حلمه للخلق جميعا فلا يؤاخذهم بما كسبوا . .

قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)[3] .

حظ العبد من الحليم أن يعفو قدر طاقته عن اساءات الناس ، ويعاملهم بالرحمة .

العظـــيم

الله هو العظيم الذى لا تصل العقول إلى كنه ذاته أو حقيقة صفاته ، وهو العظيم الذى لا تجرؤ الأبصار على سرادقات عزه ، وهو العظيم الذى

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٠ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٣) سورة فاطر آية ٤٥ .

ليس لعظمته بداية ولا نهاية ، ولا حد ولا انحصار ، وما نراه من عظمة الخلائق منحة مستمدة من الله . . فهو العظيم المتفرد وحده بالعظمة .

حظ العبد من هذا الاسم هو العلم . . يزيد حظه من العظمة كلما أخذ نصيبا أوفر من العلم .

الغفــــور

هو الذى يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات ، والغفور كمال فى المغفرة وشمول فيها ، قال تعالى (**ان الله غفور رحيم**)[1] .

حظ العبد من هذا الاسم أن يتسامح فى حقوقه ويشدد على نفسه فى حقوق الله كى ينال مغفرته .

الشـــــكور

قال تعالى : (**ان ربنا لغفور شكور**)[2] ، وقال عز وجل : (**ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما**)[3] .

لو توقف العقل عند اسم « الشكور » لأصابه الدهش والتحير . . إنما يشكر من يتلقى من غيره نعمة ، وأى نعمة تقدمها الخلائق العاجزة لله ، وأصل النعم كلها من الله ، أى شىء يستحق أن يشكر الله عباده عليه ؟ لا شىء . غير أن الله شاء . . لسابق منته وكرمه ، وقديم لطفه ورحمته ، شاء أن يكون اسمه تعالى الشكور ، رحمة منه بالعباد وإحسانا إليهم . . فالله يعطى الخلق رغم استغنائه عنهم ، ويشكرهم ان احسنوا رغم أن الشكر فى حقهم واجب ، ورغم استعلاء الله وافتقار الناس ، نرى الأعلى يشكر ويمتن ، ومعنى الشكر فى حق الله تعالى هو الرضا .

حظ العبد من هذا الاسم كبير ، الأصل أن يكون العبد شاكرا ، ومن المجاز شكر الله عز وجل .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٣ .

(٢) سورة فاطر ٣٤ .

(٣) سورة النساء ١٤٧ .

العـــلى

هو الذى يعلو كل أحد ، ويتعالى على كل احد .

وهو الذى بلغ غاية الغايات فى علو المقام .

وهو العلى بذاته وصفاته عن تصورات الخلق واعتقاداتهم . .

والله هو العلى باطلاق وبلا حد .

حظ العبد من هذا الاسم أن يدرك أن الله هو العلى المطلق ، وعليه ان يعفر جبهته فى تراب الذل أمام عظمته .

الكبـــير

الله هو الكبير فى صفات كماله ، وهو الكبير بذاته سبحانه ،

والله أكبر من كل شىء ، ولا يقارن به شىء . .

قال تعالى (**وإن الله هو العلى الكبير**)[1] والكبير هو ذو الكبرياء والعظمة .

حظ العبد من هذا الاسم أن يصغر لرب العالمين ويكبر على ما سواه .

الحفــيظ

هو الحافظ المبالغ فى الحفظ والحراسة ، وحفظه يمتد للخلائق جميعا فلا يكلفه ذلك مشقة أو تعبا ، قال تعالى : (**وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما**) بمعنى لا يشق عليه حفظهما . .

والله حفيظ على كل شىء . . (**إن ربى على كل شىء حفيظ**)[2] .

حظ العبد من هذا الاسم أن يحفظ حق الله عليه وهو التوحيد ، ويحفظ جوارحه عن المعاصى .

المقيــت

هو خالق القوت المتكفل بأرزاق خلقه ، سواء كان رزقه ماديا أو روحيا . وهو المطلع على أوقات الخلق وأعمالهم ، وهو الحافظ عليهم ،

---

(١) سورة لقمان آية ٣٠ .

(٢) سورة هود ٥٧ .

يقول تعالى : (وكان الله على كل شيء مقيتا)[1] أى مطلعا وقادرا ومستوليا وحاكما .

حظ العبد من هذا الاسم أن يراقب أوقاته ويشكر لخالقه قوته الذى يسوقه إليه .

الحسـيب

من معانيه الكافى . . وهو اسم لا يتصور حقيقة إلا لله ، فهو الذى خلق الكون محتاجا إليه دائما ، والله كافيه أبدا وأزلا .

ومن معانيه المكافىء بالحساب . . (وكفى بالله حسيبا)[2] .

ومن معانيه المحاسب على الأعمال . . (إن الله كان على كل شيء حسيبا)[3] .

وليس للعبد مدخل فى هذا الوصف ، إلا أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله عز وجل .

الجـليل

الجليل هو صاحب نعوت الجلال ، ووصف الجليل يجمع صفات الغنى والملك والتقديس والعلم والقدرة وبقية الصفات . .

والجلال شأن من شئون الله ، وصفة من صفاته سبحانه ، والجمال ظل الجلال ، ويرى العارفون بالله أن الوقت يتبع الجلال والجمال ، إذا كان العبد تحت ظل الجلال كان الوقت مرا وغلب الإحساس بالرهبة . . فإذا دخل العبد تحت ظل الجمال كان الوقت حلوا وغلب الإحساس بالحب .

لا يتصور أن يكون للعبد حظ من هذا الاسم إلا التعلق . . لا التخلق . .

لم يرد ذكر لهذا الاسم فى القرآن . . وإن وصف الله تعالى اسمه بذى الجلال والإكرام ، قال تعالى (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام)[4] .

---

(١) سورة النساء ٨٥ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٩ .

(٣) سورة النساء ٨٦ .

(٤) سورة الرحمن ٧٨ .

الكـــــريم

تأمل سؤال الحق تبارك وتعالى للانسان (**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك**)[1] .

والله هو الكريم إذا أطلق الوصف وأريد به منتهاه . وهو الكريم الذى لا يضيع من توسل إليه ، وبغير صفة الكرم الإلهى يستحيل قيام الحياة واستمرارها .

والله هو أكرم الأكرمين سبحانه . . قال تعالى (**اقرأ وربك الأكرم**)[2] .

حظ العبد من هذا الاسم أن يتخلق بأوصاف الاسم ويحسن للناس .

الرقـــيب

الله رقيب لا يفلت من رقابته شيء ، شاهد حاضر لا يغيب عنه شيء ، عليم محيط بأحوال كل شيء ، قال تعالى : (**وكان الله على كل شيء رقيبا**)[3] .

حظ العبد من الاسم أن يراقب سره وعلانيته . .

المجـــيب

يعلم الله تعالى حاجة المحتاجين قبل السؤال ، وينعم على الخلق قبل الدعاء ، ويتفضل بالإكرام قبل النداء ، وهو المجيب لدعوة الداعى إذا دعاه ، (**أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** . .)[4] .

حظ العبد من الاسم أن يجيب دعوة ربه .

الواســـع

اسم مشتق من السعة ، وهو مجاز فى حقه تعالى ، يضاف مرة إلى العلم إذا اتسع ، ومرة إلى الإحسان إذا عم وانتشر ، ومرة إلى الرحمة إذا فاضت

---

(١) سورة الانفطار ٦ ـ ٨ .
(٢) سورة العلق ٣ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٢ .
(٤) سورة النمل آية ٦٢ .

وأغرقت ، قال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء)[1] وقال تعالى : (والله واسع عليم)[2] .

حظ العبد أن يتسع علمه وفضله وحلمه .

الحـــكيم

الحكمة هى ثمرة العلوم ، والحكمة هى اصابة التقدير وإحسان التدبير ، والله هو الحكيم المنزه العزيز . قال تعالى : (وإن الله لهو العزيز الحكيم)[3] .

حظ العبد من الحكمة أن يأخذ برأسها ، ورأس الحكمة مخافة الله كما ورد فى الأثر .

الـــودود

اسم مشتق من الود ، وهو أفق أعلى من أفق الحب ، هو كمال فى الحب ورحمة ، وهو زيادة فى العفو والمغفرة ، قال تعالى (ان ربى رحيم ودود)[4] ، والودود من عباد الله هو من يريد لخلق الله كل ما يريده لنفسه .

المجـــيد

اشتق الاسم من المجد ، وهو يعنى الشرف الأعلى الذى لا يطاوله شرف ، والعز الاسمى الذى لا يرتفع إليه عز . . قال تعالى : (انه حميد مجيد)[5] .

حظ العبد من الاسم أن يذل قلبه للمجيد .

البـــاعث

باعث الرسل إلى الناس (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا)[6] .

وباعث العقول والقلوب إلى علوم الكون ومباهج الوجدان . .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ٦٢ .

(٤) سورة هود ٩٠ .

(٥) سورة هود ٧٣ .

(٦) سورة النحل ٣٦ .

وباعث الموتى يوم النشور من قبورهم . . والبعث هو النشأة الآخرة ، وحقيقة البعث من أغمض المعارف . . هى غيب اخفاه الله عنا . وحقيقة البعث هى احياء الموتى ، والجهل هو الموت الأكبر ، والعلم هو الحياة الأكرم . .

وحظ العبد من الاسم أن يهرع إلى الحياة الأكرم .

الشــــهيد

الشهيد مبالغة فى الشاهد ، والله شاهد على أفعال خلقه . . وهو عالم الغيب والشهادة ، وشهادة الله تعالى هى الحق . . قال تعالى (**شهد الله أنه لا إله إلا هو**)[1] وقال عز وجل (**والله يشهد إن المنافقين لكاذبون**)[2] .

حظ العبد من اسم الشهيد أن يشهد أن لا إله إلا الله .

الحــــق

هو الحق الموجود المتعالى على الفناء . . وهو الحق الذى يحاسب على الباطل ويجزيه عن جرائمه ، (**فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون**)[3] .

والله هو الحق وما دونه باطل . .

حظ العبد من أسم الحق أن يكون صورة للحق فى أحواله كلها . .

الــوكيل

هو الموكول إليه كل الأمور ، ومن أراد العزة والأمان فحسبه أن يكون الله وكيله (**وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**)[4] لا ينصرف معنى الاسم إلى العبد إلا مجازا . .

---

(١) سورة آل عمران ١٨ .

(٢) سورة المنافقون آية ١ .

(٣) سورة يونس ٣٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٣ .

القـوى المتـين

القوة هى القدرة التى لا يقف أمامها شىء . . والمتانة هى شدة القوة . . قال تعالى : (**إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**)[1] ، وقوته تعالى تمسك السماوات والأرض أن تزولا . . وقد رسم النص القرانى صورة لقوة الله عز وجل فقال (**وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم**) . والقوة هدف المؤمن ، وقد ضاع المسلمون يوم ضعفوا فاستعمرتهم أمم الأرض ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير عند الله وأحب إليه من المؤمن الضعيف » .

الـــولى

الولى هو من يتولى أمور الخلق جميعا ، وينصرهم . . قال تعالى : (**الله ولى الذين آمنوا**)[2] . . والله هو الولى والوالى وله الولاية وحده . . أى له الحكم وحده . .

(**هنالك الولاية لله الحق**)[3] .

الله تعالى هو (**الحميد**) الذى حمدَ نفسه سبحانه وأثنى على ذاته بقوله تعالى (**واعلموا أن الله غنى حميد**)[4] وكتابه الكريم (**تنزيل من حكيم حميد**)[5] . . وهو (**المحصى**) الذى ينفذ علمه إلى الخفايا والأسرار ، وتشمل رقابته ظاهر التصرف وأعماقه ، ولا يفلت كتابه الذى سجله على المجرمين أى شىء (**ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**)[6] . . والله تعالى هو (**المبدىء المعيد**) ، فهو الخالق ابتداء وانتهاء ، والبدء والاعادة اشارة إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة ، ونشأةالحياة على الأرض سر ، وبعث الموتى وعودة التراب سر أكبر . . وقد أجمل الله تعالى هذين السرين الكبيرين فى قوله المعجز (**الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون**)[7] . .

---

(١) سورة الذاريات ٥٨ .
(٢) سورة البقرة ٢٥٧ .
(٣) سورة الكهف ٤٤ .
(٤) سورة البقرة ١٦٧ .
(٥) سورة فصلت ٤٢ .
(٦) سورة الكهف ٤٩ .
(٧) سورة الروم ١١ .

(**المحيى المميت**) اسمان من أسمائه تعالى ، ذكرهما ابراهيم عليه الصلاة والسلام (**إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت**)[1] . . وذكرهما الله فى قوله : (**إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير**)[2] . . والحياة والموت سران من أسراره ، منه تصدر الحياة وبأمره يقع الموت ، وقد انفرد وحده بأنه (**الحى القيوم**) وحياة الله عز وجل هى الحياة الأبدية الأزلية ، وقيامه على الخلق لا يشبه قيام أحد على أحد . . وقد أشارت آيات القرآن لعظمة هذين الاسمين فجعلت سجود الوجوه جميعا للحى القيوم (**وعنت الوجوه للحى القيوم**)[3] . .

الله تبارك وتعالى هو (**الواجد**) أى الغنى الذى لا يعوزه شىء وكل ما فى الكون بالنسبة إليه فاقد والله وحده هو الواجد وهو (**الماجد**) ، والماجد هو الذى اشتق اسم المجد منه ، وهو (**الأحد**)الذى لا يصمد له أحد ، وهو (**الصمد**) الذى يقصده كل أحد ، (**قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد**)[4] .

من أسماء الله تعالى (**القادر المقتدر**) والقادر معروف ، والمقتدر مبالغة فى القادر ، وقدرة الله تعالى هى القدرة التامة التى لا يعجزها شىء . . وهى قدرة لا تقارن بها قدرة ، وحين كان العرب يتشككون فى بعث الإنسان بعد أن يتحول إلى التراب ، أفهمهم الله تعالى باشارة « يتسع معناها يوما بعد يوم » ان الله قادر على بعث التراب وتسوية البنان (**أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه**)[5] ، وحين نزل القرآن منذ ١٤ قرنا لم يكن العالم يومها يعرف أن أصابع كل انسان فى الأرض تحمل بصمة تختلف عن بصمة أصابع غيره . . لقد سوى بنان الانسان بحيث يختلف عن أى انسان آخر ، وفى عالم مقاومة الجريمة اليوم تلعب البصمة دورها كدليل نهائى وقاطع ، يؤخذ به المجرمون أو تتضح به البراءة . . وبأكفأ مما يحدث فى الدنيا سيحدث فى الآخرة ، سيعيد الله جمع العظام

---

(١) سورة البقرة ٢٥٨ .
(٢) سورة ق ٤٣ .
(٣) سورة طه ١١١ .
(٤) سورة الاخلاص
(٥) سورة القيامة ٣ ، ٤ .

وتسوية البنان ، وفى الإشارة إلى بصمات الأصابع ايحاء مروع بأن أحدا من المجرمين لن يفلت يوم القيامة ، كما يمكن أن يقع فى الأرض . . وفى الإشارة ظلال من القدرة الالهية التى ستحشر المجرمين بأدلة ادانتهم .

حظ العبد من هذين الإسمين أن يتذكر قدرة الله عليه فلا تدعوه قدرته لظلم الناس ، من أسماء الله تعالى (**المقدم المؤخر**) ، فهو المقدم لعباده الخير والنعم ، وهو المقدم إليهم الوعيد ، وهو المؤخر الآجال إلى أجل مسمى عنده ، وهو المؤخر للعذاب لعل العاصين يتوبون . . والله يعلم المستقدمين والمستأخرين ، بمعنى أنه يعلم بدايات الأشياء ونهايتها ، وجودها وفناءها ، حكمتها ومعناها ، خوافيها وأسرارها . . وهو (**الأول والآخر**) ، هو سبحانه الأزلى الأول الموجود قبل أن يكون شىء . . وهو سبحانه الباقى الأبدى الآخر بعد كل شىء . .

وهو (**الظاهر والباطن**) ، فكل ما ظهر فى الوجود وبطن ، الله هو الظاهر عليه وهو المهيمن على باطنه ، ويرسم الاسمان صورة لحكم الله المسيطر . ومن معانى الظاهر أنه الظاهر بآثاره وخلقه ، ومن معانى الباطن أنه المحتجب بذاته وصفاته ، قال تعالى (**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم**)[1] .

(**الوالى**) هو مالك الأشياء ، المتولى لها الولى عليها ، الحاكم العالم بها ، الناصر لها ، الآخذ بيدها إلى كمال الخير . . والله هو (**المتعالى**) على كل شىء ، وهو (**البر**) بمعنى الرحيم وفاعل البر وهو الخير . والله هو (**التواب**) (**وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون**)[2] .

والتواب مبالغة فى التوبة ، وتوبة العبد هى رجوعه إلى الله سائلا الرحمة ، وتوبة الله على العبد تعنى محو السيئة وإفاضة الرحمة ، وإذا كان الله هو التواب فهو سبحانه (**المنتقم**) وانتقام الله تعالى يعنى وقوع عقابه على المجرمين . قال تعالى : (**انا من المجرمين منتقمون**)[3] . والله هو المنتقم وهو (**العفو**) الذى يقدم العفو قبل تقديم العقوبة ، ويمحو الذنوب

---

(١) سورة الحديد ٣ .

(٢) سورة الشورى ٢٥ .

(٣) سورة السجدة ٢٢ .

حين تتجه القلوب إليه بالدعاء والعمل الصالح ، وقد أشار إلى عفوه وغفرانه بصيغة الماضى إشارة إلى أنه سبحانه هو العفو الغفور الأزلى . قال تعالى : (**وكان الله عفوا غفورا**)[1] والله تعالى هو (**الرؤوف**) والرأفة كمال من كمالات الرحمة ونهاية من نهاياتها ، قال تعالى (**وإن الله بكم لرؤوف رحيم**)[2] والله هو (**مالك الملك**) ، باطلاق وبلا تحديد ، كل ملك وأى ملك ، الله تعالى هو مالكه الحقيقى وهو مستخلف الناس عليه ، والله هو (**ذو الجلال والإكرام**) والجلال صفة الجليل ، والإكرام مشتق من الكرم ، ولا حدود لجلال الله وإكرامه قال تعالى : (**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**)[3] .

من أسماء الله تعالى (**المقسط**) وهو اسم مشتق من العدل ومعناه قمة العدل وذروته . قال تعالى : (**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**)[4] .

ومن أسمائه (**الجامع**) . . ومن معانيه جمع أجزاء الخلق بعد أن تفرقت فى تراب الأرض ، وجمع الناس يوم الفصل والحساب ، وجمع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا (**إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا**)[5] .

من أسمائه (**الغنى المغنى**) ، والغنى الحميد حقا هو الله (**إن الله هو الغنى الحميد**)[6] والمغنى حقا هو الله ، (**وإنه هو أغنى وأقنى**)[7] .

وهو (**المانع**) الذى يرد أسباب الهلاك ويوحى بالأمن ، وهو المانع من فضله من يستحق المنع ، وهو (**الضار النافع**) الذى يفقر ويغنى ، ويمنع ويمنح ، ويضر وينفع ، ويأخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون : (**فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون**)[8] والله هو (**النور**) ، والنور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره ، قال تعالى (**الله نور السماوات والأرض**)[9] . وكل نور فى السماوات والأرض هو مصدره وخالقه ، ويوم القيامة حين يهلك نور الشموس والنجوم تشرق الأرض بنور آخر . . (**وأشرقت الأرض بنور ربها**)[10] .

---

(١) سورة النساء آية ٩٩ .
(٢) سورة الحديد آية ٩ .
(٣) سورة الرحمن آية ٢٦ ؛ ٢٧ .
(٤) سورة الحجرات ٩ .
(٥) سورة النساء آية ١٤٠ .
(٦) سورة لقمان ١٦ .
(٧) سورة النجم ٤٨ .
(٨) سورة الأنعام ٤٢ .
(٩) سورة النور ٣٥ .
(١٠) سورة الزمر ٦٩ .

من أسماء الله تعالى (**الهادى**) الذى يهدى القلوب إلى الحق ، ويهدى إلى السبيل ، ويهدى إلى الصراط المستقيم ، و (**البديع**) ، أى مبدع الأشياء ، البديع فى ذاته فلا مثيل له ولا كفء ، (**بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم**)[1] وهو (**الباقى**) وهو (**الوارث**) الذى يرث الأكوان والخلائق . . قال تعالى : (**ولله ميراث السماوات والأرض**)[2] ، وإذا كان الله تبارك وتعالى يرث السماوات والأرض ، فهو يرث ضمنا البشر الفانين بكل ذهبهم وثرائهم وأحلامهم وآمالهم وصراعاتهم ولعب الصبيان التى كانوا يتقاتلون عليها فى الأرض . . يعود كل شىء إلى الله ، ويقف البشر بين يدى وارثهم وخالقهم (**الرشيد**) ، الذى أرشدهم إلى ما فيه خيرهم ، والذى لا يسهو فى تدبيره ولا يلهو فى تقديره . . (**الصبور**) على الخلق فى كل حال ، المبالغ فى صبره عليهم ، فلا يأخذهم فى الحال ، وإنما يؤخرهم حتى يتوبوا فيسرع إليهم بالعفو . .

. . . .

هذه أسماء الله الحسنى عند جمهور العلماء . .

وقد ورد ذكر اسم الله الأعظم فى أكثر من حديث . . أرجح ما ورد فيها من حيث السند ، ما رواه بريدة رضى الله عنه ، قال : « سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ويقول : اللهم انى أسألك انى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » .

. . . .

أيضا ورد عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين (**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**)[3] (**ألم . . الله لا إله إلا هو الحى القيوم**)[4] .

. . . .

---

(١) سورة الأنعام ١٠١ .

(٢) سورة الحديد ١٠ .

(٣) سورة البقرة ١٦٣ .

(٤) سورة آل عمران ١ .

كما روى عن سعد بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هل أدلكم على اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى . . الدعوة التى دعا بها يونس حيث نادى فى الظلمات الثلاث **(لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين)**[1] .

قال رجل : يا رسول الله . هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟

قال رسول الله : ألا تسمع قول الله عز وجل **(فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين)**[2] .

. . . .

اختلف العلماء فى تعيين اسم الله الأعظم على نحو الأربعين قولا . . وكان اختلافهم راجعا لأسانيد الأحاديث التى أخذوا بها أو لم يأخذوا بها ، ومعنى هذا عند بعض العلماء أن الاسم الأعظم لم يعين بالذات ، وفى العلماء من يرى أن الأسم الأعظم دعاء مركب من عدة أسماء من أسمائه سبحانه ، إذا دعا به الإنسان وتوفرت شروط الدعاء استجاب الله . . وفى الناس من يتوهم أن هذا الإسم سر من الأسرار ، يمنح لبعض الأفراد ، فيفتحون به المغاليق ، ويخرقون به العادات ، وهذا أمر زائد عما ورد عن الله ورسوله . . وهو اجتراء على الله ورسوله .

ونحن لم نؤمر بالإضافة لديننا أو النقص منه .

قال تعالى فى قصة سليمان حين أمر أن يحضروا له عرش بلقيس **(قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)**[3] .

ذهب بعض العلماء إلى أن هذا العلم من الكتاب ، كان هو اسم الله الأعظم . . واختلفوا فى الشخص فقال بعض المفسرين أنه آصف بن برخيا ، وقال البعض أنه كان جبريل عليه السلام ، وقالوا أن اسم الله الأعظم هو **(الله لا إله إلا هو الحى القيوم)**[4] .

وهذا كله غير محقق ، ولا مؤكد ، ولقد كانت حياة سليمان عليه السلام تمتلىء بالأمور الخارقة للعادة ، فهو يكلم النمل ، ويعرف منطق الطير ،

---

(١) سورة الأنبياء ٨٧ .
(٢) سورة الأنبياء ٨٨ .
(٣) سورة النمل آية ٤٠ .
(٤) سورة البقرة آية الكرسى .

ويستخدم الهدهد ، والجن مسخر رهن اشارته ، وعرش بلقيس يحضر إليه فى أقل من غمضة عين . .

غير أن هذا كله كان وقفا على سليمان . . ولم نعرف فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم أن الريح كانت تحمل جنوده كما حملت سليمان . . لم يثبت لدينا أن المعجزات والخوارق كانت هى الأساس فى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

إنما كانت الدعوة كتابا هو القرآن . .

ورجال أخذت أخلاقهم بخطها من القرآن . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تخلقوا بأخلاق الله تعالى) وهذا معناه خذوا من أسمائه وصفاته ما يليق ببشريتكم فاجعلوه خلقا ، وهذا ما حمل الغزالى على كتابة التنبيهات فى نهاية شرحه لكل اسم من اسماء الله .

. . . .

نريد أن نغض الطرف عن اختلاف العلماء حول اسم الله الأعظم . .

ونريد أن ننكر على الذين يزعمون أن معرفتهم تجاوزت معرفة النبى صلى الله عليه وسلم فهم يفتحون به المغاليق ويعلمون به الأسرار ، ونريد أن نقول أن الذين يزيدون بالقول أو بالفعل فى هذا المجال يعرضون أنفسهم لغضب الله .

أن الطريق واضح . . اما أن نقبل أصح الأحاديث الواردة . فيكون اسم الله الأعظم هو ما نطمئن إليه حسب الأسانيد التى نرتضيها .

وإما أن ننفض أيدينا من الخلاف والاختلاف ونفهم أن اسم الله الأعظم وراء هذا كله .

. . . .

. . . .

سأل ذو النون شيخه : ما تجريد التوحيد .

قال الشيخ : فقدان رؤية ما سواه .

سأل ذو النون : ما اسم الله الأعظم .

قال الشيخ : أن تقول الله وأنت تهابه . .

قال ذو النون : كثيرا ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

قال الشيخ : لأنك تقول الله من حيث أنت . . لا من حيث هو . .

الحوار السابق يدور بين اثنين من العارفين بالله .

شيخ وأستاذه . .

سأل الشيخ أستاذه عن اسم الله الأعظم ، فصرفه بالرفق إلى أن يقول الله وهو يهابه . .

والهيبة شعور نفسى تعنى أن يستحضر العبد عظمة الله وجلاله فى قلبه . .

وتعنى أن ينسى موقفه كإنسان خلق من تراب ، ويذكر أنه يسأل ذو الجلال والإكرام . .

ثمرة الحوار ان إسم الله الأعظم يتوقف على حال العبد . . على إحساسه القلبى وحقيقة مشاعره . .

مغزى الحوار أن اسم الله الأعظم يتوقف على حب العبد لله عز وجل . .

وكلما أخذ العبد بحظه من حب الله . . دنا من حقيقة اسم الله الأعظم . .

حب الله

قال تعالى : (**والذين آمنوا أشد حبا لله**)[1] .

تعنى الآية أن حب الله تبارك وتعالى صفة من صفات المؤمنين ، وغاية من غايات وجودهم . . ويستخدم النص القرآنى تعبير (أشد حبا لله) اشارة إلى عمق الحب وصفائه وخلوصه .

. .   . .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناسا قالوا له : يا رسول الله أنا نحب ربنا حبا شديدا . . فنزل قوله تعالى (**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**)[2] وبهذا النص صارت طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة على صدق الحب لله عز وجل . .

. .   . .

تقوم العقيدة الإسلامية على جناحين هما العقل والحب . . والحب نسيج أصيل من أنسجة الكون . . يتحدث الله تبارك وتعالى عن غاية الخلق وهدف الخليقة قائلا (**وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون**)[3] .

فسر ابن عباس كلمة العبادة بالمعرفة ، والمعرفة أشمل من العبادة وأعم ، ينفتح داخلك كون على الكون الأكبر ، تفهم أن عليك أن تبدأ رحلة السفر فى

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٦٥ .

(٢) سورة آل عمران من الآية ٣١ .

(٣) سورة الذاريات آية ٥٦

الكونين معا ، غير أن كل شىء فى الدنيا نسبى ، والمعرفة الإنسانية نسبية وناقصة وتتغير . . لا بد أن يكون سبب الخلق شيئا أكبر من مجرد المعرفة . .

والعبادة قمة من قمم المعرفة كما أنها قمة من قمم الحب أيضا .

يعتقد محيى الدين بن عربى أن الله قد خلق العالم ليقدم العالم حبه إلى الله . .

ويرى ابن القيم أن الله قد خلق العالم ليعبده العالم ، والعبادة هى قمة المحبة وكمالها . .

لماذا يريد الله منا أن نحبه ، إلا إذا كان سبحانه وتعالى قد سبقنا بالحب . لا يطلب أحد من أحد أن يحبه إلا إذا كان يسبقه بفضل الحب ، فما بالك بخالق له فضل الخلق إبتداء والإيجاد والإنعام والبعث إنتهاء . .

الفرق بين حب الله لنا وحبنا البشرى لامرأة أو زهرة أو كتاب ، أننا نكمل أنفسنا الحائرة حين نحب ، ونكمل ذواتنا الناقصة حين نحب ، ونحتاج إلى من نحب ولهذا نحب . .

تعالى الله علوا كبيرا على هذا كله . .

معنى الحب فى حق الله عز وجل هو العطاء والرحمة والرأفة . .

. . . .

(ن . . والقلم وما يسطرون)[1] .

يقسم الله تعالى بحرف وقلم وسطر من الكلمات . .

ذلك أن حرفا واحدا يمكن أن يقود الإنسان إلى الله . .

حرف واحد . .

لو فكر الإنسان فى قدرة الله الممثلة فى خلق الحروف ، وخلق الكلمات ، وجعلها رموزا وإشارات ، وجعلها خطوطا تحتوى داخلها على الكون الأكبر ، وتملك القدرة وهى تمشى على الأوراق أن تعبر عن ملايين الصور والأحلام والدهشة والإكتشاف ، لو فكر الإنسان فى هذا كله لعرف قدرة الله وآمن .

---

(١) سورة القلم آية ١ .

إن الفرق العظيم بين الإنسان والسلم الحيوانى كله هو الحروف .
وظيفتها فى عالم الإنسان وإنعدامها فى عالم الحيوان . .
تتفاهم الحيوانات فيما بينها بلغة خاصة ، غير أنها لغة غير مكتوبة .
عندما تكتب اللغة ، عندما تولد الحروف ، تومض أضواء الحضارة ، وتنشأ العلوم والفنون والآداب ، ويولد الحب . .

هل الحب فن ؟ أو مجرد احساس عابر ؟

تقوم حضارة الغرب المعاصرة التى نعيش فى ظلها على أن أسهل شىء فى الدنيا هو الحب . . وتتحدث هذه الحضارة عن « الوقوع فى الحب » إشارة إلى أن الحب شىء يخضع للصدفة والمؤثرات ، ويقع فيه الإنسان إن كان سعيد الحظ . .

وهذا المفهوم السطحى هو المسؤول عن نسبة كبيرة من تعاسة النوع الإنسانى ، ومن الأهمية البالغة أن نحدد توصيفنا للحب أولا . .

إذا كان الحب إحساسا عابرا أو إحساسا وقتيا مثيرا فهذا يعنى إستحالة مناقشته أو التعرض له . . لأن الأحاسيس تتوقف على المؤثرات المجهولة ، ودراسة شىء مجهول لن تؤدى لنتيجة . .

والحقيقة أن الدراسات الحديثة فى علم النفس تكشف أن الحب فن . . وليس إحساسا عابرا ، الحب فن معقد كفن الجراحة أو الموسيقى أو التدريس أو الكتابة للمسرح ، فن يحتاج إلى المعرفة والجهد والإخلاص . . ومن الخطأ البالغ أن ننظر إلى الحب على أنه موضوع أو شىء أو سر ننتظر الوقوع فيه أو العثور عليه . . الحقيقة أن الحب وظيفة انسانية ، هو فن معقد كالحياة سواء بسواء ، ولعله فن أصعب من الحياة قليلا ، لأنه ملح الحياة الذى تفقد مذاقها لو ضاع .

ما هو أسلوب تعلم أى فن ؟

المعرفة النظرية أولا ومعرفة التطبيق ثانيا ، إذا أراد الإنسان أن يتعلم فنا كالطب ، وجب عليه أن يعرف عديدا من الحقائق عن الجسم الإنسانى والأمراض المختلفة . . بعد هذه المعرفة النظرية لا يمكن القول أننى تعلمت الطب ، إنما أحتاج إلى طريق طويل هو ممارسة العلاج ومزاولة الطب نفسه ، حتى يجىء الوقت الذى تصير فيه المعرفة النظرية والمران العملى

وحدة لا تنفصل . . ساعتها يملك الإنسان فنه ، ولكنه لا يصبح سيدا فى فنه إلا إذا توفر عنصر ثالث . . هذا العنصر هو التفانى المطلق أو الإهتمام البالغ ، بحيث لا يصير فى العالم كله شيء أهم عندى من الطب .

يصح هذا الكلام على الموسيقى كما ينطبق على الطب كما يجوز على الحب . . ومن المدهش أن الناس تنفق الجهد والمال لتعلم الموسيقى أو الطب أو التدريس أو الصناعة ، ولكنها لا تحاول تعلم الحب ، والسر فى ذلك أن هذه الفنون فى حضارتنا المعاصرة تقدم عائدا مجزيا ، أما الحب فكل عائده يرجع إلى الروح ، وليست الروح فى حضارة الغرب المعاصرة فى أهمية الصناعة أو التقدم المادى أو الرفاهية . الحب فن إذن . . وهو فن يرتبط بالمعرفة كما يرتبط بالعمل . .

الذى لا يعرف شيئا لا قيمة له ، ومن الصعب على من فقد القيمة أن يحب . . لأن الحب هو الحجر الأخير فى هرم القيم ، ومن المستحيل أن يوجد الحجر الأخير والهرم نفسه غائب . . إنما يقدر على الحب من يقدر على الفهم والملاحظة والرؤية والإحساس والعطاء ، وكلما زاد ميراث الإنسان من المعرفة زادت قدرة القلب الإنسانى على الحب . . من قوانين الحب أنه عطاء ، يحس فيه من يعطى أنه يأخذ . . والعطاء يحتاج إلى رقى فى الإنسان ، لأن معظم الخلق يحبون أنفسهم فحسب ، وإنما يبدأ الإنسان بالخروج من ذاته وحب الآخرين كلما ارتقى علمه ونضجت شخصيته ووجدانه ، وأى نظرية عن الحب يجب أن تبدأ بنظرية عن الإنسان . عن الوجود الإنسانى . . نحن نعرف أن الإنسان جزء من الطبيعة . جزء من الأرض . جزء من عالم الخلائق الحية . ورغم ذلك فهو ليس طبيعة وليس أرضا وليس حيوانا . . إنما هو كائن جديد فيه هذا الحنين إلى الأرض الأم ، وفيه فى نفس الوقت هذا البعد الهائل عن الأصل الذى جاء منه .

الإنسان حياة تعى أنها حياة . . هذا الوعى بالذات والآخرين والماضى والمستقبل سمة من سمات الإنسان ، يعى الإنسان أنه حياة منفصلة عن حياة الكون أو حياة الخلائق ، يعى الإنسان أن عمره قصير على الأرض . . يعى أنه جاء إلى الحياة بغير ارادته ، وسيذهب عنها بغير استئذانه ، سيموت الإنسان أمام أحبائه فلا يستطيعون له شيئا ، وسيموت أحباؤه أمام عينيه فلا يستطيع لهم شيئا ، هذه الغربة إزاء قوى الطبيعة والمجتمع والدولة ، هذا

كله يجعل وجوده سجنا لا يمكن احتماله . يتحول الإنسان إلى الجنون لو لم يحرر نفسه من غربة هذا السجن ، ويربط نفسه بالبشر ويتصل بالعالم الخارجى ، يحدثنا علم النفس أن تجربة الغربة أو الإنفصال توقظ القلق وهى مصدر كل أنواع القلق . . فكون الإنسان منفصلا يعنى أنه مقطوع وغير قادر على ممارسة قدراته كإنسان . .

أن يكون الإنسان منفصلا يعنى أن يكون عاجزا ، غير قادر على الإمساك بالعالم ، غير قادر على الإمساك بالأشياء أو الناس ، غير قادر على ممارسة نشاطه ، وهذا يعنى أن العالم يستطيع أن يغزونى بغير قدرة منى على الرد . وهذا يؤدى إلى الإحساس بالهزيمة ، ومن الهزيمة يولد الإحساس بالعار والذنب .

يرى علماء النفس أن أعمق حاجات الإنسان . . حاجته للتغلب على إنفصاله ، لأن الإنسان إذا إنفصل عن العالم فقد رؤية العالم . . وزاد إحساسه بالغربة والرعب ، فهو يتوقع الهجوم عليه من عالم لم يعد يراه أو يتصل به . .

وليس هناك طريقة للإتصال بالكون والآخرين غير الحب . .

أحب آدم حواء على الأرض ، وولد من حبهما النوع الإنسانى .

وبغير الحب تتحول الحياة إلى سجن إنفرادى وعزلة قاسية . .

. . . .

ما هو موقف العقيدة الإسلامية من الحب ؟

ما هو مفهوم الحب عند هذه العقيدة .

لا نعرف عقيدة تربى اتباعها على الحب كالإسلام . . ربما كان الإسلام لا يتحدث كثيرا عن الحب ، ربما كان لا يستخدم الكلمة بوفرة فى أحاديثه ، لأنه يعرف حقيقة الحب ويمارسه بنضج فى حياته اليومية . .

إذا كان الحب هو الحل الوحيد أمام الإنسان ليخرج من سجن الذات إلى إتساع الكون ورحابة الآخرين . . فإن الحب ـ بأعمق من هذا المفهوم ـ جزء من أصول الإسلام وقواعده . . لأن الإسلام يصل المسلم بالله أولا وأخيرا .

لا يكو المسلم وحيدا ولا غريبا وان ترك وحده ، يعرف المسلم أن الله تبارك وتعالى معه . .

يصل الإسلام أتباعه بالله مباشرة ، يصلهم بخالق الكون ومصدر

الأمان . ويؤكد لهم أن الله معهم فى كل وقت (وهو معكم أينما كنتم)[1]
هذا الإتصال أول شىء يتعلمه المسلم كمعرفة نظرية . .

أول شىء بنى عليه الإسلام هو شهادة « أن لا إله إلا الله » ، هذه الشهادة تعنى خروج الإنسان من غربته ووحدته وإتصاله بالله . .

فالشهادة شهود ويقين . .

وإذا شهد الإنسان أن له ربا يبسط عليه خيام المن الإلهى والرحمة .

إذا أيقن الإنسان أنه ليس وحده فى الكون . . إذا وقع هذا وذاك تحرر الإنسان من الغربة والخوف ، وتحررت طاقاته ومواهبه من قيود السكون . . عندئذ يصير الإنسان حرا . .

من أصول العقيدة الإسلامية أن يصلى المسلم خمس مرات فى اليوم . .

والصلاة هى التطبيق العملى ، للمعرفة النظرية التى تقولها شهادة لا إله إلا الله ، والصلاة حركات يقوم بها المسلم ، يسجد فيها ويركع ، يقرأ القرآن ويدعو ، يذكر الله ويشكره . . وقبل هذا كله وبعده يحب الله . . إذا الصلاة صلة بالله . . يقف الإنسان فيها خمس مرات فى اليوم بين يدى ربه سبحانه . .

وارحم ملوك الأرض وأعدل حكامها لا يقابل رعاياه فى الأسبوع مرة ، ولكن الله الرحيم العظيم يقابل عباده فى اليوم خمس مرات . . وأرحم ملوك الأرض وأعدل حكامها يضيق بطلبات رعيته ويكره أن يسأل . . ولكن الله الكريم العزيز يحب أن يسأله الناس من كل شىء . فهو سبحانه الذى حدث الناس أن خزائن جوده ورحمته تتعاليان على النقصان والنفاد . .

الشهادة فى الإسلام اتصال بالله وحب

والصلاة فى الإسلام إتصال بالله وتطبيق عملى للحب . .

والزكاة فى الإسلام تصرف إقتصادى ينطوى على فعل من أفعال الحب ، هدفه إنتشال الفقراء من الفقر وإسعادهم بالحياة الكريمة . .

والصوم فى الإسلام إمتناع عن حاجات الجسم إلى الطعام والشراب حبا فى الله وطاعة لأمره . .

---

(١) سورة الحديد من الآية ٤ .

والحج فى الإسلام تعظيم لشعائر اقامها ابراهيم . وابراهيم هو النبى الذى اتخذه الله خليلا . . وإحياء شعائره إحياء لشعائر حب الإنسان لله . وحين يجىء العيد ويحتفل المسلمون بذبح الأضاحى يحتفلون فى نفس الوقت بقصة النبى الذى أمره الله أن يذبح ولده فأطاع . . وكانت طاعته إشارة إلى أن المسلم هو الذى يحب الله أكثر مما يحب نفسه أو أبناءه . .

أى تأمل للعقيدة الإسلامية يوحى أنها تقوم على الحب . . نوع من أرقى أنواع الحب وأعظمه . . حب الله تعالى . . وحب الكون . . وحب الإنسان والحيوان والنبات والخلائق . .

حتى الجهاد فى الإسلام ينطوى فى أعماقه على لون من أعظم ألوان الحب . . يعتبر المسلم أن الأرض هى أرض الله التى استخلف الإنسان عليها ، والمسلم خليفة فى الأرض ، وهو مسئول بوصفه هذا أن يجاهد فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . . المسلم مسئول عن الشر الموجود فى الأرض ، الأصل المفروض أن يقاومه . المسلم مسئول عن آلام النوع البشرى ، الأصل المفروض أن يحارب الألم . وكل صور الألم كالطغيان والفساد والخطايا هى معارك جهاد ينبغى على المسلم أن يرفع سيفه فيها ، لقد كان الجهاد فى الإسلام منطويا على حب عميق للنوع البشرى . . كان الملوك والجبارين والطغاة يمنعون عن الناس ضوء الحقيقة ، ويمنعون الناس من الإتصال بالله . ويقفون ضد رقى العقل البشرى وينتكسون به إلى عبادة الطغاة والذهب وكان على الإسلام أن يرفع سيفه وقرآنه ، كان السيف هديته القاصمة للجبارين ، وكان القرآن إيذانا بفتح النوافذ على شمس الروح . .

هذا هو المسلم كما تصنعه عقيدة الإسلام . .

إنسان يحزنه البؤس الإنسانى ، ويحس بالعار عندما يرى أمامه تعاسة ليست من صنعه ، ويضحى بنفسه وماله من أجل تقليل كمية الحزن فى العالم . المسلم مسئول عن النوع البشرى كله . إذا كان يملك القوة لتغيير الحياة رفع سيف الجهاد ، فإن لم يملك القوة فعليه أن يدعو للناس جميعا بالهداية ويصلح نفسه .

هذا الحب الذى أنطوت عليه العقيدة الإسلامية هو المسئول عن إنتشارها كضوء الشمس فى بداية الدعوة . .

ومازالت الشمس موجودة وإن كنا لا ندير الرؤوس نحوها .

. . . .

تقوم العقيدة الإسلامية على حب الله للإنسان ، فهو الذى خلقه بيديه ، وهو الذى نفخ فيه من روحه ، وهو الذى أسكنه الجنة ، وأسجد له الملائكة سجود تكريم ، وهو الذى غفر له حين أخطأ وتاب ، وهو الذى أهبطه إلى الأرض تحقيقا لأمره ، وهو الذى كرمه وفضله ، (**ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**)[1] .

. . . .

ادرك العارفون بالله قيمة الحب فى حياة الإنسان . . واختاروا حب الله عز وجل . .

يقول شاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومى :

حب الله جوهر الأديان ـ وهو أصل خشوع القلب وطهر اللسان .

أشعل فى روحك نار طهر الحب ثم أحرق بها كل فكر .

فإن أخطأ المحب فى التعبير فليس بخاطىء وإن كان مجللا بالدماء .

فلا تغسل الشهداء فالدم أولى بالشهداء من الماء وخطأ المحب خير من ألف صواب .

إنك تبصر النقش فى المرآة وما هو إلا خيالك وليس صورة المرآة .

الأنفاس التى ينفثها لاعب الناى فى الناى ! هل تنتمى للناى .

فليكن فى سجودك صفاء روحك ولتدرك معنى دعائك .

وقل يا من سجودى مثل وجودى غير أهل لرجائك .

إن هذه الأرض لتحمل أثرا من حلمك وعفوك واقتدارك .

تخفى قذى انفسنا تحت الثرى ومن اريج الزهر يفوح عطر سخائك .

منذ أكثر من سبعمائه عام ، ولد جلال الدين الرومى فى مدينة بلخ الرومية ، ولقد قدر لهذا الرجل أن يكون حامل لواء الدعوة إلى الحب . . كانت تجربة المعتزلة مع العقل قد تركت جفافا فى المجتمع الإسلامى ،

---

(١) سورة الاسراء آية ٧٠ .

وكان الناس فى حاجة لعلم جديد للكلام ، علم لا يستخدم منطق اليونان وتعبيرات الفلسفة ، وإنما يوقظ أعماق القلب ويستخرج كنوز الوجدان .

ولقد ترك جلال الدين الرومى أثرا من أخلد الآثار الأدبية فى العالم هو « المثنوى المعنوى » ، وهو ٦ مجلدات تضم ٢٥ ألف بيت من الشعر المكتوب بالفارسية . . ويرى جلال الرومى أن أمراء الكون هم العاشقون يرى أن الطريق إلى الله يمر بقلب الإنسان . . وإذا كانت الحواس الظاهرة هى أدوات العقل لتبين طريقه ، فإن هذه الأدوات تستمد قوتها من الأبدان والأشباح ، أما الخواص الباطنة فتستمد غذاءها من النفوس والأرواح . . والأجسام فطرت على الظلام ، والأرواح فطرت على النور ، والذين أعتمدوا على حواسهم الظاهرة واقتصروا عليها وأنكروا ما عداها ضيعوا حواسهم الباطنة وفقدوا قواهم ومواهبهم التى منحها الله لهم . . وسترت عنهم حقائق عديدة . .

وشأن كل العاشقين يرى الرومى أن أنواع الألم فى الدنيا كثيرة أهمها وأخطرها ألم البعد عن الله . . ولهذا لا ينظرون إلى الموت نفس النظرة التى يراه بها الناس ، لا يعتبره نهاية لحياة ثمينة ، وإنما يراه مقدمة لحياة خالدة باقية ، إن العمران لا يكون إلا بعد خراب ، وأى كنز مدفون يحتاج إلى حفر الأرض واثارتها ، والشجرة لا تعطى ثمارها حتى تتفتح وتسقط الأزهار ، فإذا رأيت بيتا يتهدم ويمضى إلى الخراب فاعلم أن هناك بناءا جديدا ، والروح لا تقوى على إرتداء كسوة جديدة إلا إذا تهدم الجسم الفانى ، وذهب العمر القصير ، إن الله وهو الكريم المطلق ، لا يسلب نعمة إلا ويعطى نعمة أكبر منها ، فهو سبحانه لا يسلب هذه الحياة الضعيفة ، إلا ليعطى حياة أفضل منها وأكرم ، وأجمل وأبقى . .

دعا جلال الدين الرومى إلى الحب دعوة رائعة ، وراح يتقدم فى أعماق هذه العاطفة فإذا هى محور يدور حوله الكون والانسان والخلائق .

يرى العلماء أن حضارة الغرب المعاصرة تصنع إنسانا ينتظر الوقوع فى الحب . . إنسانا يعتقد ان الحب أسهل شىء ، وأجمل شىء أن يكون المرء محبوبا لا أن يحب . . ويعتقد العلماء أن هذا هو السر فى تعاسة الإنسان المعاصر ، لأنه ينتظر أن يهبط عليه الحب ، بينما هو نفسه لا يعرف كيف يحب لأن أحدا لم يعلمه كيف يحب . .

أما حضارة الإسلام العظيم فقد صنعت ناسا مثل جلال الدين الرومى والغزالى والجنيد ، وصنعت مفهوما للحب يتمثل فى العطاء الدائم والجهد المستمر .

يقول العارفون بالله ليس لكل إنسان أن يكون محبوبا فهذا يحتاج إلى صفات وفضائل لا يملكها كل واحد ، ولكن لكل إنسان أن يأخذ نصيبه من الحب وينعم به . .

فإذا فاتك يا سيدى أن تكون محبوبا ، فلا يفتك أن تكون محبا ، وإذا لم يكن حظك أن تكون يوسف ، فمن يمنعك أن تصير يعقوب . .

إلى أى مصدر ينبغى أن يوجه الحب . . وهو نور الحياة وقيمة الإنسان ؟

إن الحب العظيم لا يليق إلا بالعظيم . . والحب الباقى لا يليق إلا بالخالد . .

قال ابراهيم عليه الصلاة والسلام (**لا أحب الآفلين**) .

وإذن لا يستحق الحب غير الحى الذى تستمد منه الحياة .

وليس للمحب أن يشكو من تدنيه وسمو محبوبه . . ليس للمحب أن يشكو أنه وهو هيكل من تراب قد جرؤ على حب نور السموات والأرض . . إن صقر الحب حين طار من وكره لم تراوده نفسه إلا بالنزول لهذا التراب الذى عجن بالمشقة والجهد المتواصل . .

وأصل الحب إنكسار القلب ، ومنشؤه جرح الفؤاد . . وهو علة لا تشبهها علة ، هو علة تختلف عن كل علة . . هو علة تشفى كل علة . . والحب شعلة إذا التهبت أحرقت كل ما سوى المحبوب ، مثلما أن التوحيد سيف إذا سله صاحبه قطع كل ما عدا الله . .

يقول الرومى « إن حكاية الحب لا تنتهى . . وتفنى الدنيا ولا تنقضى عجائبه . . لأن الدنيا لها بداية ولها نهاية ، والحب وصف من لا يفنى ولا يموت » .

هذا رأى الصوفية فى الحب . . إنهم يرونه سببا من أسباب الوجود وسرا من أسرار الخلق . .

وينفرد التصوف من بين أساليب المعرفة ، بأنه لا يفترض وجود حقيقة مطلقة فحسب ، وإنما حقيقة مطلقة يمكن معرفتها والإتصال بها . . وهو ينكر

أن المعرفة الإنسانية قاصرة على معطيات الحس أو سعى الفكر أو جهد العقل . . فإن هذا فصل لمواهب الإنسان وتجزئة لطاقاته ، فليس الإنسان عقلا فحسب ، إنما هو قلب وذوق ومشاعر وحدس .

قال الإمام الغزالى - حجة الإسلام - عن الصوفية :

ظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وكما أن هناك فرقا بين أن يعلم الإنسان حال الصحة وحد الشبع ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان فكذلك فرق بين معرفة حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا .

رأى الغزالى أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال ، وهم أهل ذوق وسلوك وليسوا أهل سماع وتعلم .

التصوف تجربة روحية . . وهو تجربة بدأت بالزهد ، ثم تحولت إلى التصوف . .

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الحب لله عز وجل يأخذ أرفع صوره ، ويتمثل فى الجهاد فى سبيله والتحرير . . وبعد نشوء الدولة الإسلامية وإتساعها وثراء المسلمين ، أحس بعض العلماء أن الدنيا تقبل على المسلمين بصورة أقرب إلى المحنة . . وخشى هؤلاء على دينهم ان تأكله دنياهم فزهدوا . . وفى البدء كان الزهد تصرفا فرديا ، ثم ما لبثت الحياة أن تعقدت واتصل المسلمون بثقافات وفلسفات وأفكار وتجارب روحية ، ونشأ التصوف من بذرة الزهد القديم ، وسرعان ما نمت البذرة . . نتيجة إتصال الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى وتعدد الثقافات وتنوعها وتفاعلها ، وصار التصوف شجرة باسقة الأغصان مليئة بالثمار . . وصحيح أن هذه الشجرة هى الثورة الروحية فى الإسلام ، ولكن الصحيح أيضا أن جزءا من ثمارها لا يحمل مذاق الإسلام . . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى الغلو . . ان الإسلام كدين لا يقر الغلو فى شىء على حساب شىء آخر . . ولا يقر المبالغة فى جناح على حساب الجناح الثانى ، وميزة الإسلام الأولى أنه يهيىء للإنسان توازنا مدهشا يجعل طاقاته أقدر ما تكون على العمل . . وأقوى ما تكون على الفعل ، يعرف الإسلام حب الله تعالى . . ولكنه لا يعرف الرهبنة . . يحترم الإسلام العقل ، ولكنه لا يجعل له السيادة على

الروح ، يقدر الإسلام حقائق الوجدان ، ولكنه لا يسمح لها بشل حركة العقل . . يعترف الإسلام بحاجات الإنسان فى الدنيا ، ولكنه لا يجعل الدنيا كل هم المسلم ، يؤكد الإسلام أن الآخرة هى أخطر شىء فى الوجود ، ولكنه يجعل الدنيا طريقا إليها ، وهكذا يمضى كل شىء فى الإسلام مثلما يمضى الجسد الإنسانى فى عبقريته وتوازنه . . لا يطغى فيه جناح على جناح ، أو عضو على عضو ، أو وظيفة على وظيفة . .

وعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الشخصية الإسلامية فى قمة تكاملها ، سواء فى النماذج الفريدة أو المتوسطة على السواء ، وكانت العقيدة الإسلامية فى أوج تناسقها مع الشخصية الإسلامية . . كان كل شىء يعيش معا فى سلام . . إن بذور علم الكلام موجودة فى التوحيد وبذور التصوف موجودة فى الزهد ، ولكن كلا منهما كان يشبه أعضاء الجسم ، لا يحس بها أحد مادامت تعمل فى سلام وصحة ، وإنما يبدأ الإحساس بها أو ببعضها عند المرض . .

وحين انفتحت حياة المسلمين على العالم ، تعاقبت أسباب النمو وأسباب الضعف على النزعتين ، سواء العقلية أو الوجدانية ، وصار أى نمو لإحدى النزعتين على حساب الأخرى ، أمر يخل بإنسجام الشخصية الإسلامية . .

وقد رأينا كيف وصل الأمر بالمتكلمين إلى إعتبار الحياة عقلا جافا فلسفيا يتيه اعجابا بنفسه ، ورأينا كيف وصل الأمر بالصوفية إلى إعتبار الحياة وهجا لحب يخلو من العقل . .

وصل الصوفى أبو يزيد البسطامى إلى موقف يقول فيه « رفعنى مرة فأقامنى بين يديه وقال لى يا أبا يزيد إن خلقى يحبون أن يروك ، فقلت زينى بوحدانيتك ، وأرفعنى إلى أحديتك ، حتى إذا رآنى خلقك قالوا رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هناك » .

هذا الكلام لا يعبر فى قليل أو كثير عن العقيدة الإسلامية ، ومن هنا كان إنكار ابن أبى داود الظاهرى وإفتاؤه بقتله . . وقوله أن المحبة على هذا النحو لا تجوز على الله تعالى . .

والحق أن غلو الصوفية وشطحاتهم هى تعبير فنى أو أدبى عن شعورهم ، وهى لا تحتسب على الإسلام ، لا تضاف إليه ولا تخصم منه ، فهى فن يصدر من عشاق سكروا بخمر الحب . .

ولا بأس عليهم أن يسكروا بخمر الحب ، ما داموا بعيدين عن أصول العقيدة . .

نحن نعرف أن الحب احتراق القلوب . . والقلوب التى احترقت لا تفرض عليها القوانين ولا تؤخذ منها الضرائب ، ولا تخضع لما يخضع له الكافة ولا تحاسب على ما أبقاه الحريق منها . .

نعرف هذا كله ونحترمه كإنتاج أدبى عظيم ، ولكننا نحب أن نقول أن هناك فرقا بين العقائد ورؤى الفنانين لهذه العقائد . .

وأمامنا الإسلام وعقائده سليمة قد حفظها الله . .

أمامنا المثل الأعلى لحب الله عز وجل . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى فى سورة الأحزاب :

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

كلمة عن الكتاب

هذا كتاب جديد فى علم التوحيد . .

وقد اخترت أن أكتب عن الله تبارك وتعالى فى العقيدة الإسلامية ، لأنها هى الدين الوحيد المقبول عند الله .

وقد لاحظت أن معظم الكتب المعاصرة التى صدرت عن الله ، كانت تتحدث عن تطور فكرة الله عند الإنسان ، إبتداء من نشأة العبادة الوثنية وإنتهاء بأديان التوحيد وهذا معناه أن هذه الكتب لا تتحدث عن الله ، كما يحدثنا هو سبحانه عن نفسه ، وإنما تتحدث عن فكرة الإنسان عن الله وفرق هائل بين المعنيين . . ورغم احترامنا لمنهج الدراسات المقارنة فى الأديان ، واحترامنا لمنهج التأريخ لفكرة الله وتطورها عند البشر ، إلا أننا نرى الحاجة ماسة إلى كتب من لون جديد . .

لون يشرف بالكتابة عن الله عز وجل من واقع العقيدة الإسلامية كإطار حاكم ، ومن واقع التصور القرآنى كمصدر أساسى ، ومن واقع أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل سنته والعارفين .

لون يربط القارىء بحب الله ، والثقة فى رحمته ، والأمل فى عفوه .

. . . .

. . . .

ولقد كان هدفى من الكتاب أن يكون رسالة معاصرة فى التوحيد ، توجه أساسا لقارىء مسلم ، وحدد هذا الهدف منهجى فى الكتاب . .

وقد حاولت جهدى أن أنظر وأفكر . .

وأعترف أننى لست مجتهدا فى هذا الكتاب ، ولا ينبغى لى أن أكون كذلك فى ميدان كالعقائد والغيب ، كل ما فعلته أننى قدمت تصور السلف والخلف لله عز وجل ، بأسلوب معاصر وعقل حديث ، هذا كل الجهد . .

وهو كما يرى القارىء لا شىء . .

وقد سألت نفسى بعد كتابته هل نحن فى حاجة لكتب فى علم التوحيد ؟

وتذكرت ما كتبه علماؤنا عن كتب التوحيد ، قال الأستاذ محمد الغزالى أن كتب علم التوحيد التى تشيع بيننا ويدرس بعضها الطلبة فى المعاهد الدينية ، قد فشلت فى أداء رسالتها شكلا وموضوعا ، فهى موزعة بين المتن والشرح والحاشية والتقرير ، فى لغة ركيكة اللفظ سقيمة الأداء ، لغة تصور سقوط البلاغة العربية على عهد الإحتلال التركى ، كما أن هذه الكتب تزدحم باصطلاحات الفلاسفة وطرائق تفكيرهم ، كما أنها لا تمس الجانب الوجدانى فى المسلم .

ويرى الأستاذ مالك بن نبى أننا بحاجة إلى علم جديد للكلام ، يطلق عليه اسم تجديد الصلة بالله . . ويمزج بين الوجدان والعقل . .

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسد جزءا من هذه الثغرة .

والإنسان يبذل الجهد بتوفيق الله عز وجل . .

والله سبحانه هو الذى يعطى الثمرة . .

. . . .

أعرف أنها جرأة أن يكتب تراب خاطىء مثلى عن الله . . ولكن . . ماذا نعمل . . إذا كان الله قد خلق التراب قادرا على الحب والكتابة . .

. . . .

نسأل الله تعالى أن يعفو ويرحم . .

وندعو لقارئه بالقبول والرحمة . .

أحمد بهجت

مراجــع الـكتاب

١ - القرآن الكريم .

٢ - الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبى .

٣ - تفسير المنار - الشيخ محمد عبده - طبعة رشيد رضا .

٤ - فى ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق .

٥ - العقائد - حسن البنا - دار النور .

٦ - عقيدة المسلم - محمد الغزالى - دار الكتب الحديثة .

٧ - لمعة الاعتقاد - ابن قدامة المقدسى - المكتب الإسلامى .

٨ - كلمة الاخلاص - الحافظ بن رجب الحنبلى - المكتب الإسلامى .

٩ - الرعاية لحقوق الله عز وجل للمحاسبى - مكتبة الجامعة المصرية .

١٠ - كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب - ابن خزيمة - مكتبة الكليات الأزهرية .

١١ - شرح الطحاوية فى العقيدة السلفية - على بن أبى العز - تحقيق أحمد شاكر نشر زكريا على يوسف .

١٢ - شرح حديث النزول - ابن تيمية - الغزنوى .

١٣ - الابانة عن أصول الديانة - الأشعرى - قصى الدين الخطيب .

١٤ - كتاب الزينة فى الكلمات الإسلامية - للرازى - تحقيق حسين بن فيض الله الهمذانى .

١٥ - الله - طريق الهجرتين وباب السعادتين - ابن قيم الجوزية - إدارة الطباعة المنيرية .

١٦ - الله - القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد - ابن عطاء الله السكندرى .

١٧ - التوحيد الذى هو حق الله على العباد - الإمام محمد ابن عبد الوهاب - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

١٨ - تفسير سورة الإخلاص - ابن تيمية - د . محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة أنصار السنة .

١٩ - أصول الايمان - الامام محمد بن عبد الوهاب - نشر قصى محب الدين الخطيب .

٢٠ - تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان - دار العلم للملايين .

٢١ - علم أصول الفقه - الشيخ عبد الوهاب خلاف - دار القلم .

٢٢ - سفر المزامير - ترجمة محمد الصادق والأب دى بوركى الدومنكى - دار السلام .

٢٣ - رسائل العدل والتوحيد - الامام يحيى بن الحسين - تحقيق محمد عمارة - طبع دار الهلال .

٢٤ - رسالة الخلود - محمد اقبال - ترجمة دكتور محمد السعيد جمال الدين - مطابع سجل العرب .

٢٥ - مثنوى جلال الدين الرومى - ترجمة ودراسة د . محمد عبد السلام كفافى - المكتبة العصرية .

٢٦ - ربانية لا رهبانية - أبو الحسن الندوى - دار الفتح بيروت .

٢٧ - مولانا جلال الدين الرومى - أبو الحسن الندوى - المختار الإسلامى .

٢٨ - المواقف والمخاطبات لابن عبد الجبار النفرى - مكتبة المثنى ببغداد .

٢٩ - العقائد الإسلامية - سيد سابق - دار الكتب الحديثة .

٣٠ ـ الامام الممتحن أحمد بن حنبل ـ أبو الحسن الندوى ـ المختار الإسلامى .
٣١ ـ رسالة التوحيد ـ للامام محمد عبده ـ طبع دار المنار .
٣٢ ـ المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ـ حجة الإسلام الغزالى ـ مكتبة الكليات الأزهرية .
٣٣ ـ أسماء الله الحسنى ـ الشيخ حسنين مخلوف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٣٤ ـ شروط النهضة ـ مالك بن نبى ـ ترجمة عمر كامل مكاوى وعبد الصبور شاهين ـ دار القلم .
٣٥ ـ أبو الحسن الأشعرى ـ أبو الحسن الندوى ـ المختار الإسلامى .
٣٦ ـ فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ مكتبة النهضة .
٣٧ ـ ضحى الإسلام ـ أحمد أمين ـ مكتبة النهضة .
٣٨ ـ ايقاظ الهمم فى شرح الحكم ـ ابن عجيبة الحسنى ـ مصطفى البابى الحلبى .
٣٩ ـ ركائز الايمان ـ محمد الغزالى ـ مطبعة الشعب .
٤٠ ـ رسائل العدل والتوحيد ـ للحسن البصرى ـ تحقيق محمد عمارة ـ دار الهلال .
٤١ ـ شرح أسماء الله الحسنى للقشيرى ـ تحقيق الحلوانى ـ مطبعة الأمانة .
٤٢ ـ الطريق إلى الله ـ أبو سعيد الخراز ـ تحقيق دكتور عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة .
٤٣ ـ الأسئلة والأجوبة الأصولية ـ عبد العزيز المحمد السلمان ـ الرياض .
٤٤ ـ المجددون فى الإسلام ـ أمين الخولى ـ دار المعرفة .
٤٥ ـ فاذكرونى أذكركم ـ د . عبد الحليم محمود .
٤٦ ـ المال والحكم فى الإسلام ـ عبد القادر عودة ـ مطبعة دار الكتاب العربى .
٤٧ ـ خلق المسلم ـ محمد الغزالى ـ دار الكتب الحديثة .
٤٨ ـ التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام ـ د . أبو العلا عفيفى ـ دار المعارف .
٤٩ ـ عوامل وأهداف نشأة علم الكلام ـ يحيى هاشم حسن فرغل ـ مجمع البحوث الإسلامية .
٥٠ ـ الإمام القشيرى ـ دكتور ابراهيم بسيونى ـ مجمع البحوث الإسلامية .
٥١ ـ وجهة العالم الإسلامى ـ مالك بن نبى ـ ترجمة د . عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر .
٥٢ ـ الإسلام فى عصر العلم ـ محمد أحمد الغمراوى ـ مكتبة وهبة .
٥٣ ـ المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ـ محمد عمارة ـ المؤسسة العربية للدراسات .
٥٤ ـ قضية الإلوهية ـ عبد الكريم الخطيب .
٥٥ ـ روائع إقبال ـ السيد أبو الحسن الندوى ـ دار القلم .
٥٦ ـ الله ـ عباس العقاد ـ دار الهلال .
٥٧ ـ النجوم فى مسالكها ـ سير جيمس جينز ـ مطبعة كمبردج .
٥٨ ـ القضاء والقدر ـ محمد متولى الشعراوى ـ إعداد أحمد فراج ـ دار الشروق .
٥٩ ـ رسالة فى القضاء والقدر (غير منشورة) لفضيلة الاستاذ ماهر اسماعيل شاهين .
٦٠ ـ الطريق إلى مكة ـ محمد أسد .
٦١ ـ الله يتجلى فى عصر العلم ـ أشرف على تحريره جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ، راجعه الدكتور جمال الدين الفندى ـ نشر دار احياء الكتب العربية .
٦٢ ـ مجلة المسلمون ـ (من ٥٢ ـ ٥٤) .
٦٣ ـ التنمية الذاتية والمسئولية فى الإسلام ـ للدكتور حسن صالح العنانى ـ من مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية .
٦٤ ـ معالم التوحيد فى القرآن الكريم ـ جعفر السبحانى وجعفر الهادى ـ طهران .

فهـــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة
موقف اعتذار	٥
توحيد الله	٨
فطرة الله	١٣
عهـد الله	١٧
معرفة الله	٢٣
عطاء الله	٢٧
ذات الله	٣٢
الوعى بالله	٣٨
شـــهادة الله	٤٣
جنـود الله	٥٤
رسـل الله من الملائكة	٥٨
رسـل الله من البشـر	٦٧
كلمات الله	٧٥
يوم القيامة	٨٥
البـــعث	٩٧
السـاعة والحسـاب	١٠٣

الموضوع	رقم الصفحة
الجنة والنار	١٠٧
القضاء والقدر	١١٤
أحدية الله	١٤٢
رحمة الله	١٤٦
قواعد التوحيد	١٥٢
حق الله	١٦٠
أيام الله	١٧٢
الشرك بالله	١٨٣
ذكر الله	١٩٧
خليفة الله	٢٠٤
حكمة الله	٢١٦
رؤية الله	٢٢٩
شئون الله	٢٣٦
صفات الله	٢٤٠
علم الكلام	٢٥٢
أسماء الله الحسنى	٢٧٥
حب الله	٣٠٧
كلمة عن الكتاب ومنهجه	٣٢٠
مراجع الكتاب	٣٢٢

مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ كتب للأطفال والنشء :

* فى مجال العلوم :

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال (ترجمة : د . محمد أمين سليمان)
- طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر (ترجمة : د . أيمن الدسوقى)
- ميكى يسأل ويجيب (ترجمة: د . أحمد فؤاد باشا)

□ سلسلة علماء العرب :

* ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى)
* ابن الهيثم (عالم البصريات)
* البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)
* جابر بن حيان (أبو الكيمياء)
* ابن البيطار (عالم النبات)

(سليمان فياض)

□ فى مجال التربية البدنية والرياضية :

- موسوعة جوفى الرياضية :

* السباحة والغطس
* الألعاب الأوليمبية
* ألعاب الأطفال

(ترجمة : نجيب المستكاوى)

□ فى مجال ترقية المهارات والخيال :

* ألوان ألوان (حسين أبوزيد)
* تعال نصنع (حسين أبوزيد)
* رحلة صيد (شاكر المعداوى)
* حكايات أعجبتنى (يعقوب الشارونى)
* حكايات عربية وإسلامية (علية توفيق - رسوم : كمال درويش)

□ فى مجال التربية الفكرية :

* حوار بين طفل ساذج وقط مثقف (أحمد بهجت)

□ كتب فى الابداع الأدبى :

* عرابى زعيم الفلاحين (عبد الرحمن الشرقاوى)
* كانت صعبة ومغرورة (احسان عبد القدوس)

□ كتب فى الابداع الفكرى :

* سرقة ملك مصر (محسن محمد)
* معجم الأمثال العامية مع كشاف موضوعى (أحمد تيمور باشا)
* انطباعات مستفزة (د . يوسف ادريس)
* مذكرات صائم (أحمد بهجت)

□ كتب دينية :

* قراءة فى وثائق البهائية (د . بنت الشاطىء)
* القرآن مأدبة الله للعالمين (الشيخ أحمد حسن الباقورى)
* معانى القرآن بين الراوية والدراية (الشيخ أحمد حسن الباقورى)
* الله فى العقيدة الاسلامية (أحمد بهجت)

رقم الايداع بدار الكتب

٣٦٦٣ / ١٩٨٦

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

هذا الكتاب

« الله أكبر » هي التي تقال لافتتاح الصلاة والدخول فيها.

[illegible] كلمة « الله أكبر » في هذا الموضع [illegible] للنظر.

هي تعني أن الله أكبر من إمكانات الحروف وكلمات المتكلمين وصلاة المصلين .. وتعني أن الله أكبر من قدرة الذهن البشري على التصور .. وأكبر من قدرة القلب الإنساني على الحب والعبادة .. هي تعني أن الله أكبر من كل شيء .. ومن أي شيء .. فهو سبحانه ليس كمثله شيء.

من هنا تجيء صعوبة الكتابة عن الله .. لأن جميع محاولات الكاتب سوف تصدر في النهاية من مستوى البشرية .. وهو مستوى لا يستطيع أن يحيط بجلال الألوهية أو يقدرها حق قدرها.

يقول الحق تبارك وتعالى عن ذاته في القرآن الحكيم:

« وما قدروا الله حق قدره .. والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه .. سبحانه وتعالى عما يشركون ».

غاية ما يستطيعه البشر هي الإشارة .. والسجود .. وربما [illegible] هنا بنوع من التحير والدهشة والامتنان والحب.

وهذا الكتاب إشارة إلى الذات التي ندين لها بالوجود والحياة والموت والبعث والحساب والوقوف بين يدي الله في النهاية.

هو إشارة تحاول الإجابة على السؤال التالي:

ما الذي يجب على المسلم أن يعرفه عن ربه.

[illegible] كتاب هو رسالة جديدة في التوحيد .. رسالة [illegible] خصوصا أن التوحيد ليس مرحلة نظرية فحسب .. وإنما هو علم يؤدي إلى العمل .. وحين تراجع التوحيد من دائرة الفعل إلى دائرة القول .. تأخر المسلمون في واقعهم وتخلفت حضارتهم عن دورها في قيادة البشرية.

ولا خلاص للمسلمين في الدنيا .. مثلما لا خلاص لهم في الآخرة إلا بالعودة إلى التوحيد في مفاهيمه الصحيحة ..

وهذا هو الهدف الذي يقدمه للقارئ هذا الكتاب.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل الكتاب خالصا لوجهه .. [illegible] العظيم أو الفضل العظيم.

[illegible]

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج: وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر